من التاريخ المنصوري

(تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)

تأليف

أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه العلي العظيم، الولي الحكيم، الأزلي القديم، الدال على أزليته حدوث الحوادث، الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الصاحبة والولد والثاني والثالث، محيي الأموات، ومميت الأحياء فهو الوارث لكل وارث، خلق السموات بغير عمد نرونها قائمات، وأمسكهن أن يقعن على الارض، فهن بقدرته دائمات مواكث، ودحا الأرض على الماء، وباين بينها في السفل والعلاء والحزون والرمائث. أحمده على نعمه المقيمات اللوابث، ودفاعه النائبات الكوارث، وأشهد ألا إله إلا اللّه وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل رسول أرسله.

وبعد فقد قال أبو الجلد: الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، اثنا عشر ألفاً للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة لفارس، وألف للعرب.

وقال يحيى بن كثير: خلق اللّه ألف أمة، فأسكن ستمائة البحر وأربعمائة البر واللّه أعلم.

فلنذكر الآن ابتداء التناسل، التناسل بمقتضى ماورد في السير والتواريخ حاكيا ماذكروه وسطروه كما سطروه واللّه أعلم.

- ٩٧٥٨ -

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

خرجت الفـرنج ، وزحل بالسنبلة، والمشتري في الميـزان. ومات منصور ابن نصر بن مروان، صاحب ديار بكر، وانقرض به البيت.

سنة أربعمائة وتسعين:

فتح قوام الـدولة الرحبة. وفتحـت الفرنج أنطاكيـة وسميساط، ، وفتح أمير الجيوش دمشق، وولد الآمر بن المستعلي.

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة:

ملكت الفرنج الرها، والحدث ، ومرعش ، وكيسون.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة:

أخذت الفـرنج لعنهـم الله بيـت المقدس. وخطـب لتتش بـالموصل. وأخذت الفرنج المعرة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة:

مات عميد الدولة بن جهير، وابن جزلة الطبيب.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة:

خُطب لبركيـاروق بالجزيرة، وأحرقـت رسائل أخوان الصفـا في بغداد. وقُتل جماعة من الاسماعيلية ببغداد بالمعسكر، منهم عين القضاة الصوفي.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة:

جُعلت البيعة التي بتكريت جامعاً. وتوفي المستعلي صاحب مصر.

سنة ست وتسعين وأربعمائة:

مات الملك دقاق . وفي سابع عشر جمادى الآخرة ظهر في الغرب كوكب أبيض له ذؤابة من شرقيه ، بعيدة عن الشمس في نصف برج الحوت، طول ذؤابته مائة وخمسين ذراعاً.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة:

خالية

سنة تسع وتسعين وأربعمائة:

استولى رضوان على أفامية . ومات يوسف بن تاشفين صاحب المغرب. واستولى أتابك طغتكين على صلخد وبصرى.

سنة خمسمائة:

توفي الشلول صرخاب بن بدر بن المهلهل صاحب شهر زور ونواحيها. وفتح السلطان قلعة دز، وقتل صاحبها.

سنة إحدى وخمسمائة:

تسلم ينال بانياس.

- ٩٧٦٠ -

سنة اثنتين وخمسمائة:

سلمت الموصل لمودود . وملكت الفرنج طرابلس . ومات ابن الخازن الكاتب، واسمه أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين.

سنة ثلاث وخمسمائة:

خالية.

سنة أربع وخمسمائة:

فتحت الفرنج صيدا، وبرزية، وشيح.

سنة خمس وخمسمائة:

توفي سليمان النجمي ببالس.

سنة ست وخمسمائة:

خالية.

سنة سبع وخمسمائة:

وفاة الملك رضوان . وقُتل مودود بجامع دمشق. وتسلم أتابك طغتكين صور من المصريين. وملك حلب تاج الدولة الأخرس بن الملك رضوان.

- ٩٧٦١ -

سنة ثمان وخمسمائة:

زلزلت الأثارب وما حولها ، وخسف بسميساط ومرعش.

سنة تسع وخمسمائة:

فتح برسق حماه.

سنة عشر وخمسمائة:

قُتل كامل بن منقذ، وحريق النظامية، ومقتل أحمد يل صاحب أذربيجان.

سنة احدى عشرة وخمسمائة:

خالية

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة:

تسلم ايلغازي حلب، وفتحت الفرنج أعزاز. ومات المستظهر وبويع المسترشد.

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة:

خالية.

سنة أربع عشرة وخمسمائة:

تسلم أتابك طغتكين تدمر والشقيف. وكسر نجم الدين إلغازي الفرنج على موضع يسمى البلاط ، وأخذ روجال، صاحب أنطاكية،

أسيرا ، وفتح زردنا، وطلبت الاسماعيلية من نجم الدين قلعة الشريف بحلب، وكانت عامرة، فبعث كتاب الطير إلى حلب بخراب قلعة الشريف.

سنة خمسمائة وخمس عشرة:

مقتل الأفضل أمير الجيوش، ومات القاضي عماد الدين . ومات توفيق المهندس بدمشق. ومات توفيق الحاسب ببغداد، ومات فيها أبو القاسم الحريري صاحب المقامات.

سنة ست عشرة وخمسمائة:

خرج ملك الخزر، ومَلَكَ تفليس، وبقيت في ذريتهم إلى أن ملكها جلال الدين بن خوارزم شاه في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

سنة سبع عشرة وخمسمائة:

مات ملك الخزر، وكان له نظر عظيم في شرع الاسلام، وجرى له مناظرة مع القاضي الكنجي في الكلمة أهي مخلوقة أم قديمة ؛ وأكل القطا زرع الشام.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة:

ملك البرسقي حلب، وهبت ريح حملت الرمل من أرض الرصافة إلى قلعة جعبر . وفتحت الفرنج صور. وفتح بلك منبج. ومات حسن الصباحي رئيس الاسماعيلية.

سنة تسع عشرة وخمسمائة:

أخذ ملك الخزر مدينة دوين، وقتل عالماً لايحصى. ومات ناصر الدولة بن طرخان الشيباني بحلب، وهو دمشقي. وقتل داعي الحلبية بحلب.

سنة عشرين وخمسمة:

سنة قران . ودخل ابن تومرت بغداد في طلب التفقة، وقرأ على الغزالي أحد عشر مصنفاً، من جملتها الوسيط والبسيط، وتهافت الفلاسفة[١].

سنة احدى وعشرين وخمسمائة:

دخل أتابك الشهيد الموصل، والخليفة يومئذ بمصر عبد المجيد الحافظ.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة:

دخل أتابك حلب. وملك ابن تومرت الجبل. وقتل اخواجا بهرام داعي النزارية بوادي التيم.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة:

قُتل الوزير ابن المزدغاني وقتلت معه الاسماعيلية بدمشق[٢]. قران المريخ وقلب الأسد.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة:

خطب للسلطان محمود بـأَلَمُوت، مقر ملك الاسماعيلية. وقتل ابن البيمند صاحب أنطاكية، وكان الرصد بظاهر بغداد بالدار السلطانية.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة:

قُتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، فـأُمّر ولده شمس الملوك اسماعيل، وفيها قتل ناصر الدين ابن أوشر بن يوسف بن فيروز بميدان دمشق. وفك ابن تاج الملوك[٣].

سنة ست وعشرين وخمسمائة:

دخل أتابك الموصل

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

نزل المسترشد الموصل حادي عشر رمضان ورحل عنها عاشر ذي القعدة .

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة:

مات ابن تومرت، وظهر عبد المؤمن. ومات أبو علي الحسن بن ابراهيم الفارقي شيخ ابن عصرون.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

مولد يوسف بن أيوب.

- ٩٧٦٥ -

سنة ثلاثين وخمسمائة

وقعة المسترشد والسلطان مسعود، وأسر المسترشد ، وقتل، وخطب للراشد، وقتل سيف الدولة دبيس بن مزيد، وفيها جلس المقتفي سابع عشر ذي القعدة ، ووصل الراشد إلى الموصل مخلوعاً.

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

صاف السلطان بُزابة، وكانت الكرة لبزابة. واستولى بنو الصوفي على رئاسة دمشق.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

مقتل الراشد.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

زلزلت حلب، وخرج ملك الروم إلى الشام. وخرج ضياء الدين جغري من دمشق. وقتل شهاب الدين بها، وولي جمال الدين بن تاج الملوك، وأخذت الروم بزاعا، وسبوا مقدار خمسة آلاف نفس، وجعلوها في خندق الأثارب، وكان يطعمونهم الباقلي والحشيش، ورحل ملك الروم طالباً شيزر، ونزل في القرمينية.

وخرج سيف الدين سوار بن أيدكين من خيل في معسكر حلب، فخلص الأسرى جميعهم.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

استجار الزينبي بدار السلطان. ومات جمال الدين، وولي ولده. ومات شرف الاسلام اسماعيل بن أبي المعالي قاضي الممالك.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

مات قرا سنقر صاحب أزربيجان، وفتح أتابك زنكي بعلبك، وآمن أهل قلعتها وغدر بهم، فصلب الجميع ، فكانوا مقدار ثلاثمائة نفر، ونزل على دمشق بعشرين ألف نفر.

ومات ابن أفلح قاضي البيمارستان فيلسوف عصره، وكسر سيف الدين سوار الفرنج بكبسة، وأخذ الكند اصطبل قاطع الجسر الحديد بأنطاكية.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

مات ايكلدي بن ابراهيم صاحب آمد، ورأس بالوزارة المؤيد بن نيسان، وجلس في الامارة بآمد هذه السنة محمود بن ايكلدي، شمس الملوك.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

وفاة ملك الروم بأذنة، قتله خنزير برّ ي في الصيد، وكان معه ولده منويل، فمضى على وجهه من أذنه بجماعة يسيرة إلى قسطنطينية في ثمانية أيام، وتملك بعد أبيه، ومات سيف الدين اكتدي.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

خالية.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فتحت الرها خامس وعشرين جمادى الآخرة . ودخل زين الدين علي كوجك الموصل في العشرين من ذي القعدة . ومات تاشفين بن علي (ابن يوسف) بن تاشفين. ومات داود، وولي ولده فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

سنة أربعين وخمسمائة

كسرت الفرنج نور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه الله ـ على بغراس[٤].

سنة احدى وأربعين وخمسمائة

قتل أتابك الشهيد على قلعة جعبر، وملك ولده سيف الدين الموصل، ووزر له جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالكرم والجود والصدقات، وملك نور الدين حلب.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

خالية.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

نزل ملك الألمان على دمشق. وكسر نور الدين الفرنج على إنب، وقتل

الابرنس صاحب أنطاكية، وعمل قحف رأسه وضببه بذهب وفضه، وبعثه إلى المستنجد. فلما نزل ملك الالمان على دمشق ، وعاد غير مسرور، ركب قسيس لهم حماراً وجعل الانجيل قدامه، وفي يده صليب وخلفه قليل خيالة، والفرنج تزعم أنه يملك دمشق، فلما وصل بين القنوات اشترك في قتله رجلان من أمراء دمشق: ابن الدورسي، وابن حُمار ، وقتلوا جميع من كان معه.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

وفاة تاج الدولة قرواش بن شرف الدولة. ووفاة الحافظ، وخلافة الظافر، وتوفي سيف الدين غازي وملك أخوه قطب الدين مودود.

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

سنة ست وأربعين وخمسمائة

خاليتان.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

مقتل عباس ببغداد. ومات العبادي الواعظ، وتملك عبد المؤمن بالغرب على ولاية بني حماد. وكان الجراد بالموصل، ومكث سبع سنين بدمشق، وقحطت الجزيرة وديار بكر.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

مات حسام الدين تمرتاش. وأخذت الفرنج عسقلان . وقتل الرئيس زين الدولة بن الصوفي بدمشق وأولاده.و فيها قتل عطاء صاحب بعلبك.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فتح محمود بن زنكي ـ رحمه اللـه ـ دمشق، ووقع الحريق ببغداد في دار الخليفة بصاعقـة، وقتل الظافر، وولي الفائز ، ووردت مراكـب من صقلية نهبت تنيس. ومات مؤيد الدين بن الصوفي رئيس دمشق.

سنة خمسين وخمسمائة

اتفق محمد شاه السلطان، وزين الدين علي كوجك على حصار بغداد.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

خطـب لسليمان شاه ببغـداد، خامـس عشر محرم. ومـات ابن نيسـان بآمد ، وولي ولده أبو القاسم علي، جمال الدولة.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

قبض علي كـوجك على سليمان شـاه في دربند ابـن القراملي،واجتمـع هـو ومحمد شاه،ورجعاالى حصاربغـداد،وضايقـوها. وزلـزلت حماه وشيـزر. واستـولـت الغـز على خـوزستـان ، وأسروا السلطـان سنجـر، ومـات في أيديهم[٥]،واوقبضـوا على محمد خـان قرابـة سنجـر وكحلوه، وانقطعـت خطبـة سنجر. وفتـح عبـد المؤمـن المهديـة. وفيهـا مـات الفائز وجلـس العاضد.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

مات ابـن منير الشاعر وابن القيسراني، واستـولت الغز على خـراسان،

ونهبوا مرو، وسألوا عن ذخائر سنجر. ومات صدر الدين الخوجندي رئيس أصفهان، وهو المشهور.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

مات المقتفي، ثم غرقت بغداد، ووصل الماء إلى قبلة الجامع بالرحبة، وتساقطت جميع العمايِر، وفار الماء من البلاليع والآبار. وملك المستنجد عند نزول الشمس أول الحمل[٦].

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

هم ألدكز بحصار بغداد، فخاف الخليفة المستنجد، فأمر الوزير عون الدين بن هبيرة أن يكتب إلى ملك الخزر بأن يخرج إلى بلاد اللان وأذربيجان فهي اقطاعه، فخرج ملك الخزر إلى مدينة دوُين المسماة بأردبيل ففتحها عنوة، وقتل عالما من المسلمين، ورجع .

سنة ست وخمسين وخمسمائة

خالية.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

استولى الضرغام على ديار مصر، وطرد شاور عن الوزارة إلى الشام، ومات ذو النون صاحب ملطية، وياغي سيان صاحب سيواس.

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

استدعى الضرغام أمراء مصر، وأحضرهم ، ثم أمر أن يدخل إليه

واحد بعد واحد، وأوهمهم الخلع عليهم، وكان يضرب رقابهم أولاً فأولاً حتى قتل أربعين أميراً، ثم نهب دورهم، وهتك حريمهم.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

توجه أسد الدين شيركوه إلى مصر مع شاور بعساكر الشام، والسلطان يومئذ الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله، وهو من جملة أصحابه، فملكوا مصراً وقتلوا الضرغام، ثم غدر شاور بأسد الدين شيركوه، وكاتب الفرنج ومناهم بكل أمر، فأتاه ملك الفرنج بخلق عظيم، فخرج أسد الدين شيركوه إلى بلبيس، فحاصرته الفرنج بها ستة أشهر ، وقتل فيها سيف الدين بن بُزان مجاهد الدين، وفي هذه السنة كسرت الفرنج لمحمودبن زنكي على البقيعة بكبسه تحت حصن الأكراد، وقتل الأمير عزيز بن جندر، ثم نصر عليهم.

ومات جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني، وزير الموصل ، المقدم ذكره، رحمه الله، وحمل تابوته إلى مكة كرمها الله وحماها، فدفن بها، وفيها مات ابن هبيرة عون الدين.

وفيها فتح نور الدين بانياس وحارم من الفرنج، وفيها كسر نور الدين الفرنج على حارم، وقتل وأسر مقدار عشرين ألف نفر، وأخذ البرنس وأكثر أبطالهم.

سنة ستين وخمسمائة

طلع أسد الدين شيركوه مرة ثانية إلى مصر، وكاد يفتحها ، ورجع.

سنة إحدى وستين وخمسمائة

اتفق قران في برج الجدي بزحل والمشتري والمريخ.

وغيرت الاسماعيلية مذهبهم، وشربوا الخمر، وبطلوا الصلاة والصيام، فلا رحم الله سنان، ولعنه الله.

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

خرجت الفرنج، خذلهم الله إلى ديار مصر، فحاصروا القاهرة، واضطروا إلى أسد الدين شيركوه أن ينجدهم، فكتبوا إليه ، ومنوه فطلع إليهم بعساكر الشام، وطرد الفرنج عنهم، وقتل شاور ، وملك أسد الدين شيركوه مصر، ومكث خمسة وخمسين يوما وزيرها ومات ، ثم ملك بعده السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، والخليفة يومئذ العاضد.

وفيها أحرق شاور مدينة مصر فرقاً من الفرنج أن يملكوها. وفيها كسرت السودان بمصر وقتل أكثرهم، وخرج الباقي من القاهرة.

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

حاصرت الفرنج دمياط في البر والبحر، وفيها خرج زين علي كوجك من الموصل غضبابا، فوصل إلى إربل ، فمكث بها، وظهر عليه مرض بقي شهراً ومات.

سنة أربع وستين وخمسمائة

في شهر أيار كثرت الأرياح والأهوية ، والغيوم بإربل ، وظهر في خلال الغيم تنين عظيم أسود، فكان يقرب من الارض، ثم يرتفع، ولم تدركه حقيقة النظر لعظم الغيوم والضباب، ولم تزل الرياح تطرده إلى بحيرة أرمية من كورة أذربيجان، وهلك هناك.

سنة خمس وستين وخمسمائة

زلزلت حلب وبعلبك يوم الاثنين عاشر شوال وخربتا، وهلك فيهما عالم عظيم، وانشق جبل لبنان المطل على بعلبك شقاً عظيماً مسيرة أيام، وكانت هذه السنة كثيرة الزلازل بحيث كان في بعض الأوقات أن تجيء الزلزلة في اليوم والليلة عشرين مرة، وحسب من مات بحلب تحت الردم، فزاد عن خمسين ألفاً ما بين صبي وشيخ وامرأة.

وفيها بطل الأذان بحي على خير العمل من ديار مصر جميعها، من دمياط إلى أسوان.

سنة ست وستين وخمسمائة

وفيها ابتدى صلاح الدين يوسف بن أيوب ببناء سور القاهرة.

وفيها ظهر ملك الخزر فحاصر دوين فأخذها ، وقتل بها من المسلمين ثلاثين ألف نفراً وزيادة ، وفيها توفي المستنجد، وجلس بعده الامام المستضيء.

سنة سبع وستين وخمسمائة

قطعت خطبة العاضد بمصر، وخطب للمستضيء من بني العباس، ومات العاضد آخر خلفاء المصريين، وانقضت دولتهم، واستولى صلاح الدين على القصور، واستخرج ذخائرهم ظاهرها وباطنها، وقبض أهله وسائر الفاطميين، وصلب من أهل مصر جماعة منهم قاضي القضاة العوريس، وشيرما الداعي، وعمارة الشاعر، والشريف الجليس، والقاضي ضياء الدين بن كامل، وكسفت الشمس كسوفاً كلياً. بحيث ظهرت الكواكب.

سنة ثمان وستين وخمسمائة

فتح شمس الدولة توران شاه بن أيوب ابريم من بلاد النوبة، وفتحت برقة وسنترية وجبل نفوسة بعساكر الشام، على يد قراقوش المظفري، ابن أخي صلاح الدين، وفتحت قفصه على يد ابراهيم سلاح دار.

وفيه كانت وقعة الكلمان مع مليح بن لاون، وكسر الكلمان،ووقع وقتل، وأسر أكثر جيشه.

سنة تسع وستين وخمسمائة

مات نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين، ونور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وفتح شمس الدولة ابنه اليمن بعساكر الشام، وقبض على الخليفة بها، وهو يومئذ عبد النبي بن علي، ومات فخر الدين داود، وولي ولده نور الدين.

وفي هذه السنة ظهر بضيعة من بلد دمشق رجل يدعي النبوة، وضل جماعة به، فخرج إليهم العسكر، فلم يظفر به ولا بهم، وأرسل صلاح الدين رسولاً يناظره، وكان من جملة من خرج إليه ابنان للفقيه ابن عبد الدمشقي، وتسحب إلى كفرند من بلد حلب، فقتله كمشتكين الخادم.

سنة سبعين وخمسمائة

خرج صلاح الدين يوسف بن أيوب، وملك دمشق، وأكثر الشام، ونافق الكنز بالصعيد، فخرج إليه الملك العادل بن أيوب فقتله بمدينة من الصعيد تعرف بطود، ومن كان معه.

وفيها: خرجت مراكب من جزيرة صقلية حاصرت الاسكندرية ، فظفر بهم المسلمون ولم ينج منهم إلاّ القليل.

وقتل ابن البصار، وفيها خرج أبو الفضل بن الخشاب رئيس حلب، وحاصر القلعة مستهل محرم، واجتمع إليه الحلبيون، ثم خذلوه وتفرقوا عنه، فأخذه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بالأمان، فقتله بالقلعة.

وفيها صلب عبد النبي بن علي بن مهدي، صاحب اليمن. وفيها ظهر المؤيد من خراسان إلى طبر ستان، فخرب جرجان وميشه والميزوان، ومدينة الملك ساوه، وأحرق هذ ه المدن، وقتل عالماً لايحصى، ورجع عنها، وقتل ملك طبرستان ونهب خزانته، وهو يومئذ بساوه، حسن بن رستم بن علي.

سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

كسفت الشمس حتى ظهرت الكواكب، ونزل شمس الدولة من

اليمن إلى الشام بعد قتله لناشر بن بلال ، صاحب عدن، وأخرب أمير الحاج حصن أبي قبيس بمكة.

وفيها قفزت الاسماعيلية على صلاح الدين بن أيوب في حصار عزاز، ونجاه الله، وفيها كسر سيف الدين مودود، كسره صلاح الدين مرة ثانية ونهب عسكره .

وفيهاخرج المؤيد من خراسان يريد أن يحاصر خوارزم، فوصل من المفازة إلى رأس حد خوارزم، وقد تفرقت العساكر في طلب الماء، فصادف عسكر خوارزم ، فأوقع بهم، وظفروا به فقتلوه، فكان في نحو من ثلاثمائة مملوك من مماليكه، وحمل رأسه على رمح، وطوف به في ولاية خوارزم.

وفيها مات نجم الدين بن حسام بن ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين.

سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

مات كمال الدين بن الشهر زوري قاضي دمشق. ومات فيها ألدكز أتابك السلطان. ومات السلطان طغرل بن مسعود. وقتلت الاسماعيلية شهاب الدين أبو صالح بن العجمي بحلب، بباب الجامع الشرقي، بعد صلاة الجمعة.

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

هبت ريح شديدة في بلاد القفجق، ووصلت إلى سنجة وتفليس، وبيلقان، ووصلت إلى همذان وأصفهان وإلى بلاد كوهستان، وأخربت البيوت الضعيفة ، وقتلت الغنم والبقر، ورئي في دهستان، رجل خزري

عليه زيهم، ولباسهم، وزعم أنه كان في بلده نهار أمس ، فحملته الريح المذكورة في ليلته، ورمته في دهستان، ولا يعلم ما كان ولا يدري، إلاّ أنه بالتقريب يكون نحواً من خمسة عشر يوماً.

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

قران زحل والمريخ في السرطان. ومات المستضيء ، وبويع ولده الناصر، وكسرت الفرنج صلاح الدين على الرملة، وقتلوا عالماً من المسلمين، وأسرت الفقيه عيسى. ويوم كسوف الشمس ظهر رجل بضيعة من أعمال حلب، يقال لها كفرند ادعى النبوة، فقتلوه. وفيها قتل كمشتكين الخادم.

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

فتح قصر يعقوب بالسيف ، وكسرت الفرنج، وقتل أكثرهم، ونافق جلدك الشهابي واستولى على الواحات الداخلية، فأرسل إليه أبا الهيجاء ـ المعروف بالسمين ـ وقراقوش الخادم، فأخذاه سلما.

سنة ست وسبعين وخمسمائة

مات شمس الدولة بن أيوب مستهَل صفر بالاسكندرية، وقبر بها ، وبنيت قلعة القاهرة ، ومات الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود، رحمه الله، صاحب حلب، وتسلمها عز الدين مودود بن زنكي ابن آق سنقر.

وفيها ظهرت الغز وعليهم صاحبهم مالك بن دينار، فحاصر طبرستان، وخرب جرجان واستراباد، وأحرقهما، وانهزموا في البراري والقفار. وولدت امرأة غراب بمصر، هكذا نقل، والعهدة على الناقل.

سنة سبع وسبعين وخمسمائة:

فيها تسلم عماد الدين قلعة حلب من أخيه عز الدين. وفيها مات الخطيب هاشم خطيب حلب، مصنف اللحن الخفي.

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

نزل صلاح الدين الشام، وحمل تابوت شمس الدولة ، وقبره بدمشق، وعبر صلاح الدين الفرات إلى الجزيرة ، ففتح سروج والرها، وحران، والرقة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وكاتب عز الدين صاحب الموصل، ولشاه أرمن ، فجمع العساكر، وقصد صلاح الدين ، فوصل إلى ماردين ، ومكث هناك شهوراً لايقدم على صلاح الدين، ثم إنه اجتمع مع عز الدين بقلعة ماردين، وكان خائفاً منهم، ثم إن شاه أرمن وعز الدين صاحب الموصل ، وقطب الدين صاحب ماردين اختلفوا فيما بينهم وتفرقوا ، ورجع صلاح الدين إلى آمد ففتحها وأعطاها لنور الدين بن فخر الدين، وكان قد حاصر الموصل ، ولم يقدر عليها.

سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ملك صلاح الدين حلب، وقتل أخوه تاج الملوك، ونزل عماد الدين من قلعة حلب في العشرين من ربيع الأول، وتسلم عماد الدين سنجار، والخابور عوض حلب.

وفي هذه السنة مضى إلى الكرك فحاصره ، وفيها كتب للملك المظفر تقي الدين عهداً على مصر، وكتب عهداً لسيف الاسلام أخيه باليمن، واستدعى أخاه سيف الدين من مصر وأقطعه حلب.

وفي هذه السنة ، ظهر بقرية بمصر يقال لها أبو صير، بيت هرمس

الثاني، فتحه القاضي ابـن الشهر زوري، وأخـرج منه أشيـاء من جملتهـا: كباش ،وقرود، وضفـادع بأزهر، وقوارير دهنـج، وأصنـام نحاس وغلبهم السافي[٧] على الباقي فلم يصلوا إليه.

سنة ثمانين وخمسمائة

فتح سيف الاسلام فتوحات باليمن.

ووقـع بين الكـرد والترك، وقتـل بينهـم عـالم عظيـم، وكـانـت الغلبـة للأتراك. وفيها مات الفقيه ابن عوف بالاسكندرية ، مالكي فقيه عصره.

سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

مات الفقيه علاء الدين الكاساني، إمام الحنفية بحلب.

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

فيها عبر صلاح الدين الفرات، وحـاصر الموصل وضايقها ولم يفتحها، وانتظم الصلـح بينهم. ومات شـاه أرمن . ومات قطـب الدين صـاحب ماردين. ومات نـور الدين صاحب آمد، ابن فخر الـدين، واختلفت ديار بكـر والجزيـرة، ووقـع خلـف كثير بين العـالم: بين الترك والكـرد، وبين الفرنج والروم، وبين الاسماعيلية والبنوية، وقتـل بينهم عالم عظيم بالباب، والبارة مـن أعمال حلب، وقتـل في هذه السنـة من سـائر أجناس الأمـم مالا يحصى.

وفيها فتـح صلاح الـدين ميافـارقين، بعدما قتـل عليها خلـق عظيم. ومات كثير مـن الأمراء المشهورين مثل ناصر الدين بـن أسد الدين شيركوه، صاحب حمص ، والـرحبة، وتدمر. وقتلت الاسماعيلية ابـن نيسان، ومات

محمود بن ايكلدي، وهو شمس الملوك صاحب آمد، لأن صلاح الدين أخذ آمد تسليما، وسلمها إلى نور الدين ، وأخرج صاحبها بجميع ماله، فمضى إلى سلطان الروم، ومعه وزيره ابن نيسان، فقتل ابن نيسان، ومات صاحبها شمس الملوك محمود بن ايكلدي بن ابراهيم.

وهذه السنة كان قد أرجف بها المنجمون من سائر الارض بأنه يكثر الهواء ويهلك أكثر الخلق ويكون طوفان هوائي، فلم يكن له صحة، بعد أن كان قد أخاف الناس سنة. وفيها تسلم صلاح الدين يوسف شهر زور، والبوازيج. وفيها نزل الملك العادل سيف الدين من قلعة حلب، وتسلمها الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين . وفيها توجه الملك العادل إلى مصر . وفيها مات سعد الدين بن معين الدين.

سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة

اتفق طالعها العقرب ، وفيها خرج الملك الناصر صلاح الدين بعساكر المسلمين من ديار مصر وعساكر الشام والجزيرة، وديار بكر، والموصل، وكان زحل والمشتري في الميزان، ففتح مدينة طبرية عنوة يوم الخميس ثالث وعشرين ربيع الآخر على تل حطين، الكسرة المشهورة ، وقتل من العالم مالا يحصى، وأسر السلطان الملك الناصر ملكهم الأعظم، وسائر ملوكهم، ومقدميهم، وأحصوا ذلك فكان زيادة على عشرين ألفاً ثم سار من بعد أخذهم وقتلهم إلى مدينة عكا فأخذها ، وتسلمها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ، ثم شرع فتسلم قيسارية ، وحيفا، ويافا وأرسوف، وتبنين ، وهونين ، والناصرة ، واسكندرونة، وبيسان، والفولة، وجميع تلك البلاد، ثم سار إلى مدينة صيدا فتسلمها.

ثم سار إلى مدينة بيت المقدس فحاصرها.

واستقر بين صلاح الدين وبين الفرنج الذين كانوا فيها على شراء

أرواحهم، بأن يزن الرجل عشرة دنانير مصرية، والغلام خمسة دنانير، وكذلك الامرأة والطفل والجويرية دينارين، ومن لايقدر على شراء روحه يؤخذ أسيراً ، فحصي الذي لايقدر على فكاك روحه، ولا اشتراه أحد من الفرنج خمس عشرة ألف نفر من رجل وامرأة وصبي وجويرية، فأخذوا جميعهم أسارى، وخلص في هذه البلاد التي فتحها صلاح الدين مما أحصي بالتقريب ، فكان عشرة آلاف نفر ممن كان له في الأسر السنة والعشرة والعشرين، وكان الذي قبض من مفاداة الفرنج عن أنفسهم ثلاثمائة ألف دينار مصرية.

وفي هذه السنة توجه قراقوش المظفري إلى الغرب، واستولى على القيروان والتقاه ابن عبد المؤمن ظاهر مدينة تونس فكسره قراقوش يوم الجمعة سادس عشرين ربيع الأول، واستولى على البلاد ، وخطب فيها لصلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم رجع ابن عبد المؤمن مفلولاً ، فجمع أطرافه وجموعه، وحشد خلقاً، ورجع إلى قراقوش في هذه السنة وصافقه فكسره، وانفض عنه جيشه ، ومضى قراقوش هاربا في البرية.

وفي هذه السنة قتل شمس الدين بن المقدم أمير الحاج الشامي على جبل عرفات قتله كماشتكين أمير الحج العراقي، والخليفة يومئذ الناصر لدين الله.

سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فيها خرج صلاح الدين يوسف بن أيوب وخرب مدينة أنطرطوس، وفتح جبلة ، واللاذقية، وفي الشهر المذكور أيضا فتح صهيون، وحصن بكاس، وقلعة السرمانية وحصن شغر، وبرزية عنوة، قتل فيه وسبى. وفي شهر رجب فتح دربساك، وبغراس.

وفي رمضان تسلم الكرك بعد حصاره أشد حصار ومقاتله ، كان

بعض عسكر صلاح الدين محاصروه قبل ذلك بسنة ونصف. وفي شوال من هذه السنة تسلم صفد ، وفي شهر ذي الحجة تسلم قلعة كوكب بعد قتال شديد ، وفيها أطلق الملك الناصر الملك الذي كان أسره نوبة حطين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وفيها صالح الابرنس صاحب أنطاكية على أن يطلق كل أسير من المسلمين في أنطاكية ، فكان عددهم ألف أسير، وفيها مات عيسى بن بلاشو.

سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ظهرت الفرنج بالشام ، وجاءوا من بلادهم براً وبحراً ، فحاصروا عكا، وكان نزولهم عليها مستهل رجب والقمر يومئذ بالدلو، ثم سمع صلاح الدين ، فقصدهم بسائر العساكر الاسلامية، فخندقوا على أنفسهم، وكان المسلمون يقاتلونهم من عكا، والعساكر مع السلطان يقاتلونهم من برّا من وراء خنادقهم.

ثم إنهم اجتمعوا يوم الأربعاء العشرين من شعبان، وخرجوا بكليتهم إلى المسلمين، والمسلمون يومئذ على غره، فوصلوا إلى خيمة صلاح الدين فقتلوا من كان حول السرادق، ثم نهبوا سوق العسكر، وقتلوا من لحقوه ، وقتلوا في خيمة السلطان لأبي علي بن روا حة ، الشاعر المجيد الحموي، ومكبس السلطان، وظنوا أنهم قد ظفروا ، ثم عاد صلاح الدين والعساكر فكبروا عليهم تكبيرة واحدة، فنصرهم الله، فهزموهم فقتلوا منهم خلقاً لايحصى فلما رجع صلاح الدين أمر أن تحصى القتلى، فكانوا أربعة آلاف وسبعمائة وستون نفراً، كلهم قتلى، ولم يفقد من المسلمين إلاّ القليل، وفيها تسلم السلطان الشوبك.

سنة ست وثمانين وخمسمائة

هذا والفرنج مقيمون على عكا يحاصرونها، وتقاتلوا براً وبحراً،

والسلطان كما ذكرنا من وراء خنادقهم يقاتلهم صباحاً ومساء:

وفي هذه السنة تسلم شقيف أرنون، وكان الفرنج خذلهم الله قد نصبوا أبرجة الخشب والمناجيق والدبابات، ونقبوا سور عكا، وأشرف المسلمون على الهلاك، ثم نصرهم الله، فأحرقوا مناجيقهم ودباباتهم وأبراجهم الخشب، وذلك يوم السبت العشرين من ربيع الأول، ثم خرج المسلمون عقيب الحريق، وقتلوا منهم خلقاً، ونهبوا من مخيمهم ماقدروا عليه، وأخذت الشواني عليهم في البحر.

وفي هذه السنة طلع ملك الفرنج، وهو ملك الألمان على قسطنطينية، ثم على بلاد قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي، فمنعهم ولده قطب الدين، وضرب معهم مصافاً فهزموه، وهجموا قونية ونهبوها وقتلوا منهم عالماً، حتى أنهم أخذوا النساء من الحمامات ؛ ثم رحلوا عنها، فأهلك الله ملك الألمان في الطريق، وقام مقامه ولده، ووصلوا مدينة أنطاكية في جمادى الآخر، وكان الذي وصل إلى أنطاكية نحواً من مائة ألف انسان ، ثم مضوا إلى عكا، وخرجوا لمحاربة السلطان صلاح الدين رحمه الله يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، فهجموا خيم الملك العادل، ثم تراجع عليهم المسلمون من كل جانب فردوهم، وقد قتل منهم عالماً بحيث طبق تلك الأرض الدم والقتلى، فأمر السلطان صلاح الدين احصاءهم، فكانوا اثني عشر ألف قتيل، وكان عدد الذين خرجوا إلى القتال من الفرنج يومئذ اثنان وستون ألفا.

ثم وصلت في هذه السنة جميع ملوك الفرنجة في البحر، بحيث توهم صلاح الدين شراً كثيراً لكثرة عدد الفرنج، فخرب طبرية ، وقيسارية، وحيفا ، ويافا، وصيدا، وجبيل ،وأرسوف، وسائر بلاد الساحل على البحر ،ما خلا عسقلان.

وذكر أن الفرنجية الذين اجتمعوا على حصار عكا في البر والبحر كانوا مائتي ألف وأربعين ألفا، مع قلة خيلهم.

سنة سبع وثمانين وخمس مائة

أخذت السفينة التي أرسلها صلاح الدين ، وكان قد شحنها بالعدة والميرة والمال والرجال، فغرق المسلمون أنفسهم في البحر ورموها أنفة من الأسر، وهي كانت زيادة على ضعف عكا عما كانت في السنة المتقدمة من الذخيرة والرجال، وأكثروا عليهم القتال وهجمتها الفرنج يوم الخميس بعد وصولهم نصف البلد، وقتلوا منهم جماعة من الخيالة، ثم أعادوا عليهم القتال، ونصبوا عليهم المجانيق من كل جانب، وفتحت فيها مواضع عدة حتى خربت وصارت مثل الطريق، فغلبوا وطلبوا الأمان لأنفسهم، وأخذتها الأفرنج يوم الجمعة سابع وعشرين جمادى الآخرة تسليماً، ثم غدروا بهم وقتلوهم ولم يسلم منهم إلاّ القليل، وقتل الفرنج للمسلمين يوم الثلاثاء سابع وعشرين رجب تغمدهم الله برحمته، وأسر بهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب وابن باريك، وذكروا ان عدة من كان داخل مدينة عكا من المسلمين سوى من خرج منها في المراكب خمسة آلاف وسبعمائة، وما كان في الاسلام مدينة إلاّ وكان في عكا من اهلها جماعة، وكان سبب قوة الفرنج عليهم ـ خذلهم الله ـ أن جماعة من المسلمين خرجوا عليهم من عكا، من جملتهم رجل حلبي منجنيقي يقال له ابن الوشيثة عمل مناجيق وعرفهم الأسهل منها.

سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

فيها مات الموفق خالد بن القيسراني الكاتب، وكان مجيداً في كتابته، ووزر لنور الدين ، وكان ناسخاً مجلداً، وبذلك توصل إلى نور الدين رحمه الله.

وفيها قتل الملك الظاهر الفقيه أبا الفتح السهروردي المشهور، بعد فتاوى الفقهاء له بقتله، وأحرق خوفاً من أفاسده، فإنه كان عالما، وقتل بعده بأيام تلميذه ، لأنه كان يوافقه في أقواله ودعاويه.

وفيها مات قطب الدين بن العجمي بحلب، ومات المجد بن الخشاب. ومات ابن الحلي. ومات القاضي المؤتمن بن كاسبيويه وزير الملك الظاهر صاحب حلب ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. ومات جمال الدين أحمد بن فياض وزير الظاهر أيضاً.

وفيها أخذ ابن لاون البرنس هو وابنه وزوجته وابنته بحيلة، وبقيت أنطاكية بلا صاحب .

وفيها قصد الملك الظاهر صاحب حلب بلد صافيثا.

وفيها رحل الملك المظفر تقي عمر بن شاهنشاه بن أيوب لتسليم ما شرقي الفرات مَن البلاد التي كانت مع مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك مضافة إلى ميافارقين فصارت معه: جبلة ، واللاذقية، والمعرة ، وسلمية، والرها، وحران ، وسميساط، والموزر، وشرط عليه الملك الناصر القيام بحفظ معاهدي تلك الخطة لاسيما صاحب آمد.

وفيها وصل ملك الفرنسيس لنجدة الفرنج على عكا، واسمه فليب، ومعه من الأموال ما لا يوصف.

وفيها وصل الخبر بملك الانكلتيز، واسمه جبلرت إلى قبرس، واستولى عليها، وكان قد تقدمه إلى الجزيرة عدة مراكب وشواني، ونفذ يطلب من الفرنج من عكا نجدة، فنفذوا إليه جفري أخا الملك العتيق، فأدخل صاحب الجزيرة جماعة معه في الصلح فصالحه، وحمل إليه الهدايا والإقامة فأخذه بعد ذلك من مأمنه وغله وقيده، واستولى على الجزيرة، ثم وصل

بعد ذلـك إلى عكا، وصحبته خمس وعشرين بطسـه، كل واحدة تضـاهي القلعة.

وفيها كـان خرج سيـف الديـن المشطوب، واجتمـع بالمركبس لسماع رسالته، وترددت الرسل بينهم بسبب عكـا، وكانوا قد اشترطوا اعادة جميع البلاد في صلحهم، وإطـلاق الأسارى، فبذل لهم السلطان عكـا بما فيها، فلم يفعلوا ، وسمح لهم باعادة صليب الصلبوت.

وفيها تسلم الفـرنج عكا، وكان المشطوب قد خـرج إليهم، وبذل لهم عند تحقيقـه أخذهـم لعكا مـائتي ألـف دينار، وألـف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومـائة من المعـروفين، وصليب الصلبـوت، وعشرة آلاف دينار للمركيـس لعنه اللّـه ، وأربعة آلاف دينار لحجـاب المركيس، ومـا فعلوا ؛ وهـم في ذلك ، وإذا قـد طلعـت أعلام الفـرنـج على عكا، فجـرى على السلطان مـا لايحكى، ونسب ذلك إلى غيبـة الملك المظفر تقي الـدين في ديار بكر، واشتغاله بأخلاط وغيرها.

وفيها غـدر الانكلتيز ــ لعنه اللّه ــ بالأسارى المسلمين الـذين كـانوا بعكا ، فأحضرهـم في الحبال قبالة المسلمين، وحملوا عليهـم حملة واحدة ، فقتلوا اجميـع قتلة واحدة، وذلـك بعد أن كـان قد تقرر مـع السلطان ـ رحمه الله ـ فديتهم بأموال وأسـارى غدر بهم، وكان ملعونا غداراً، وحمل السلطان عليهم بالعسكر حملة واحـدة، وجرى في ذلك النهار من القتال مالا يحكى ، وتصرف السلطـان بالمال الذي كان أعـده للفداء، والأسارى أعادهم ـ بعد أن كان قد اعدهم في الصلح ـ أيضا إلى البلاد.

وفيهـا رحل الفـرنج إلى عسقـلان ليعمـروها، فلما رحلـوا كان للملـك الأفضل اليـزك، فوقع عليهـم، ونال الغـرض منهم وقتل جماعـة ، وساروا نزلـوا على حيفا، ووصـل الخبر إلى السلطان بـذلك، وكـان قد هلـك من الفرنج أربعمائة فارس على عكا وحيفا.

وفيها استشهد اياز الطويل، أفرس المسلمين والفرنج، كان مملوكا للسلطان، صلاح الدين رحمه الله.

وفيها اجتمع الملك العادل بالانكلتيز بعد عدة مراسلات جرت بينهم، وكان الترجمان بينهما سير هنفري، وقال: تصالحونا وتردوا إلينا البلاد، فقال له الملك العادل: هذا لايمكن والرماح ذون ذلك، فثار الانكلتيز وقام مغضبًا كالجمل الهائج.

وفيها أخذت أرسوف بعد مقاتلة عظيمة . وفيها سار السلطان إلى عسقلان ليخربها، فأحضر الجماعة وشاورهم في ذلك، فقال سليمان بن جندر: المصلحة أن تخرب للعجز عن حفظها، وكان السلطان بالرملة، والفرنج قد نزلوا يافا، وتمكنوا منها، فأوقف الملك العادل جماعة من الأمراء قريبا من يافا، وسار السلطان إلى عسقلان، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع شعبان من هذه السنة ، وعاد السلطان منها وأمر بخراب حصن الرملة ، ويبنا، ولد.

وفيها وصل صاحب ملطية الملك معز الدين قيصر شاه ابن سلجوق ملتجئاً إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين من أبيه وأخيه ، فتلقاه الملك العادل، وأقاموا له بما يجب لمثله، وبقي مده وصاهر الملك العادل ليتقوى على أبيه وأخيه ببني أيوب.

وفيها هدم حصن نطرون. وفيها كان قد تقرر زواج الملك العال على أخت الانكلتيز، وكان ذلك بعد رضاها، فلما اتفق السلطان الملك الناصر والملك العادل على ذلك، ولم يبق إلاّ العقد، اجتمع القسوس والمطارنة وأحرفوها عن ذلك، واعتذروا عنها بأن قالوا هي إنما وافقت بشرط الدخول في دينها.

وفيها اجتمع الملك العادل بالانكلتيز مرة ثانية، وجرت بينهما محادثات ومطاولات ، وافترقا عن أتم صداقة.

وفيها شرع السلطان ــ رحمه الله ــ في عمارة البيت المقدس، وأحضر الصناع من الموصل وغيرها، وتولاها بنفسه الكريمة ـ رحمه الله ــ وكان يعمل كأحد الفعالة ، فأنشأ سوراً جديداً بالحجارة الكبار والعمد، وعمق الخنادق، وأنفق من الاموال ما لا يحصى، ابتغاء وجه الله، رضي الله عنه وأرضاه.

وفاة الملك المظفر تقي الدين رحمه الله

وفيها توفي الملك المظفر تقي الدين ، المقدم ذكره، يوم الجمعة تاسع عشر رمضان على ملا زكرد، وكان محاصرها ، وهي من بلد أرمينية، وكان قد أخذ السويداء، وحاني من صاحبها، وأخاف أخلاط وغيرها من تلك الممالك، وكان موته قد كتمه ولده الملك المنصور محمد إلى حين خرج من ذلك الاقليم، بأتم حزم وسياسة، وبقي في بلاده، وجاءته رسالة السلطان صلاح الدين بإبقاء ماكان لأبيه عليه، فطلب من السلطان يميناً بعد عدة شروط ، فما أجابه، فخاف حينئذ الملك المنصور، فدخل في صلاح حاله الملك العادل، ووصل هو بنفسه إلى الرها، وأحضره إلى السلطان صلاح الدين ، وهو على عكا، فأحسن إليه السلطان، وأقبل عليه.

وترك تقي من الأولاد: الملك المنصور محمد، وأسد الدين ابراهيم، والملك الصالح محمود، والملك المعظم نجم الدين اسحق، والملك الفائز أسد الدين خضر، والملك القاهر شمس الدين عبد الرحيم، والملك الغالب فتح الدين. وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وهو ابن أخت السلطان صلاح الدين، وكان شجاعاً. وفيها توفي علم الدين سليمان بن جندر، من أكابر أمراء الدولة. وفيها قتل أتابك مظفر

الديـن، قتله أرسـلان بن ايلـدكز في همذان ليلـة الأحد مستهـل شعبان، وكان قـد تولى الملك بعـد وفاة أخيه المعـروف بالبهلوان، وكـان السلطان طغرل السلجـوقي تحت ولايته وحكمه، وهـو ابن أخيه ، لأمه وأبيـه اسم السلطنة، ولقزل حكمها.

وفيهـا توفي أبـو الفتـح الصفي بـن القابـض، كـان عظيما عند الملـك الناصر ، ووجيهـا، ووزيراً، وأخـا، وغير ذلك، وفيهـا توفي الحكيـم الموفق ابن المطـران في ربيع الأول، وكان نصرانيا، وأسلـم وحسن اسلامـه ، كان طبيبا فـاضلاً للملك النـاصر صلاح الديـن. وفي هذه السنة تـوفي الفقيه العالم الصـالح الورع نجـم الدين الخبـوشاني بمصر، وهو الـذي بنى على الشافعي ـ رحمه الله ـ المدرسة العظيمة، فشفع الملك العـادل بعد موته لشيخ الشيـوخ صدر الـدين بـن حموية بـأن يكون متـوليها ، فكتـب له بذلـك، وذلك في أواخر سنـة ثمان وثمانين وخمسمائة، ثم صرفه بعـد ذلك السلطان من المدرسة ثم أعاده.

وفي هذه السنة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

كان السلطـان مقيما في القدس لاتمام عمارتها. وفيها عزم الفـرنج على عمارة عسقلان فما مكنوا.

وفيهـا خـرج المشطـوب علي بـن أحمد مـن الاسر، بعـد مشترى نفسـه بخمسين ألف دينار، وفيها وصل إلى الملك النـاصر صلاح الدين ، فتلقاه وأحسـن إليه، وأعطـاه نابلـس، وعاش إلى آخـر شوال مـن هذه السنـة، ومات.

وفيهـا هلـك المركيـس بصـور ، وذلك أنـه أكـل وشرب وطـرب عنـد الأسقف فـركب، قفز عليـه اسماعيلي فضربه بسكين، فقـال : احملوني إلى الكنيسة ، فلما حملـوه إليها قفـز عليه فيهـا شخص آخـر فضربه بسكين،

فمسكوه أيضاً، فوجدوهما اسماعيلية مرتدين فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا ، فقالا: ملك الانكلتيز، وذكر عنهما أن لهما مدة ستة أشهر ، وقد دخلا في ترهب وتنصر.

وفيها استولت الفرنج على قلعة الروم. وفيها نزل السلطان على يافا وحاصرها ، وأشرف على أخذها ، ودخل المسلمون إليها ، وسألوا السلطان الأمان، فأجابهم، فجاء الانكلتيز إليهم في البحر ، وطلع إلى القلعة، وقويت شوكتهم، فعادوا عما كانوا عنه، وأخرجوا منها عنوة للمسلمين، وأسروا جماعة ،ورحل السلطان عنها، ونزل على نطرون.

وفيها كانت الهدنة العامة مع الفرنج، وذلك باتفاق من المسلمين والفرنج، وفيها عزم السلطان على أشياء، وطلب الانكلتيز من السلطان زيارة البيت المقدس، فاعتذر السلطان إليه، وفي ضمنها مرض مرضاً أشغله، فأقلع وسار بمن معه من الفرنج.

وفيها عزم السلطان على الحج، وكاتب البلاد بذلك ، فما زال الناس بالسلطان إلى أن أحرفوه عن الحج، خوفا من غدرة الفرنج، فولىّ في القدس ورتبه، وسار من القدس ضحوة نهار الخميس خامس شوال، ولقى بهاء الدين قراقوش، وقد خرج من الأسر بطبرية. وفيها دخل إلى بيروت ، وجاءه بيمند صاحب أنطاكية ، دخل عليه مستجيراً فأدخله عليه وأكرمه ، وخلع على من معه، وكتب مناصفات أنطاكية بعشرين ألف دينار، وفارقه.

ورحل السلطان قاصداً دمَشق، فدخلها وكانت مدة غيبته عنها في الجهاد أربع سنين ، وخرجت السنة والسلطان على أتم عافية، ورسل الممالك من أصحابها يخطبونه ويرغبون إليه بأموالهم وبلادهم وأولادهم وأنفسهم.

وفي هذه السنة توفي سلطان الروم قلج أرسلان بن السلطان مسعود ابن قلج السلجوقي، وله عشرة من البنين، فولى كلا منهم اقليما، فقوي كل منهم في ثغره، وكان الكبير منهم قطب الدين ملك شاه.

وتوفي فيها القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش ، وهو قاضي العسكر الصلاحي.

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

والسلطان رحمه الله مقيم بدمشق في داره.

وفيها مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قدس الله روحه في بكرة الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر، فلما تحقق العماد الكاتب الأصفهاني ـ وكان كاتبه ـ موته، أنشد ارتجالاً.

قلت لضوء الصبح لما بدا
ونوره منكسر حائر
مالك لا تسفر عن بهجة
فقال: مات الملك الناصر

خلف رحمه الله سبعة عشر ولداً، وابنة صغيرة، ولم يخلف في خزائنه سوى دينار واحد لاغير.

وكان ولي عهده بالشام ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده. والملك العزيز ولي مصر وأعمالها، وما أضيف إليها، واسمه عثمان فأحسن في مملكته أحسن من كل محسن في الممالك. والملك الأفضل دمشق وأعمالها والساحل وما يجري مع ذلك.

والملك الظاهر غازي حلب ، وما يضاف إليها.

وفيها سار الملك العادل إلى بلاد الجزيرة بعد وفاة أخيه من خوفه عليها. وبقي سيف الاسلام على حاله باليمن.

وفيها كان ابتداء تفاهم أمر المماليك الصلاحية واتفاقهم وسعادتهم بالديار المصرية مع الملك العزيز.

وفيها كان الملك العادل قد نفذ إلى الملك الأفضل يطلب عسكراً منه ومن إخوته ليفتح بلاد الجزيرة ، فجهز له الملك الأفضل العسكر، وكذلك سير إلى الملك العزيز فجهز له العسكر، وكان مقدمه الأمير فخر الدين جهاركس مملوك صلاح الدين فوصل إلى دمشق، والملك العادل قد فتح سروج، وأعاد عسكر الملك الأفضل إليه، فعاد جهاركس بمن معه إلى مصر بعدما تقرر معه ما يشافه به صاحبه.

وفي سنة تسعين وخمسمائة:

برز الملك العزيز الى البركة (٨) وسير إلى أخيه الملك الأفضل بأن يخطب له ويضرب السكة باسمه ، فما وافقه على ذلك، فجاء إلى دمشق وحاصرها ، وأخذها منه بعملة من أولاد أبي غالب الحمصي، لأنهم فتحوا باب شرقي، ولما تملكها سأل الملك العادل يازكوج أن يطلبها له من الملك العزيز، فطلبها له فأعطاه إياها لولده الملك المعظم عيسى. وكان مع يازكوج في الحجبة بها جهاركس وسنقر الكبير وعز الدين سامة وسرا سنقر.

وفيها بعد عوده من دمشق جد في نقض الأهرام ورمى أحجارها في البحر إلى دمياط ليبني بها أبراجاً.

وفيها وصل الملك المعظم والملك الأشرف من قلعة جعبر إلى أبيهما العادل بدمشق.

وفيها نـزل الفرنج على تبنين وجـرى عليها مـن الزحف والقتـال وأخذ النقوب مـالا يوصف . ووصـل الملك العزيز بعسـاكره واستنقذهـا منهم عنوة وعاد إلى بلاده بعد أن كانت أشرفت على الأخذ.

وفيها سير الملك العزيز هدية إلى ابن سيف الإسلام.

وفيها كـان ظهر بـدمشق رجل ادعـى النبوة وخيـل للناس أشيـاء من عمل السيمياء فقتل لئلا يفتن الناس.

سنة ثلاث وأربع وتسعين وخمسمائة:

خاليتان

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة:

كان الملك المنصـور محمد بن تقي الديـن عمل الجسر على حماة خارج بلده بالجانب الشرقي بالمدينة السفلى.

وفي أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة:

جاء للملك المعظم ولد ذكر هو أول أولاده.

وفيها مات الملك العزيز بن الملك الناصر سلطان مصر، وكان سلطاناً جـواداً حليماً مليـح الصـورة حسن السيرة، وكـان الملـك الظـافـر خضر المعروف بالمشمـر عنده بمصر، فاجتمع الأمـراء وأقاموه في البلاد سلطـاناً إلى حين وصل أخـوه الملك الأفضـل من صرخد ، لأنـه أقام بها وبـأهله وعيـال صلاح الـديـن حين أخذ (العـزيـز) دمشقَ منـه فسيروا أحضروه

إليهم، وجرى ما جرى عند وصوله، من كونه لم ينزل عند فخر الدين جهاركس أولا ، ونزل في خيمة أخيه الملك المؤيد وأكل، ثم منها انتقل إلى خيمة جهاركس. فما طاب لجهاركس ذلك وخشي من عملة عليه مع المماليك الأسدية مثل ياز كوج وجماعته من الأمراء الأسدية. فاتفق جهاركس وزين الدين قراجا على مفارقة ديار مصر، فسارا عنها وتبعهما سرا سنقر . وهذا سبب تفر قة الصلاحية أولا وتسحبوا واحداً بعد واحد إلى الشام.

هذا والملك العادل على ماردين يحاصرها، وكان اجتماع الأمراء عند نزولهم من مصر في القدس المحروس، فسيروا إليه واستدعوه، حتى إن قراجا وسرا سنقر توجها إليه، فرتب ولده الملك الكامل محمد (٩) والأمراء عنده، ومن جملتهم عماد الدين بن المشطوب ، وتوجه إلى دمشق بعد ذلك ، وكان أهل ماردين قد استنجدوا بأتابك نور الدين صاحب الموصل، فلما رحل الملك العادل جاء إليهم ونجدهم، فرحل الملك الكامل عنها عنوة . ووصل إلى حران بعد أن كان تسحب إلى آمد بمن معه من العسكر.

وفيها وصل الملك الأفضل من الديار المصرية بعد تملكه إياها بيوميات، ونزل على دمشق ، وضرب خيمته في الميدان، وذلك في رابع عشر شعبان ، واستمر الحصار، فسير الملك العادل طلب ولده الملك الكامل فجمع العساكر، وأنفق الأموال، وتوجه قاصداً أباه، ووصل الخبر إلى الملك الأفضل والملك الظاهر، لأنه كان قد اتفق معه وجاء إليه من حلب، فاتفق رأيهما على الرحيل عن دمشق، وسار الملك الظاهر إلى بلاده ، والملك الأفضل عاد هارباً إلى ديار مصر بعد أشياء جرت وأمور تجددت ليس هذا المختصر موضع شرحها لما شرطنا من اختصاره.

وكان الحصار عليها. والملك العادل يقوي نفسه ويخبز البقسماط ويعمل القرب والروايا ويقول: «لابد لي من ديار مصر» . والناس

يعجبون من قولـه وفعله ، فقدر اللّه ما قدره مـن هروب الملك الأفضل ، وساق الملك العادل خلفه ، وجمع بينهما السـائح، وجرى من القتال ما لا جرى في الإسلام، وكسر الأفضل وساق الملـك العادل خلفه إلى القاهرة ، وبقي الملك العادل عليها ثمانية أيام ، وصالح الملك الأفضل وعين له ما يعوضه وحلف له، وملك الملك العـادل الديار المصرية . وكان قد حلف للملـك الأفضـل على ميـافـارقين ، ورأس عين الخابـور ، وسميسـاط ، وحاني ، وجبل جور.

سنة ست وتسعين وخمسمائة:

فيها تقرر أن الملك المنصور بن الملك العزيز عثمان يكون هو السلطان والملك العـادل على ذلك وسلطنـه وحملت الغاشيـة له كما جـرت العادة، ثم بعـد ذلك عـاد الملك العادل سير رسلـه إلى البلاد واستحلـف الناس لنفسـه، وضرب الخطبة والسكـة باسمـه، فما اختلـف عليه أحـد وأجابـه الناس كلهم رغبة في دينه وتدبيره واسمه وحزامته.

وفيها أحضر الملك العادل ابنه الملك الكامل إلى الديار المصرية ورتبه فيها وجعله ولي عهده وحلف الناس له.

وفيها حاصر جهاركس بانياس وأخذها من حسام الدين بشارة.

وفيها حلف ابن المشطوب وجهاركس وقراجا وميمون القصري على أن يولـوا الملك الأفضل ، ووصل عـز الدين سـامة من الحج فأطلعـه الملك الأفضل على ما جـرى من المذكورين وثوقـا منه ، فأظهر لـه سروراً وفرحاً وحمد الله على ذلك ، وفارقه وكاتب الملك العادل به إلى الديار المصرية ، ثم ما كفاه ذلك حتى سار بنفسه إلى ديار مصر عرفه ما جرى شفاها.

- ٩٧٩٦ -

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة:

والحالة هكذا.

وفيها قصر النيل في طلوعه إلى الغاية فغلت الغلة بمصر إلى أن أبيع إردب القمح بخمسة دنانير وأكل الناس بعضهم بعضا، بحيث كانت المرأة تأكل ولدها بسائر الألوان ، وخلت مصر والقاهرة من أكثر أهلها ، بحيث إن الناس يموتون ومالهم من يدفنهم ، فيبقون على حالهم شهوراً.

وفي أوائل هذه السنة جلبت الغلال في البحر من الشام والساحل، ووقع الفناء أيضا فانقرض الناس فناء وجوعا.

وفيها ندم الملك العادل على كونه مكن جهاركس من أخذ بانياس وتبنين والملك المعظم، فاطلع جهاركس على ذلك، فاجتمع هو وألطنبا الجحاف، وفارس الدين ميمون القصري ، وعلاء الدين شقير، وزين الدين قراجا،وسيروا إلى الملك الأفضل وإلى الملك الظاهر، وحثوهما على الحركة ، ليملكوا دمشق للملك الأفضل . وكان إذ ذاك الملك العادل بالديار المصرية ، وشرع سامة يكاتبهم، ويظهر لهم أنه معهم، وكان كذاباً في ذلك. فتجهز الملك الأفضل وأخوه الملك الظاهر ، وخرجا من حلب بالعساكر ، ووصلا إلى حماة ، وحاصراها في رمضان وقاتلاها قتالا عظيما وما حصلا على طائل منها لشهامة صاحبها وحمية أهلها، واتفق الحال بعد الإياس منها على أن يحمل الملك المنصور محمد صاحبها ثلاثين ألف دينار، وإن أخذا دمشق كان في خدمتهما، فقبلا ذلك منه، ورحلا قاصدين دمشق، فجدا تارة وقصرا تارة إلى أن وصلاها بعد أن كانا عزما على العود عنها غير مرة، فجدا على قصدها ووصلاها ونازلاها وحاصراها مدة، ولم ينالا منها غرضاً ، وذلك لسوء نياتهما وحسد بعضهما بعضاً ، وغدر المماليك الصلاحية بهما لما سمعوا من الملك الظاهر ، وكان

الملك العادل مقيما بنابلس ، وكان جهار كس قد أخذ من الملك الأفضل ثلاثين ألف دينار، ورهناً على تمام أربعين ألف دينار. وأخذ قراجا صلخد وأنزل الملك الأفضل أمه وعيال أبيه منها، وكل هذا رغبة في الملك وطمعا ولإتفاق جهاركس وقراجا عليه. وكان في الجملة قد قال الملك الظاهر: إنه متى أخذ دمشق ما يسلمها للملك الأفضل ، فسمع الأفضل بذلك ، فأفكر في نفسه وراسل عمه السلطان الملك العادل على الصلح معه، واتفق معه على ما يعطيه باطناً ، ولم يطلع على ذلك سوى عماد الدين بن المشطوب ، والمهذب بن نظيف، وكان وزيره يومئذ ،.وهو حموي ، ثم شاع ذلك في المماليك ، ومحا الملك الأفضل ما قاله الظاهر فأقصروا عن القتال ، حتى إن العسكر كان قد بلغ من دمشق أتم غرض، بحيث إن بعض العسكر كان قد دخل دمشق وشرب فقاعاً ، وخرج من باب الفراديس ، ولم يبق إلا هجمها ، فعاد الملك الأفضل سير إلى الجماعة ومنعهم من المبالغة في القتال، بحيث أعيد ابن المشطوب من باب الحديد . فلما اجتمع به قال له الملك الأفضل قول الملك الظاهر.

وكان الظاهر أبداً يكارم فارس الدين ميمون ويعظمه ويحترمه ، وهذا أيضا مما كان جهاركس ينقمه على الظاهر وكذلك قراجا ، فانضم جهاركس وقراجا إلى الملك الأفضل وأطلعهما على قول الظاهر ، وشاركاه في الذي فعله من رجوعه إلى عمه في الباطن . ثم هرب جهاركس وقراجا بمواطأة من الأفضل وبقوله ، فعلم الملك الظاهر ـ وكان يشرب في بقية الليل ـ هربتهم ، فخاف على نفسه ، فشجعه ابن المشطوب، وأصبحوا وجدوا في القتال ذلك النهار ، واحتاطوا بدمشق من كل جانب ، ونزل الملك الظافر، ونصب سنجقه على جسر باناس ، وابن المشطوب عبر جسر الحديد ، والملك المعظم في دار العدل وهو مريض، فكفهم الملك الأفضل أيضا بمجد الدين مرزبان، وعادوا إلى

خيمهم ، ورجعوا عن غرضهم ، ثم جاءت رسل السلطان الملك العادل باطناً إلى الملك الأفضل بما كان عين له، وهو رأس عين الخابور ، وجملين والموزر ، وسميساط ، وميافارقين، وحاني، وذو القرنين، ويحمل إليه في كل سنة من مصر قماشاً بخمسين ألف دينار، وخمسين ألف دينار عينا ذهباً ، وحلف له سراً ، ولم يعلم الملك الظاهر ، ونقل الملك الأفضل بيته وعياله ووالدته إلى حمص .

وكان الملك الظاهر قد أخذ من التجار مائة ألف دينار وزيادة من القماش وفرقه على العسكر ، ويكتب لهم خطه ، ويستوفونه من حلب. وكان الملك الظاهر قد اتفق مع الجماعة على استدعاء عز الدين سامة إليهم إلى المخيم ، فلما خرج عاتبوه وقالوا له كل قول فما أفاد معه. وعاد من عندهم بعد أن قال للملك الظاهر: « أنت غدار مالك قول ولا يثق بك أحد أبداً» . ودخل (دمشق) وعرف الملك المعظم ما جرى ، وكتب إلى الملك العادل بذلك. واتفق أن الجحاف عمل دعوة للملك الظاهر ولجماعة الأمراء ، فسكر الظاهر وطرب وغطى على عقله الشراب ، بحيث إنه رمى سنورا على الجحاف وأنشده:

ستعلم ليلى أي دين تدينت.....

ففهم شقير والجحاف ذلك، فأسراه في أنفسهما وتوهما بأنه قد تحقق صورة الحال مع السلطان الملك العادل فهربا في ليلتهما ، ودخلا دمشق ، ومعهما ياقوت العزي . فلما بلغ الملك الظاهر ، ركب هو ومن عنده عازمين على الرحيل من دمشق، وركب جميع العسكر ، وساق الناس على حمية ، وطلعت شمس نهار تلك الليلة وهو الاثنين من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة. وساق الملك الظاهر بمن معه . وفي الطريق أقطع ابن المشطوب منبج وقلعة نجم ، ولسرا سنقر بهسنا ، وكان ذلك بواسطة ميمون القصري. وكان قبل ذلك قد أعطى قلعه نجم للملك. الأفضل، فسير ابن المشطوب يتسلم قلعة نجم، فما سلموها إليه وساروا

ودخلوا في السوق. فدخل الملك الأفضل إلى حمص والملك الظاهر ساق بمن معه . وكان فراق الملك الأفضل لأخيه الملك الظاهر من مجمع المروج. ثم نزل الملك الظاهر على حماة فقاتلهم بعض الجماعة ، فسير إليه الملك المنصور وعاتبه على غدره بيمينه له، فاعتذر الظاهر عن ذلك وكف أصحابه ، وسار إلى بلده بعد أن كان الملك الظاهر قد ركب في عسكره وجرح في رجله اليسرى . ولما وصل إلى حلب طالبه ابن المشطوب بوعده له بمنبج، وحصارها وأخذها له، وكان قد جاء إلى منبج الملك الفائز بن العادل وابن الجراحي فأخذاها في غيبة الظاهر، وكانت إذ ذاك لابن المقدم عز الدين، ورثها لأخيه شمس الدين عبد الملك ، لأنها وقعت إليهم في مقايضتهم لصاحب حماة، ابن تقي الدين ببارين وكانت بارين لهم وكفر طاب وفامية ـ وقد ذكرنا ذلك مطولا في المطول ـ فمغلطه عنها إلى وقت ثم وفى له بها ، فأخذها ابن المشطوب وفي يده خرب قلعتها.

وفيها وصل الملك المؤيد والملك المعز ولدا صلاح الدين من حبس الكرك ، لأن الملك العادل كان حبسهما ، فلما أخذ دمشق وأمن عليها أطلقهما من الحبس.

وفيها وصل السلطان الملك العادل قاصداً حماة ومتوجهاً إلى حلب، فنزل حماة، وصارت المراسلات بينه وبين الملك الظاهر إلى أن وقع الصلح بينهما.

وفيها أخرج القاضي نجم الدين عبد الرحمن بن أبي عصرون من حماة ـ وكان قاضيها ووزيرها يومئذ ـ إلى حلب بعد أخذ عدة دراهم منه وحبسه مدة فأخرج بشفاعة دلدرم بن ياروق، صاحب تل باشر، وذلك لبغضة السلطان الملك العادل له.

وفيها: حدث على القاضي محيي الدين بن الزكي ، قاضي دمشق ، من الخلط ما شوش عقله وغيره، وكان عالماً فاضلاً فقيهاً كاملاً ، ذا عقل ورزانة ، وورع وديانة ، وكان خرج راكباً ، فوقع عن دابته فمات رحمه الله.

وفيها أحضر السلطان الملك العادل ولده الملك الأشرف موسى من القدس ، لأنه كان به مقامه ، وكذلك الملك المعظم ، وهذا بعد عوده من حماة ، وقد عاد إلى حمص . فقرر الملك الأشرف بحران والرها، ويكون مقيما في الجزيرة وعساكرها في خدمته ، أسوة بأخيه الملك الأوحد كان مقيماً بميافارقين وديار بكر ، وعين الملك المعظم بدمشق ، والملك الكامل بالديار المصرية ، كما قدمنا ، وهو يتردد إلى الممالك بنفسه.

وفيها : حلف الملك الظاهر للملك العادل أن لايستخدم ابن المشطوب وقطع خبزه ، فوصل إلى عند السلطان فما استخدمه، بل أذن للملك الأوحد أن يستخدمه ، فما اتفق بينهما ، فاستخدمه الملك الأشرف وأحسن إليه.

وفيها : جاءت الزلزلة العظيمة التي أخربت الساحل وأكثر بلاد الفرنج . وأشرف الفرنج على أخذ طرابلس بحيث إنهم عبوا قماشهم في المراكب للهرب من المسلمين ، فما أقدم المسلمون عليهم.

ودخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة:

فيها : طلع النيل دون كفاية البلاد، وزرع الزرع ، وانحطت الأسعار ، وصار يزيد السعر وينقص إلى سنة تسع وتسعين وخمسمائة طلع النيل ورويت البلاد وزرعوا وتباشر الناس بها.

وفي سنة ثمان وتسعين أخرج سيف الإسلام ولده الملك المعز اسماعيل من اليمن خرجة ثانية بعدما كان أخرجه إلى الشام وعاد منه إليه . وذلك

كله خوفاً على نفسه منه، فسار فاتصل بالسرين من بلاد اليمن، وهي آخر اليمن وأول الحجاز ، فأقام بها أياما وتوفي سيف الاسلام . فسير جمال الدولة كافور خادم أبيه ياقوت العجمي ، وياقوت الجمالي، ومحمود السيرواني ، والأسعد بن الحارس ، (فساروا) إلى الملك المعز عرفوه بموت أبيه واستدعوه إلى زبيد، فحضر معهم ، وسلموها إليه، وأقام بها أياماً وسلموا إليه جميع القلاع. ثم توجه منها إلى قلعة تعز ، فأقام بها مدة، ثم توجه إلى الدملوة ، فأقام بها شهرين، ثم طلع إلى حب[١١] ، فأقام بها، ثم توجه إلى لحج وأبين ، فأقام بها أياما، ثم توجه إلى عدن ، فأقام بها ستة أشهر ، ثم توجه إلى صنعاء . فلقيه الشريف عبد الله بن عبد الله الحسني ، فصافقه تحت حب ، فكسر الشريف المذكور ، وتوجه إلى صنعاء ، فلقيه مماليك أبيه ، عدتهم ثمانمائة مملوك، فاعتصموا بصنعاء وقاتلوه، فكسرهم ، وأخذ صنعاء ، وأقام بها أربعة أشهر ، ثم نزل إلى تعز ، فأقام بها أربعين يوما، ثم إلى زبيد، فأقام بها أياما . ثم استحلف الناس ، وفصل له الثياب الخضر ، والعمائم الخضر المذهبة ، واستسلم من كان في بلاده من النصارى واليهود ، وخطب له بالخلافة في زبيد ، وادعى أنه من الأمويين ، فأول خطبة خطب الملك المعز المذكور في داره المعروفة بعبد النبي بن مهدي . ثم سير إلى البلاد ، وأمرهم أن يخطبوا له على المنابر بأمير المؤمنين ، وأبطل الخطبة لبني العباس . ولم يزل هو يخطب بنفسه مدة حياته ، وذلك في تعز ، وفي الدملوة، وفي كل موضع له حصن ، وكان قد أقام سلطاناً من غير دعوى خلافة سنة كاملة ، وبقي خليفة إلى أن مات أربع سنين، وكانت مدة ولايته خمس سنين وشهيرات.

ثم تجهز طالبا مكة المحروسة ، وجهز ياقوت الجمالي، والمجاهد الجمالي، وسنقر العزي إلى مكة بأن تعمل له دار ، ويقام له إقامة ليكسو البيت ، فلما تحقق الشريف أبو عزيز قتادة ذلك أمر غلمانه أن ينهبوا جميع من كان من أصحاب الملك المعز وأسروهم، فسمع الملك المعز

ذلك فشق عليه، وتجهز طالبا مكة إلى أن وصل إلى المهجم تقاعد عنه جماعة من أصحابه وخذلته ، فتعكس وتشوش ، فعاد إلى اليمن إلى بلد يقال له الكدراء من أعمال زبيد ، فأقام بها خمسة أيام ، ثم استدعى مملوكا يقال له سيف الدين سنقر واستحضره عنده في الدار بمحضر من جماعة ، فسقاه الخمر بعد أن تركها مدة زمانية وقال له :

« ياسنقر، قد كبر جوفك وسمنت» ودعا بمعتوق الزراق الحلبي وقال له : « يامعتوق ، طيب لي قارورة نفط!» فأحضرها بين يديه، وقال له: «قم ياسنقر !» وأمر معتوق أن يضربه بها ، فقام إليه مملوك يقال له أبو شامة كبير من مماليك أبيه ، كان له صنعاء في حياة والده ، واستوهبه منه فوهبه له ، ثم قعدوا على شرابهم ساعة، ثم دعا بسنقر مرة ثانية وجذب عليه سكينا وقال له: « أريد أشق مصارينك ! » فقال له : «ياأمير المؤمنين ، أنا مملوكك » فعاتبه ساعة، ثم قام سنقر من بين يديه بعد أن قبلها، وقعد في مكانه ساعة ، ثم خرج ، فقال له الملك المعز : «إلى أين ؟» فقال : « في حاجة ياأمير المؤمنين (إلى) البرية أقضيها وأعود » فقال له : « دع رهنك على العود ، كماجرت عادة من يشرب مع الندماء» فترك منديله وخرج إلى خيمته لقي جماعة من المماليك فقال لهم: « قد قتلت الخليفة! » وكان ليلاً فركبوا في خمسمائة مملوك ، ثم دخلوا إلى الكدراء ونهبوها، وأخذوا خزانتها ، فبلغ ذلك الملك المعز ، وهو على شرابه ، فبطل الشراب وتجهز في ليلته هاربا إلى زبيد ، ثم قصد سنقر موضعا يقال له المهجم ، فنهبه وأحرقه وأخذ خزانة فيه، ثم توجه إلى المحاليب فأحرقها وأخذ خزانتها ، ثم صعد إلى الشريف عبد الله بن عبد الله في بلاده منتصراً به، فأقام عنده خمسة أيام ، فتجهز الملك المعز خلفه، فنفذ إليه هذا سيف الدين سنقر المذكور وقال له : « بالله عليك ياأمير المؤمنين ، لاتخرج ، فإن العسكر منافق عليك » فوصله الكتاب وهو راكب ، فقال : « يهددني هذا الفاعل الصانع!» وساق من وقته بجيشه إلى أن خرج إلى موضع يقال له الجنابذ[١٤] ، وهي أرض يقال لها

عجى ، فتحالف العسكرعليه، وتشاوروا على قتله ، وهم كبار الأكراد مثل : شمس الدين الدقيق، وجمال الدين ابن أخيه، وابن أخته ، وابن بركات، وهندو، وروبك أخوه، وسيف الدين نجد أمير آخور ، وباخل ، ومن الأتراك : شمس الدين القرابلي. فحمل عليه هندو وروبك أخوه . فلما قربا إليه بالحملة قال لهما: « لاتفعلا وأغنكما » فجفلت به البغلة في مثل ذلك الوقت من الرماح فرمته ، فبقي متخبطا في ثيابه وأكمامه ، وذلك أن ثياب الخليفة كانت عليه ، طول أكمامها كل كم خمسة وعشرون شبراً ، وسع الكم ستة أشبار ، فسبقه شمس الدين الدقيق والقرابلي ، وابن بركات ، وهو يخبط في ثيابه فقتلوه وأخذه ابن بركات فقطع رأسه ، وحمله على رمح ، وأعطاه للداعي الذي كان بين يديه . فأقاموا في المدينة ثلاثة أيام يدورون برأسه في البلد.

ثم نهبت زبيد سبعة أيام نهبا شنيعا ، ثم اختلفت الأكراد لعدم مقدم عليهم . هذا وسيف الدين سنقر لم يعلم بذلك ، فاتصلت به الأخبار ، وعند اختلاف الأكراد ، نفذوا إلى سنقر إلى صعدة باخل الكردي الحميدي ، فطلبوه لتمليكه ، فحضر إلى زبيد ، ودخلوا به إلى دار إلى الرباع بباب شحاد ، ونزل في دار يوسف العروي ، ثم تقدم شمس الدين القرابلي من الأتراك وابن الدقيق من الأكراد وسلطنوا سنقر ، وحملوا الغاشية بين يديه ، وأدخلوه راكباً إلى دار ابن سيف الاسلام . فأقام بزبيد ثلاثة أيام . وأمر جماعة منهم . ثم عاد إلى تعز ، وأقام بها أربع سنين . فكتب كتابا إلى زبيد يطلب من الأكراد المقيمين بها مائة ألف دينار ، وكان عند سلطنته قد قنع منهم بالاسم لا غير؛ وترك لهم البلد وقال : « أقنع بتعز لاغير » فخادعهم إلى أن قوي وجيش وتمسك بجماعة عاهدهم ، ونفذ يطلب المال ، فأحضروا خمسة أحمال صناديق وعملوا فيها اللوالك [١٥] المقطعة والخفاف والجلود المقطعة وأسنة مكسرة ومسامير وحديد مكسر ، وختموها وسيروها إليه. فلما رآها شق عليه ذلك ، ونفذ في الوقت والحال يعلمهم وصوله إليهم قبالة هديتهم ،

فخرج في ليلته قاصداً زبيد. فلما سمع الأكراد خروجه ، خرجوا إلى ضيعة يقال لها المعزية كان بناها الملك المعز بن سيف الإسلام ، وسماها القاهرة المعزية ، وهي ضيعة كبيرة جيدة كثيرة الخيرات ، فوصل سيف الدين سنقر إليها ، فلما قرب منها انهزم الأكاريد ونزلوا في ضيعة يقال لها الزريبة ، فأقاموا بها خمسة أيام ، ورحلوا منها إلى زبيد ، ورحل سنقر طالبهم إلى زبيد، فنزل وخيم عليها ، وقفلوا أبوابها . وكان قد ذكر لأصحابه أنه « إذا أخذناها بالسيف انهبوها » فخرج الأكراد وقاتلوه يومين ، فما منهم يوم إلا ويخسرون فيه، فلما كان اليوم الثالث ركب سنقر بجماعته . وزحف إلى باب يقال له باب القرتب فوقعت إحدى البواشير.

فقفز سيف الدين سنقر هو وبدر الدين ابن تميرك ، فقال سنقر عند ذلك : « الحمد لله رب العالمين » وهو واقف في وسط الثلمة ، وقال للعسكر : « يا أصحابنا كنا قد أمرنا أنكم إذا أخذتم هذه المدينة بالسيف انهبوها ، وقد عمل الله لنا مالا كان في حسابنا من هدم هذه الثلمة . فأنا أشتري منكم نهبها بمائة ألف دينار » فأبوا إلا نهبها، فزادهم خمسين ألف دينار وحلفهم بالطلاق أنه إن سمع أنهم تعرضوا لنهب أو غيره من أذية البلد آذاهم . ثم دخل مدينة زبيد وأقام بها، فخرجت الأكراد من باب ولا فقه ، ثم قصدوا ضيعة يقال لها الحصبى ، فنزلوا عند رجل يقال له علي الكناني ، وهو من غفراء البحر، فأضافهم وأحسن ضيافتهم ، فطلبوا منه نبيذاً يشربونه، فأحضر لهم نبيذ النخل، وهو يقال له الفضح، فشربوا منه وسكروا ورقدوا فقام مضيفهم علي الكناني وأخذ خيولهم وربط غلمانهم ، وأخذ ما كان معهم من المال ، وكتف الأكراد إلى أن أصبح الصباح واجتمع قومه بنو كنانة وساروا بهم على الإبل في المحائر إلى أن وصلوا بهم إلى زبيد ، فشنق سنقر علي الكناني وأخاه محمداً ، وقال لهم: « قبحكم الله ، غدرتم بضيوفكم » . ثم أخذ جماعة الأكراد ورماهم الحبس ، واستدعى بهم في اليوم الثالث إلى القصر ، فنصب لسيف الدين سنقر شبرمة ، وهي قاعدة من خيزران مثل السرير.

واستحضر ولد سيف الإسلام يقال له الملك الناصر ، كان صغير السن ، واستدعى الدقيق فضرب رقبته ، ثم من بعده علم الدين ابن أخيه ، ثم من بعده لهندو ، ثم بعده روبك ، ثم بعده عيسى بن أجول الزرزاري وسبعة من إخوته ، ثم بعده النظام بن عيسى الجزري وجماعة ، فكانت القتلى في ذلك النهار سبعمائة بالضبط . وعفا عن القرابلي وأولاده وعن باخل وعن ابن بركات ، ثم قعد في مملكته وفعل من العدل وحسن السيرة مالا رآه أهل اليمن ولا رعية ، وسلطن الملك النا صر ، وصار هو أتابكه ، وخطب للملك الناصر في بلاد اليمن ، ثم بقي في السلطنة (والأتابكية) أربع سنين إلى أن توفي بتعز فجأة ، وذلك أنه كان ليلة موته قد أكل لحم فرس ولحم بقر ، وشرب عليه شراباً مطبوحاً ، فغسل ودفن في جامع تعز ، وخلف ولداً أخرس وولداً آخر من أم الملك الناصر ، لأنها كانت زوجته ، ثم تزوج إبراهيم غازي بن جبرائيل أم الملك الناصر بعد وفاة سيف الدين سنقر ، وصار أتابكاً أيضاً للملك الناصر . وبقي الملك الناصر مدة ، ثم توفي في الجند وحمل إلى تعز فدفن فيها. وكان سبب موته أن غازي بن جبرائيل سمه بكوز فقاع ، فبقي غازي صاحب البلاد مدة يسيرة وقتل في حب ، قتلته حمير وخولان وبنو عبد الوهاب ، ورموا برأسه من قلعة حب، وسبب ذلك اتهامهم له بقتل الملك الناصر فبقيت البلاد بلا صاحب إلا الخواتين لاغير . فجاء الشريف عبد الله بن عبد الله بخلق كثير وملك زبيد مدة يسيرة ، ثم سمع بركب الحجاز ووصوله فقال في نفسه: « لايخلو هذا الركب من أحد من بني أيوب » فخاف على نفسه وعاد إلى بلاده . ووصل ركب الحجاز إلى زبيد ، فنزل المهتار كدكل العزيزي من عند أم الملك الناصر يتفقد الركب الحجازي ، فلقي سليمان شاه بن سعد الدين بن الملك المظفر تقي الدين بن شاهان شاه بن أيوب ، وكتب كتاباً إلى أم الملك الناصر يخبرها بخبره وقال : « هذا من بني أيوب وهو حسن الشباب » فأحضرته وخلعت عليه وتزوجت به وسلطن وملك البلاد، وملأها فسقاً

وجوراً وفجوراً ، وأخذ نساء الناس وما شكر ما أنعم الله عليه به ، فإنه كان فقيراً لايملك درهما ، بحيث حج ماشيا مع الفقراء يكدون ويطعمونه ، فلما بغى سلبه الله ما كان خوله . بعد أن وصلت مكتوباته إلى السلطان الملك العادل وإلى عمه الملك المنصور صاحب حماة جهز الملك الكامل ولده الملك المسعود إليه ، وأخذ البلاد منه عنوة . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في تاريخنا الكبير المرسوم (بالبيان في حوادث الزمان) وإنما ذكرنا هذه اللمعة لسياقة الحديث والله أعلم.

ودخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة:

والملك الأشرف قد تجهز لقصد ماردين ، واستخدم ابن المشطوب ، وسير إلى الملك الأفضل يحضره من سميساط إلى البيكار عنده ، ووردت الأخبار بأنهم قد تأهبوا في ماردين للحصار واللقاء ، ووصل الملك الأفضل إلى حران . ورحلوا وأخذوا رأس عين الخابور وسلمها الملك الأشرف للملك الأفضل ، وساروا إلى ماردين ، فراسل أهل ماردين السلطان الملك العادل على أن يحملوا للملك الأشرف خمسين ألف دينار فعجلوا ذلك . فعاد الملك الأشرف عنهم راجعاً إلى حران ، وأعطى الملك الأفضل جملين .

وفيها نزل الملك العادل على خربة اللصوص بسبب الفرنج . وفيها : أخذوا رأس عين الخابور من الملك الأفضل وكذلك جملين بكذبة كذبوها عليه لاستعادة البلاد منه، ولم يبقوا سوى سميساط لاغير وأعطوا رأس عين لابن المشطوب .

وفيها : كان عند أتابك نور الدين صاحب الموصل عدة أمراء من الشاميين ، مثل المبارز خطلخ الحلبي ، والمبارز سنقر الحلبي وعز الدين كر ، حملوه على لقاء الملك الأشرف وقووا عزمه على ذلك ، فبلغ الملك

الأشرف ذلك، فسير إلى السلطان الملك العادل عرفه ذلك ، ويستأذنه فيما يفعله على لسان ابن المشطوب ، فأعاده سريعاً وقال له: « إن قصدكم صاحب الموصل لاتلاقوه ، الله الله ، ولا تغتروا بقول صاحب سنجار وآمد والجزيرة » فعاد ابن المشطوب ، فوجد أتابك قد خرج من الموصل . ووصل الملك الأوحد إلى عند أخيه الملك الأشرف . وقال ابن المشطوب رسالة الملك العادل للملك الأشرف . واجتمعوا على دارا ، ومنها رحل الملك الأشرف بمن معه ووصلت الأخبار بقصد أتابك لهم ، فرتب الملك الأشرف أصحابه ومن معه ميمنة وميسرة كما جرت العادة » ورحل طالبا باشزا ووصل أتابك بعساكره يوم الجمعة سادس عشر شوال من سنة ستمائة ، فنزل الملك الاشرف دون باشزا ، وسير أتابك رسولاً أمين الدين ياقوت الكاتب إلى الملك الأشرف يطلب المصاف ، وفي عقيبه حمل أتابك بمن معه ، ووصل إلى أن شارف الملك الأشرف ، فضرب أتابك دهليزه، وذلك بكرة نهار السبت ، ولم يقم بها ، وساق ووقع القتال، وحمل أتابك حملة بنفسه ورمي أكثر أصحابه في وقتهم ، وأخذوا قتلاً وأسراً ، ونجا بنفسه وكانت وقعة عظيمة مشهودة . ونزل الملك الأشرف بعد الكسرة واستحضر الأمراء ومن أخذوهم من عسكر الموصل ؛ فكان في الجملة سنقر الحلبي وولده ، والأسد بن عبد الله ، وحسين الطويل ، ووصل أتابك إلى الموصل في هزيمته في يوم واحد ، وسير الملك الأشرف البشائر إلى أبيه فاستعظم الملك العادل ذلك.

ودخلت سنة ستمائة:

فيها : اتفق الصلح بين أتابك والملك الأشرف وتحالفا.

وفيها : كان الملك العادل قد رحل من خربة اللصوص ونزل مرج عيون ، وراسله الفرنج إلى أن تقرر الصلح، وعاد الملك العادل إلى دمشق ، وأمر الملك الأشرف بالعود إلى حران ، وسمع برحيل الملك العادل إلى مصر ، فوصل إليه إلى دمشق.

وفيها : طلب الملك المجاهد صاحب حمص نجدة من الملك العادل.

وفيها : كانت واقعة شرف الدين قراقوش المظفري في المغرب مع بوزبا المظفري أيضاً ومسكه وسيره إلى ابن عبد المؤمن .

وفيها : عاد الملك الأشرف من وداع أبيه.

سنة إحدى وستمائة:

جاءت الفرنج إلى حماة بالفارس والراجل ، فأخذوا وقتلوا وسبوا خلقاً وحملوا إلى الباب القبلي فاختنق فيه جماعة . وفيها أسروا الفقيه الشهاب ابن البلاعي ، كان شاطراً شجاعاً . وساروا به في جملة الأسرى فبات في طرابلس ليلة واحدة ، وهرب ونجاه الله منهم ووصل إلى بلاده . وذلك من أطرف ما وقع لمأسور ، وبلغ السلطان الملك العادل نوبة حماة ، فشق عليه ذلك.

وفيها : سير الملك المعظم العسكر إلى حمص وحماة ولم يفارقوا إلى أن تقرر الصلح.

وفيها: طلع الملك المنصور صاحب حماة إلى الملك العادل بالديار المصرية ، فتلقاه وسر به سروراً كاملاً ، بقي مدة وعاد.

وفيها: قطع الفرنج العاصي ، ودخلوا إلى أرض حمص ، فقتلوا جماعة وأسروا ، فبلغ ذلك الملك العادل ، فوعد بنزوله إلى الشام وبرز إلى البركة وسار أولاً فأولاً ووصل إلى دمشق .

وفيها: كانت واقعة السلطان شهاب الدين الغوري مع محمد خوارزم شاه بن خوارزم شاه، وذلك أن السلطان شهاب الدين الغوري وقع بينه

وبين خوارزم شاه، فجاء أخذ نشاوور [١٧] وولى فيها ملكاً من أصحابه ، وهو ابن أخته يقال له ضياء الدين ، وعاد إلى غزنة. وسبب ذلك أن البلاد تخبطت عليه من الهند فسمع خوارزم شاه بذلك، فجمع وقصد نشاوور ونزل عليها وحاصرها مائة يوم، وأن الهنود قاموا على السلطان شهاب الدين، فانشغل بهم وما نجدهم، فأخذها خوارزم شاه بالأمان . ونزل ضياء الدين المذكور منها ، وضرب خيمته بقرب خيمة خوارزم شاه، والأمراء الذين كانوا معه طلبهم يخدمونه فما أجابوا إلى ذلك . قالوا: « إذا لم نحفظ الأول ما نحفظ الآخر» . وفارقوا وتوجهوا إلى السلطان شهاب الدين الغوري ، فسألهم : « كيف جرى» فقالوا له : «سيرنا عدة كتب ما جاءنا لها جواب» فاستحضر وزيره وأنكر عليه وقال له: « كيف كنت تخفيني مثل هذا وقد حوصروا ثلاثة أشهر ، لعلي كنت أنجدهم» . وسخط عليه . وجند السلطان شهاب الدين بعد ذلك وطلب خوارزم شاه . وعملوا مصافا واقتتلوا ، فانكسر خوارزم شاه إلى البلد ، وبقي بين السلطان الغوري وبين خوارزم شاه مسافة يومين ، فعمد خوارزم شاه وكسر من سيحون وجيحون ساقية ماء ، وأدارها في الخندق فمنعت من العبور إلى البلد ، فطال مكث السلطان على ذلك الماء ، وشرع في عمل زواريق ليعبر إلى البلد في الماء. فأنفذ خوارزم شاه إلى أخواله الخطا وقال لهم : « قد جاء من يأخذ البلاد منا ومنكم فأنجدوني » . فجمع الخطا وركبوا في أربعين ألف فارس جرائد ، كل واحد وجنيبه ، وقصدوا السلطان ، فسمع بهم السلطان فانتقل عن الماء وطلبهم ، فبقي بينهم وبين الماء مسافة أربعة أيام؛ وبقي بين السلطان والماء مسافة ثلاثة أيام . فقال الأمراء للسلطان : « إن سبقونا إلى الماء ظفروا بنا وإن سبقناهم ظهرنا عليهم » فجد السلطان في السوق فسبقهم إلى الماء بدقيقة . فوصلت بوادر عسكرهم، وأشرفت على الماء ، والسلطان نازل عليه، فقال له أمير من أمرائه : « تعطيني رجالاً ودستوراً لألقى من وصل من عسكرهم ، لأنهم قد وصلوا تعباً إلى غاية» . فقال

السلطان : « لابل نصبر حتى يصلوا » . وما قبل منه ، فقال : « إلى غد» فتيقنوا ضعفه، فطمعوا فيه وضربوا معه مصافاً ، وأرسل الله هواء عظيماً في وجه السلطان وأصحابه، فانتصر عليهم الخطا ، وقاتل السلطان شهاب الدين بنفسه أشد قتال بحيث إنه غير على عشرين دابة غير أنه كسر، ولكن بعد أن قتل كل واحد من أصحابه جماعة من الخطا . فانهزم السلطان إلى قرية صغيرة يقال لها بندخوي[١٨] . وكان مع الخطا السلطان عثمان ، سلطان سمرقند ، وصعب عليه كسرة السلطان شهاب الدين ، وذلك لإسلامه . غير أنه لم يكن له حيلة في دفع ذلك عن المسلمين. وقصدوا محاصرة الرباط وأخذ السلطان منه، فأشار عليهم السلطان عثمان بأن ما هذا مصلحة ، فإن له عدة غلمان ومماليك معهم العساكر الكثيرة مثل تاج الدين الدز، وأيبك لاشك ، وقطب الدين ، فيسمع هؤلاء فيقصدونكم والمصلحة عندي رواحكم وآخذ لكم منه فيلاً من فيلته وحمل ذهب . قالوا: « افعل » فنفذ إلى السلطان شهاب الدين وأطلعه على القضية فسير له ما طلب، وعاد السلطان إلى غزنة مكسوراً، واجتمعت اليه مماليكه من جميع الأطراف وأنفق في العسكر عن سنين ، فلما كان هو في بعض الليالي في الصلاة اختصم مملوكان صغير وكبير، فخاصمهما السلطان وهددهما إلى بعد صلاته ، فأخذ أحدهما سكينة صغيرة وقفز على السلطان شهاب الدين فقتله وخرجت مصارينه في وقته، وقبر في غزنة ولم يعقب ولا بشر بولد، كان عاقراً . وكان هذا السلطان عثمان المقدم ذكره ، وهو صاحب سمرقند أحسن الناس بحيث إن نساء سمرقند إذا ركب يدعون له ويقلن : « اللهم تقبل مهورتنا منا صدقة عن شباب السلطان عثمان». والله أعلم.

وفي أوائل سنة ثلاث وستمائة:

كانت الكرج قد تحركوا لقصد أخلاط . والملك الظاهر قد خاف أن

تكون حركة عمه إليه فسير إلى البلاد وأفسد عسكراً مثل ابن المشطوب ، وعز الدين كر ، وسنقر الحلبي. وتراسل الملك العادل والملك الظاهر ، وتقرر الصلح بينهما. ووصلت الأخبار برحيل الكرج فخاف الملك الظاهر ، ونزل على غرض الملك العادل ، ونزل السلطان الملك العادل على بحيرة قدس بأرض حمص ، فوصل إليه الملك المنصور ، صاحب حماة ، وولده الملك الأشرف والملك المعظم ، وولده الملك المغيث ، والملك الأمجد صاحب بعلبك، وعسكر سنجار، وعسكر آمد.

وفيها : وصل وزير آمد ضياء الدين ابن شيخ السلامية [١٩] إلى البحيرة إلى السلطان يستحلف لصاحبة الملك الصالح ليصل إلى الخدمة بنفسه.

وفيها: دخل السلطان بمن معه إلى الساحل فنهب وخرب وأحرق ، وسبى وأشرف على أخذ البلاد، وأخذ القليعات وخربها وكذلك طاحونة أعناز [٢٠]، وكان ذلك عظيماً .

وفيها : قفز أهل بعلبك على واليهم فقتلوه ، فأمر السلطان الملك الأمجد بمسيره إلى بلده ، فسار ولم يدخل الساحل معه.

وفيها : عزل البدر بن الأبيض قاضي العسكر ورتب عوضه في القضاء النجم خليل بن المصمودي الحموي ، وذلك بتعصب من الوزير صفي الدين بن شكر ، وسيره رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله وإلى غيره.

سنة أربع وستمائة.

دخلت والسلطان الملك العادل بعدما خرج من الساحل ، وكتب الكتب إلى البلاد بالبشائر .

وفيها: كان الملك المجاهد قد سير كاتبه الشمس الكشغريدي ، إلى الملك الأفضل يطلب ابنته لابنه الملك المنصور إبراهيم فمات.

وفيها : وصل إلى السلطان الملك العادل صبي من بحنين نصراني أسلم على يده، فسلمه إلى الملك المجاهد، فرباه وكبر عنده ، فكثر منه وولاه ورسله إلى الملوك.

وفيها : مات زين الدين قراجا صاحب صلخد المملوك الصلاحي.

وفيها : عاد الملك الأشرف إلى بلاده ، فعبر بحلب واجتمع بابن عمه الملك الظاهر وكان عظيماً. وفيها : توجه الملك المجاهد صاحب حمص إلى الرحبة لعمارة قلعة استجدها، وخرب القلعة العتيقة التي كانت للرحبة، لأنها كانت قد خربت.

وفيها: وصل ابن أبي الحجاج والقاضي الأشرف بن عثمان إلى عند الملك المجاهد يستشفعونه إلى الملك العادل.

وفيها: أمر السلطان بعمارة قلعة دمشق ووظف على صاحب حماة الملك المنصور والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهما عمارة أبرجة في قلعة دمشق .

وفيها: سير الملك العادل مملوكه أستاذ داره الدكز وصحبته النجم قاضي العسكر رسولاً إلى الإمام الناصر.

وفيها: عاد بالجواب وصحبتهما رسل الخليفة بالخلع والتقليد وخلعة لوزيره ابن شكر ولأولاده : الملك المعظم والملك الأشرف ، وذلك بدمشق ، ونصبوا منبراً ، وقرأ ابن شكر التقليد قائما على الناس ، والسلطان أيضا قام إجلالاً لذكره صلى الله عليه.

سنة خمس وستمائة:

بلغ الملك العادل اتفاق أتابك الموصل مع الملك الظاهر وجميع الشرقيين.

وفيها: مات الأمير جناح الدين الهكاري أخو المشطوب. وتغيرت أحوال عماد الدين بن المشطوب ، فأجمع السلطان الملك العادل على أن يجمع جميع العساكر وأصحابها ويقصد الكرج ، فكاتب الملوك بوصوله إلى حران ، والجمع عليها، فاجتمع الناس إليه فأول من وصله الملك المنصور صاحب حماة ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والأمجد صاحب بعلبك ، والملك الصالح صاحب آمد ، وعسكر الملك الظاهر ، وعسكر الملك المنصور صاحب سنجار . فلما وصل الجمع إليه سار قاصداً الكرج، فنزل على ماردين وأقام. وتجدد له قصد سنجار ، وذلك لتخلف صاحبها عن وصولها بنفسه ، فخاف فأرسل نساءه في الاستشفاع في حقه وذلك برأس عين الخابور فما قبل ذلك ولا أجاب . فسير ولده الملك الأشرف ، والملك المنصور صاحب حماة ، وصحبتهما العساكر فأخذوا نصيبين ، وولى فيها ، ثم بعد ذلك وصل الملك العادل ووصل إليه ولده الملك الأوحد صاحب أخلاط ، فلما قارب سنجار جاء إلى السلطان من سأله في تسليم سنجار إليه بشرط العوض عنها، فأجابهم إلى ذلك . ثم (ما) بدا لهم إلا الحصار ، فحنق السلطان عليهم ، فحاصرهم ونزل عليهم، وقطعت أشجارهم ، وأخذت الملوك منازلهم ، ونصبوا المجانيق وقاتلوهم وضايقوهم ، وأقطع السلطان الخابور جميعه ، وفرقه على الملوك الذين كانوا في خدمته مثل الملك المنصور صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهما. فلما أشرف السلطان على أخذها عنوة جاءت رسل الإمام الناصر لدين الله شافعة في ترك سنجار على صاحبها وأخذ الخابور ونصيبين وما يتعلق بذلك ، فقبل شفاعته وبادر إليها طاعة ، وخرج صاحبها الملك المنصور إلى السلطان الملك

العادل فأحسن تلقاءه، ورحل عنها ، وتفرق الملوك إلى بلادهم ، حتى إن أخا صاحب سنجار نور الدين صاحب قرقيسيا كان في خدمة السلطان. ولما سار السلطان من سنجار ، لحقه العماد بن يونس رسولاً من الموصل ، فقضى شغله وأعاده.

و (في رأس العين) حرد وزير الملك العادل ابن شكر المعروف بصفي الدين على السلطان لإنكار كان أنكره السلطان عليه، فما ثبت له، فهرب صنعة ، فتبعه الملك المنصور صاحب حماة، وكان عانيا بابن شكر حتى إنه أول من مشى إلى ابن شكر من الملوك. وتبعه فخر الدين جهاركس ودارا عليه في برية رأس عين، إلى أن أحضراه إلى خدمة السلطان ، فعفا عنه، ومنها انحطت منزلته.

وفيها: مات الملك المؤيد بن صلاح الدين برأس عين لما عاد في جواب رسالته من عمه إلى أخيه الملك الظاهر. سبب موته أنه غم عليه البيت الذي كان فيه فمات هو ومن كان عنده في البيت،

وفيها: أعطوا لابن المشطوب المجدل من الخابور.

وفيها: عاد الملك الأوحد إلى أخلاط.

وفيها: وزر جمال الدين بن شيخ السلامية للملك الأشرف ، كان مولاً إلا أنه كان عامياً جداً.

وفيها: وصل من سيف الدين سنقر أتابك اليمن عشرة آلاف دينار باسم السلطان الملك العادل.

وفيها: كاتب الملك الظاهر الأمراء ، وقويت شوكته بعد وصول عمه الملك العادل إلى حران ، وبرز إلى السموقة من بلد حلب، وترددت

الرسل بينهما، ووقع الصلح بعد إفساد الملوك والأمراء من الجهتين، وسار السلطان إلى دمشق، وهو كثير الشكر من صاحب آمد، لأنه جاءه عند حاجته وانتفع بوصوله إليه.

وفي سنة سبع وستمائة:

سير الإمام الناصر يطلب مملوكه مظفر الدين المعروف بوجه السبع يستعيده من الشام ، لأنه كان قد هرب منه، وذلك لخوفه من كلام كلمه (به) الوزير النصير بن مهدي العلوي، فأعيد إلى الخليفة وتكمل رضاه عنه لعقله ولحفظه كلامه.

وفيها: قويت عزيمة الملك المعظم على عمارة الطور.

وفيها: كاتب الظاهر سامة.

وفيها : وقع الصلح مع الفرنج والسلطان.

وفيها: سير الفرنج بعد صلحهم إلى البحر يعرفونهم بأن الطور يعمرونه وهو قوي به يملكون الساحل . فجد الفرنج في وصولهم من البحر والمعظم يجد فيه.

وفيها :تجدد للسلطان الملك العادل الطلوع إلى ديار مصر ، فسار وبقي في الكرك أياماً، فبلغ الملك الكامل ذلك فوصل إليه إلى حوران، واجتمع به بها، وكان قد رتب له الإقامات إلى القاهرة.

وفيها: عزم عز الدين سامة على الطلوع إلى مصر ليستريح من معاندة الملك المعظم له. فأشار عليه جهاركس ترك ذلك فما قبل منه وكان جهاركس مريضاً ، وسار سامة فمات جهاركس . وبلغ سامة موته فضاق صدره وندم على مفارقته ، ووصل الملك العادل إلى القاهرة.

وفيها: بلغه حركة الفرنج، فتجهز الملك العادل للعودة إلى الشام، فبلغ ذلك الملك الظاهر، فظن أنه لأجله ، فجهز القاضي بهاء الدين ابن شداد رسولاً واستحلف السلطان له.

وفيها: كفت يد الوزير ابن شكر عن العمل .

وفيها: كان الملك الأوحد قد مرض ، وسار إليه الملك الأشرف ، ومات الملك الأوحد، فأخذ البلاد الملك الأشرف ، وبلغ السلطان موته، وهو على البركة، وفيها عمل عزاءه.

وفيها : وصل كليام التاجر الجنوي ــ لعنه الله ــ وقدم للسلطان وصادقه، فأحسن السلطان إليه، وكان في جملة إحسانه إليه، أنه يأخذه معه إلى أين اتجه، وكان الملعون (في ضمن ذلك) يكشف الأحوال أولاً فأولاً ويكاتب بها الفرنج، وقيل للسلطان فما التفت.

سنة ثمان وستمائة:

فيها توفيت أم الملك الكامل، فدفنها في الشافعي ، ورتب عليها القراء والصدقات ، حتى إنه ساق الماء إلى الشافعي، ولم يكن قبل ذلك، ووجد عليها وجداً عظيما.

وفيها: وقع بين الأدفنش، ملك الفرنج، وبين ابن عبد المؤمن في الغرب ، وأخذ قلعة رباح[٢١]، وقتل خلقاً عظيماً.

وفيها :توجه الملك العادل إلى الإسكندرية لكشف أحوالها وكليام صحبته.

وفيها : بلغ الملك العادل أن مراكب واصلة ، فشرق عز الدين سامة إلى الملك الظاهر .

وفيها : أشير على سامة أن يسلم كوكب وعجلون إلى الملك االمعظم ويأخذ عوضها الفيوم، فما أجاب إلى ذلك .

وفيها : كان الملك المعظم قد وصل إلى أبيه بالديار المصرية ، فخاف سامة فهرب سامة، وأوهم أنه قاصد الصيد والسلطان وهرب في البرية، ولم يعلم أحد بخبره . فبلغ الملك المعظم ذلك، فركب خلفه واستركب الناس، وما زال سائقا ومن كان معه انقطعوا عنه، فخرج من أرض الداروم، ونزل يقضي شغلا، عجز عن الركوب وذلك لوجعه بالمفاصل . فرآه بعض الصيادين ، فدل عليه الملك المعظم لما وصل خلفه، فجاء إليه، فأخذه وسير لوقته عرف السلطان به، وأخذ منه الحصون قهرا بعد حصار وقتال، وحبسه وولده في قلعة الكرك .

وفيها : نزل الملك العادل الشام، وسار الى الجزيرة، رتب أحوالها، ورتب شهاب الدين غازي في الرها، وعاد إلى دمشق وكل هذا وكليام الفرنجي صحبته .

وفيها: هبت في بغداد ريح من قبل الغرب، معها رمل أحمر، وقوي وتعلق بالجو إلى أن أوقد الناس الشموع وغيرها ، واختنق جماعة منه ، وبقي كذلك إلى اليوم الثاني.

وفيها: وصل الخبر بأن بعض مماليك الديوان عصى، فجهز إليه رسولا فقتله واستجار بخوارزم شاه، فأعانه على عصيانه فسير الخليفة إلى مظفر الدين بن زين الدين عرفه ذلك، فاستنجد بعسكر الملك الأشرف وغيره، وقوي عليه وحصل الغرض منه.

وفيها : نقل إلى الخليفة .« أن ولي العهد قد عزم على قتلك» فعزله وحبسه، وجرى له معه عدة أقوال . ومال الخليفة عنه إلى أخيه الأمير

الصغير ، فمات، فنقـــل أولاده الى ششتر [٢٢] ، ثم أعادهم وسلمهم إلى عمهم ، ولي العهد، فأحسن إليهم إحسانـا ما توهمه الخليفة، وصاهرهم، وطاب قلب الخليفة عليهم.

سنة إحدى عشرة وستمائة

كان قد تجهز خوارزم شاه إلى العراق .

وفيها : وصلـت رسل خـوارزم شاه، تطلـب الدار ببغـداد والخطبة وأن يخاطب بمخاطبة السلجوقيـة ويقال له في الخطبة «قسيم أمير المؤمنين» . فما أجيب إلى ذلك وأنكره عليه غاية الانكار.

سبـب عزل الخليفـة لـوزيـره نصير الديـن العلـوي أنـه كان قـد سير ثلاثمائة جمل عليها قـواصر التمر، وأودع كل جمل ألف دينـار، فتعرض لها بعض ولاة الخليفة وطلـب شيئا من ذلك التمـر يأكله فامتنعـوا عليه من ذلـك، إلا أنه ألـح عليهـم ، فأخـذ جملين وفتـح قـوصرة تمر يفرقهـا على الجماعة، فوجد الذهب، ففتح الثانية فوجد كذلك فضبط الجميع، وطالع به الخليفة فـأنكر ذلك عليه وعـزله ونقله إلى دار الخليفة هـو وأولاده بعد أن أخذ جميـع الذي كان له ، فما وجـد إلا القليل، لأنه كان قـد نقل إلى العجم ، وقد استوفينا قصته في البيان.

وفيها : وصل الخبر بموت سيف الدين سنقر ، صاحب اليمن .

وفيها : عاد الملك العادل إلى الديار المصرية وكليام لا يفارقه .

سنة اثنتي عشرة وستمائة

كان الملك العادل بالقاهرة، والملـك الأشرف بأخلاط ، وشهاب الدين غازي في الرهـا. وكان الملك العادل قـد تشوش مزاجه ، والملـك الظاهر قد سير إليه القاضي بهاء الدين بن شـداد رسولا، وفي ضمن رسالته يتوقع ما يكون مـن مرضه، ورتب بريـدا من حلب إلى الديار المصريـة، فاتصل بالسلطان الملك العـادل من البريد الواصل من حلـب أن الملك الظاهر قد مات، وذلـك في سنة ثلاث عشرة وستمائة ومات الملك الظـاهر وترك من الأولاد الملك العزيـز، اسمه (غياث الدين محمد) ، مـن ابنة السلطان الملك العـادل ، والملك الصـالح أحمد مـن بعض المغـاني . وكان الملـك المشمر خضر مقيما بحلب يومئذ . فقال الملـك العادل لابن شداد قاضي حلـب : «ما عنـدك مـن أخبار صـاحبـك ؟» قال لـه : « مـا أعلم مـن يـوميات أخبـاره» . فقال لـه : «قد مـات» . فعـزاه وفارقـه وعاد . وقعـد الملك العادل لعزائه كما جرت العادة .

من جملـة سبب موتـه مع فراغ أجلـه كان قـد أكل لحم قديـد بعدس وهو في الصيـد ، وشرب عليه الخمر، فأوصـى عند موتـه إلى الأمير سيف الديـن بن علم الديـن ليكون أتابك ولـده ، وكذلكِ عين شهاب الـدين طغرل الخادم ، فما وافق ابن علم الديـن على أن يكون أتابكا . واتفق مع الأمراء عـل أن بقي شهاب الـدين أتابكا ولا يعمـل شيئا إلا باتفـاق من هؤلاء: ابـن علم الـدين و القاضي بهاء الـدين وسيف الـدين بـن قلج ، واستمر الحال في أحسن سيرة.

وفيهـا : قصد الملـك الأشرف الوصـول إلى حلـب فعزم الحلبيـون على إحضار الملك الأفضل من سمسياط (ويكون أتابكا للملك العزيز) فعاد ابن علـم الدين أنكر ومنـع من ذلك، ووصل الملـك الأشرف واطلع على ذلك .

سنة أربع عشرة وستمائة

فيها : تـواترت الأخبار بجمـع الفرنـج ودخولهم عكا ونقضـوا الصلح وقصـدوا الشام ، فلما تحقـق السلطـان العادل ذلـك خـرج مـن الديـار المصرية إلى الشام بجميـع أمواله التي كـانت بمصر ، فوصل إلى نـابلس إلى أن تكامل عسكره فجاءه الخبر بقصد دمشق

وفيها : وصـل فخر الديـن بن شيـخ الشيوخ من (بغـداد في) جواب رسالته إلى الخليفة الناصر

سنة خمس عشرة وستمائة

(فيها): قوي الخبر بحركة كيكاوس سلطان الروم السلجوقي إلى البلاد الشامية ، باتفاق من الملك الصالـح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام. هذ ا والملك الأشرف بحلب، فوصل الـرومي إلى الشام ، فوصل إلى منبج وأخذ تل باشر، ورعبان، وقويت شـوكته ، وكان الشرط معه أنه مهما ملك يسلمـه إلى الملـك الأفضـل نـور الـديـن ، فما أقـام بقـولـه وسلمهـا إلى أصحابه، فوقـف الناس عنه ، وتحققوا غدره، فجذبوا عنـه، ووقع العربان بفرقـة من عسكره ، أخذوهـم قتلا وأسراً ونهباً ، وعاد إلى بـلاده مكسورا، وكان به خروج دم مفرط، إلا أن الملـك الأشرف عند دخوله حلب أحضر الأمراء المأسـورين من عسكر الـرومي وخلع عليهـم وأطلقهم ، وسير إلى السلطان الملك العادل يخبره بكسرة الرومي

وكان الفـرنج— خذلهم الله— قـد فعلوا في حركتهم وقتـالهم للملك العادل واندفـاعه من قبالتهـم، وعملوا في الغور ما عملـوه من قتل وأسر وخراب، وقـوي عزمهـم على قصد الـديار المصريـة فقصدوهـا وحاصروا

دمياط وأخذوها بعد كل جهد وفراغ ما فيها من إقامة وغيرها، وكان قبل هذا قد جرى على الطور ما جرى من قتال وغيره، وخربه الملك المعظم بعد عمارته أحسن عمارة ، وقد غرم عليه من الأموال ما تجاوز الحد .

وفيها : وصل ابن شيخ الشيوخ وصحبه رسل الخليفة الناصر إلى الملك الكامل على دمياط، فظن الناس الظنون الجميلة يومئذ في الخليفة، فبين أنه لأجل رمي البندق وكونه يريد أن يكون هو قبلته لا يزدجرد، فتعجب الناس من إمام العصر وهمته.

وكان نزول الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على ثغر دمياط ـ حماه الله ـ في ثالث ربيع (الأول) ستة عشر من حزيران ، واعيدت إلى المسلمين في رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ، سابع عشرين آب ، ووافق وفاة السلطان الملك العادل ـ رحمه الله ـ من شهور الروم آخر آب من هذه السنة وسارت إليها العساكر الشامية.

وفيها : مات السلطان الملك العادل رحمه الله وترك من الأولاد:الملك الكامل محمد ،الملك الفائز ابراهيم، الملك المعظم عيسى، الملك الحافظ أرسلان شاه ، الملك المظفر غازي، الملك العزيز عثمان، الملك الصالح إسماعيل، الملك المعز يعقوب ، الملك الأشرف موسى ، الملك تاج الملوك. الملك عباس، الملك المفضل قطب الدين ، فنقل إلى دمشق ، وأخذ الملك المعظم جميع ما كان معه.

وفيها : طلع المعظم إلى مصر، واجتمع بالملك الكامل على دمياط ، فشكا إليه عماد الدين بن المشطوب ، فأخرجه المعظم من الديار المصرية كما لايحب ، فوصل إلى الشام بأربعة نفر لا غير ، وأقام بحماة، وتجهز منها بعسكر، (ورحل عنها بسبعمائة فارس) ووقع بجشار حلب ونهبه،

وخرج السلطان الملـك الأشرف إليه وأخافه وآمنه بعـد ذلك وأعطاه رأس عين الخابور وزلبيا ملكا

سنة ست عشرة وستمائة

فيها : وصل الملك الفائز بـن السلطان العادل إلى أخيه الملك، الأشرف رسـولا من أخيـه السلطان الملـك الكامـل، فضبطه عنـده بعد الاحسـان إليه، لأنه كان الغرض أن لا يكون بالديار المصرية .

وفيها : تحجـب ابن المشطوب برأس عين لصـاحب ماردين وهي في يده، فعوضه عنها وتسلمها صاحـب ماردين، وأعطى ابن المشطوب زلبيا ملكا وأرجيش إقطاعا.

وفيها سـار الملك الأشرف إلى الموصل وعليهـا مات الملـك الفائز رحمه الله.

وفيهـا : عرف ابـن خـوشتريـن حسام الـديـن أحـوال ابن المشطـوب وأعطـاه مجلسه بجملـة كبيرة إلى أن جرت أمـور أوجبت للملـك الأشرف القبض عليه وعلى ابـن خوشترين وأودعهما السجن وماتا فيـه بحران وقد استوفينا ذلك بتفاصيله في تاريخنا المطول:البيان .

سنة سبع عشرة وستمائة

وفيها : مات الملـك عز الدين كيكاوس ملك الـروم، وولي بعده أخوه الملك علاء الدين كيقباذ وهو الذي كـان محبوسا بقلعة المنشار وقد ذكرنا قصته

وفيها : وردت كتب الخليفـة الناصر إلى الممالك بنجدة الملـك الكامل بدمياط .

وفيها : كان خروج التتر من بلادهم وقصدهم بلاد العجم، وخربوها، ونهبوها وفتكوا فيها فتكا عظيما لم يسمع به في الزمان. وكان انهزم منهم خوارزم شاه بعد عدة وقعات معهم، ولم يظفروا به. وكان سبب خروج الكافر في سنة سبع عشرة وستمائة إلى مقاتلة السلطان محمد خوارزم شاه ابن خوارزم شاه أن الطريق من طمغاج وكاشغر[٢٣] إلى سمرقند مقطوعة من مدة سنة وخمس عشرة ، لا يجسر أحد يركبها، فقلت الكساوي عند أهل طمغاج وجميع ما كان يحمل إليهم. فنفذ الملك الذي للكافر ، وهو الترمجي، ويعرف بكشلوخان[٢٤] أيضا ثلاثة رسل وصحبتهم عدة تجار إلى خدمة السلطان خوارزم شاه بسمرقند . فلما وصلوا إلى رأس الحد الذي لبلاده إلى بلد يقال له أطرار فيه أمير يقال له رسلان ملك من قبل السلطان، فأعاقهم وسير إلى السلطان عرفه خبرهم، وعدتهم ثلاثة رسل وصحبتهم تجار لواجية، فجاوبه السلطان أن « من المصلحة أن لايمكن هؤلاء من دخولهم بلادنا وكشفها ولا يؤمنوا ، فتجهزهم وتسيرهم يومين ثلاثة في الطريق وتسير إليهم من يأخذهم ويقتلهم حتى كأن الحرامية قد فعلوا بهم ذلك » فعمل بقوله وما سلم منهم إلا شخص تركوه قصدا ليعود إلى صاحبه ملك الكافر يخبره بما جرى . والذي كان مع الرسل والتجار صحبتهم ما يناهز مائة وخمسين فرسا محمل عليها نقرة الفضة، فأخذوا الجميع . فلما وصل إلى الملك وخبره بما جرى سير رسولا إلى السلطان وقال له : « أنت رجل مسلم وما نفذنا إليك إلا مسلمين موحدين حجاجا، فكيف جاز لك في دينك ما فعلته من قتلهم وأخذ مالهم ، والله لا بد لنا منك . إما أنك تحييهم كما كانوا وتسيرهم إلينا. وإلا فنحن واصلون إليك قولا وفعلا» فأخذ خوارزم شاه ذلك الرسول وقطع من سائر أطرافه ، وقال له : «ما لكم عندي إلا هذا الجواب» . فلما عاد إلى الملك بذلك ، وكان بين السلطان وبين هؤلاء الكفرة مسيرة سنة، لأنهم كانوا في صحارى مر غزارات، وهي برية وأودية داخلة الصين معروفة بالحشيش اليابس والرطب شتاء وصيفا، فجمعوا وقصدوا

السلطان خوارزم شاه فسمع بهم السلطان ، فركب في سبعين ألفا وطلبهم ، وافترق الكفار ثلاث فرق. فالملك الكبير الترجمي وولده ركبوا بالعساكر ، فأخذ الملك الكبير فرقة ، والولدان كل واحد منهما فرقة . وكان لهم في كاشغر مملوك يقال له جنكز خان . ومملوك يقال له كشلوخان ، وكان في خدمته أ ربعون ألف راكب، فقصدت فرقة الملك الكبير مملوكه بكاشغر، فضرب مع مملوكه مصافا فكسره مملوكه وقبضه وقتله، وابن السلطان خوارزم شاه وقع بابن الملك الكافر الواحد ، فسير ابن الملك إلى خوارزم شاه يقول له : « ما معي من أبي أمر بأن أقاتلك» . فلج السلطان خوارزم شاه عليه وساق إليه ، فاندفع قدامه مسير ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الثالث نفذ إلى السلطان وقال له: «قد ألزمتني بقتالك وما معي فيه إذن، لكن أقاتلك» فالتقى بخوارزم شاه وكسره، فانكسر السلطان خوارزم شاه ورجع على أنحس قضية ، ووصل إلى بلاده وما معه إلا نفر قليل من عسكره ، فعبر جيحون وعاد ابن الملك الكافر إلى أبيه وأخوه ، واجتمعوا كلهم، وعرفهم ما جرى له مع السلطان وكسره فقويت أنفسهم وتجهزوا وطلبوا بلاد السلطان، فوصلوا بخارى وكان فيها أخو قمر الدين وكشلو أمير أخور السلطان معهم عشرة آلاف فارس، ونزلوا على بخارى وكان سورها خرباوعوامه غير معترفين بقتال وحصار ،فقاتلوا ثلاثة أيام فكسروا أمير آخور وكشلو وأخذوا بخارى بعد أن انهزم أمير آخور وأخو قمر الدين، وخرج العسكر الذي كان فيها في الليل منهزما وتسلموا البلد، وكان له قلعة، فعصت عليهم خمسة أيام فجمعوا كل ما في بخارى من قطن وخشب وبهيمة وأجمال ، ورموه في الخندق حتى سدوه، فقاتلوهم وتسلموها بالسيف بعد ذلك ، وقتلوا واليها جمال الدين بعد أن قاتل قتالا عظيما ويقول:« ما أجاهد إلا المسلمين » لأنهم كانوا عليهم مع الكافر، وتوجهوا إلى سمرقند، فنزلوا عليها، وكان فيها أمير آخور السلطان معه عسكر عظيم وثلاثون ألف راجل ، فأخذها الكافر، وأحضر الملك الذي كان فيها إلى

بين يدي الملـك جنكز خان فقال :« يـا سبحان الله معك هـذا العسكر كله والرجـالة وما قدرت تحفظـه» أكان معك في البلد مـن يحكم عليك؟ قال: «لا» . قـال: «فكم لك واليـا؟» قال:«ثلاث عشرة سنـة؟» قال: «فما كنـت حفظته أيـاما بعـدد السنين؟! » فقتله حنقـا عليه وأخـذ سمرقنـد بالسيف، وقتل جميع حاشية السلطـان وغيرهم من الأجناد ما خلا العوام، فسمع السلطـان وهو على ترمذ بـأخذ سمرقند، فقـال العسكر:«إن انتصر الكـافـر على السلطـان وأخـذ مـا وراء النهر قمنـا نحـن عليـه وأخـذنـا السلطـان» ، وذلك لكثـرة حنقهم على خـوارزم شاه لما كـان قتل منهـم، فـاجتمـع امـراء السلطـان على ذلك، وتحالفـوا، وكـان في جملتهـم خـال خوارزمشاه، معهم وما طاب له هـلاك السلطان،فنقش على يده صورة ما حلفـوا عليه وأنهم في تلـك الليلـة يـريدون قتلـه في الخيـم ، فلما حضروا الخوان سـأل السلطان خـاله: «مـا على يدك مكتـوب؟» فقال : «اقـرأه ، فإننـي لا أقدر على قولـه لك ليمينـي » . فلما قرأه كتم ذلـك الى الليل ، وألبس مملـوكا لـه ثيابـه وأجلسه مـوضعه وتـودد هو إلى اليـزك، فلما كان نصف الليـل قتلوا المملوك اعتقادا منهـم أنه هو السلطان وسروا بـذلك، فلما أصبحوا والسلطان على رأسه الجتر [٢٥] وهو في الموكب .فخـافوا منه على أنفسهم وقالـوا وأجمعوا رأيهم على أن حملوا عليه. فـانهزم منهم فتبعوه ودخـل نشاوور فتبعـوه فما قدر يقيـم بها لعـدم العسكر بها ، فـانهزم إلى الري وكـان وزيره عماد الـدين عـراق قال لـه : «يا مـولانا المصلحـة أن تنهزم وأنـا أكسرهم لك » فبقي أربعـة أيام وتلاقوا فكسرهـم السلطان في ميمنتهم فجاء خـال السلطان إلى الوزير فضرب رقبته،وذلك أنـه كان قد قتل ولـده ، فانهزم السلطان خوارزم شـاه بعد قتل الوزيـر ووصل همذان هو وولـداه غياث الدين وجـلال الدين ، وتبعوه إلى همذان، ومنهـا ركب برية قفـراء وطلب مكانا يقـال له أوسخن على جانـب البحر وأفكر فيما تم عليه وعلى الاسلام فـانفطرت نفسه ومات فيها فدفنـوه هناك . وطلب ولده جلال الدين خوارزم شاه فما فتحوا لـه الباب وقالوا له : «هذا البلد لأبيك» ومـا علموا بمـوته ، فساق وطلـب نشـاوور، فلما وصـل اليها غبر

فيها وأقام بها ونادى : « من أراد الرواح يروح فإنني ما أقدر أقيم بالغرباء وأهل البلد». وسار عنها يومين ، فالتقاه الكافر فكسروه وأخذوا جميع ما كان معه، وتم إلى هراة منهزما ، وهم في أثره، فما قدر يقيم بها ، فتم إلى غزنة ، فلما وصلها التقى رجلا بلخياً مسلما، وكان قد سمع بما تم على السلطان وعلى المسلمين فقال له : «تقف لنضرب معهم مصافا ونكسرهم»، فوقف البلخي وضرب المصاف وكمن لهم فكسرهم، ووقعت الغنيمة للبلخي فحسده ابن السلطان على ذلك وتقاول هو وولد البلخي فضربه ابن السلطان قتله على الكسب، فصعب على البلخي وفارقه . وانتزح عنه، فسمع الكافر بانتزاح البلخي عن ابن السلطان فطمعوا به وعادوا إلى ابن السلطان، فضربوا معه مصافا فكسروه ورموه في ماء السند ، ولم يفلت إلا هو بنفسه وعجز الكافر عن عبور الماء خلفه ، فعادالى البلاد جميعها أخذها وخربها لعدم السلطان ومن بها، وملكوا العراق البراني وغيره، وما امتنع عليهم بلد وقتلوا واقتسموا فرقتين : فرقة عادت إلى ما وراء النهر وما عادت ، وسكنوا بخارى وسمرقند وعندهم من المسلمين الذين كانوا بها مقيمين، يأخذون منهم الجزية، وكل من كان يعمل صنعة في تلك البلاد التي أخذوها وخربوها نقلوهم إلى عندهم وسيروهم إلى بلاد هم وهي الصين وطمغاج وغيرها وفرقة توجهت إلى الكرج وإلى البلاد الشمالية وغيرها

وفيها : مات الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله .وترك من الأولاد الملك المظفر محمود والملك الناصر قلج أرسلان ، والملك العزيز، والملك المجاهد، والملك المسعود، والملك المؤيد، والملك الصالح، والملك المعز. كان حسن السيرة عالماً بالسير والتواريخ وعلم الكلام ، حصن قلعة حماة، وعمق خندقها ووسعه وأدار خندق البلد وعمر الجسر عليها. وكان رحيما ما رد أحدا من بابه لاستخدام من جرى أو هدى . رحمه الله تعالى .وكان عند

موته قد أوصى بعتق عبيده وإمائه وإخراج كل من في حبوسه حتى إنه قال :« في الحبس من قد ظلمنا، وفيه من قد ظلمناه» . وكان أوصى أولا إلى ولده الكبير الملك المظفر محمود، واتفقت غيبته عند خاله الملك الكامل نجدة من والده لدمياط ، فعاجله الموت، فوصل ولده الملك الناصر قلج أرسلان من عند خاله الملك المعظم ، كان عنده نجدة أيضا فمملك حماة وصارت بيده ومنعت من الأول ، وقد استوفينا في تاريخنا المطول ذلك .

سنة ثمان عشرة وستمائة

وصل الملك المعظم إلى أخيه الملك الأشرف وأخذه مستنجدا به لدمياط، والملك الحافظ أرسلان صاحب قلعة جعبر وعسكر الشرق وصاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم من الأمراء الأكابرفطلعوا إلى دمياط واستنقذوها من الفرنج ، ووقع الصلح بعد عدة مقاتلات وحروب جرت وأشياء على الأسارى الذين كانوا عند الفرنج وعلى النزول عن القطائع والمناصفات مدة ثماني سنين. ومنَّ الله تعالى على المسلمين بهذه الفتوح ، وبه عاد الاسلام جديدا.وعاد الناس إلى بلادهم وتفرقوا الى أماكنهم وأعيدت دمياط إلى ما كانت عليه أولا بعد خرابها، فكان نزول الفرنج - خذلهم الله — على دمياط ثالث ربيع الأول من سنة خمس عشرة وستمائة، ورحيلهم عنها بعد تقرير الصلح في شهر رجب تاسع عشره من سنة ثمان عشرة وستمائة .

وفيها: مات الملك الصالح صاحب آمد ابن أرتق بالقولنج، وملكها ولده الملك المسعود.

وفيها : وصل الملك الناصر صاحب حماة إلى الرقة إلى خدمة الملك الأشرف ، وكذلك الملك المظفر شهاب الدين غازي واجتمعوا كلهم بالرقة ، وعاد كل إلى بلده .

سنة تسع عشرة وستمائة

فيها : مات ملك الكرج وبقوا بلا ملك كبير ، وسيروا إلى الملك الأشرف عرفوه بذلك .

وفيها : مات ابن جميل صاحب المخزن في بغداد .

ومات ابن البختري، وكان مشارف مخزن.

ومات شرف الدين معد .

وفيها : سار السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل. وأقام عنده في رمضان.

وفيها : كان نزول الملك المعظم على حماة وانتقل إلى المعرة وعاد إلى سلمية وجاءته رسالة الكامل والملك الأشرف وسألاه والحاجب حسام الدين علي كان عنده، فأجاب وكف عنها وعاد إلى دمشق .

وفيها :اجتمع الملك الحافظ وأخوه الملك المظفر غازي على سنجار باتفاق من الملك الأشرف .

وفيها : مات الوزير نصير الدين بن مهدي الشريف وزير الناصر لدين الله، وأقيم عوضه أيام عزله نائبه المكين العجمي وكان ذا نهضة ودراية ولقب بمؤيد الدين، ثم توفي الناصر . وولي ولده الظاهر أبقاه على مكانته ، ثم توفي الظاهر وولي المستنصر أبقاه على مكانته، وفي كل الأحوال هو نائب وزارة لا مطلق الوزارة .

وفيها : منع الملك المسعود بن الملك الكامل صاحب اليمن أعلام

الخليفة الناصر من طلوعها قبل سناجق والده الكامل وكاد أن يقع السيف في الحاج ، ثم بعد ذلك اتفق الحال ووقع الصلح بينه وبين أمير الحاج، واعتذر إليه ولبس خلعة الخليفة وركب الفرس المسير برسمه كما جرت العادة.

وفيها : ملك عليهم الأرمن بعد موت ابن لاوون ابن الأبرنس ودخل في مذهبهم، ثم عزلوه بعد مدة قليلة إلى الفرنج واعتقلوه وطلبوا منه أموالا وطلقوا ابنة الملك منه وزوجوها غيره وقد استوفينا ذلك في تاريخنا الكبير .

وفيها : مات صاحب حصون الاسماعيلية بالشام أسد الدين ووليها أخوه صلاح الدين بقي مدة ومات ثم وليها أخوهما تاج الدين، فبقي مدة وسيروا من ألموت عزلوه واستدعوه إليهم وولوا غيره محيي الدين أعجمي حسن السيرة .

وفيها : أمر السلطان الملك الأشرف بأن تبنى له دار على القلعة الجديدة التي كان السلطان الملك العادل قد أسسها وأبطلها فبنيت عدة آدر . وغرم عليها من الأموال ما يزيد عن الحد، وعمل قبالتها بستانا في الجانب القبلي.... الشامي لم ير مثله، فيه أنواع الفواكه الشامية والمصرية والعراقية وغيرها.

وفيها : عاد الملك الأشرف من الديار المصرية وتلقته الملوك في طريقه ووصل إلى حلب وسلطن الملك العزيز بن الملك الظاهر وألبسه خلعة الملك الكامل ورفع سنجقا منه أيضا وحمل له الغاشية وكان يوما عظيما .

وفيها : وصل الملك الأشرف إلى قلعة جعبر وشرب عند أخيه الملك الحافظ فيها ونزلا في الماء إلى الرقة .

وفيها : تقررت سلمية للملك المظفر عوضا عن حماة التي كانت (مقررة له) [٢٦]

سنة عشرين وستمائة

فيها : وصل الملك المسعود إقسيس إلى عند أبيه وصحبته الفيلة والتحف الهندية واليمنية .

وفيها : وصل رسول ماردين لإتمام الزيجة بينه وبين الملك المعظم . وكان الملك الأشرف الولي عن أخيه الملك المعظم .

وفيها : تأخرت الأمطار لاسيما عن الجزيرة .

وفيها : مات الشيخ أبو محمد الأنتاني[٢٧] بتونس من بلد افريقية فوصل الخبر إلى ابن عبد المؤمن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فسير إلى الموحدين بالإقامة بتونس السيد أبا العلى، عم أبيه ، وهو من أولاد السيد أبي حفص بن عبد المؤمن ، وتحالف العربان وكاتبوا أمير المسلمين المايرقي . وكان بسجلماسة السيد أبو زكريا ء من أولاد عبد المؤمن والسيد أبو عبد الله بسلا ، وكان ديانا صالحا.

ومات السيد أبو زيد بإشبيلية .

وفيها : دخل الملك الأنبروز إلى جزيرة صقلية ، وكان بها قائد من المسلمين وهو الحاكم عليها وسلطانها على جبالها وغيرها وبعض وطاها، وكان أصله من بلدة المهدية ، دخلها دون البلوغ ، وكان لما دخل اتصل بابن فاخر صاحبها فقدمه عنده حسن سيرته وأفعاله وشجاعته وصدق لسانه، .فأزوجه ابنته إليه الملك، وأقام كذلك إلى آخر التاريخ المذكور . فلما دخل إليه الأنبرور من بلد الألمانية في البحر في عدة

مراكب وبألفي فارس وستين ألف راجل، وأقام يحاصره ثمانيةشهور، فاختلف عليه بعض أصحابه وقواددولته ، فخاطبوه على لسان بعضهم بما قالوه له يقوله وهم على الأسوار في الحصار، فلما خاطبه بما لايليق أنكره عليه وقال له: « كيف تقدم علي بهذا الخطاب؟» فقال: « تعودون إلى الأسوار كما كنتم » . فلما خرجوا من عنده قتل ذلك الشخص القائل.

فبلغ أولئك فلبسوا عددهم ودخلوا على الأنبروز وقالوا له :« تجيء تأخذ البلد» . ودخل إلى ابن عباد ولد القاضي قاضي صقلية وقال له:« المصلحة أن تخرج إلى طاعة الملك » وكان ابن عباد متمرضا في نفسه من القتال والسهر فقال :« والله لا فعلت ذلك خوفا من العار» . فلما كان صبيحة تلك الليلة ، خرج القاضي وابن عباد معه إلى الأنبروز وحضر بين يديه فانتهره وضربه برجله وفيها المهماز شق جبينه وتركه في خيمة ناحية ، ثم بعد سابع يوم قتله وشق بطنه وأخذ ماله وربط أولاده في أذناب الخيل وتملك الأنبروز الجزيرة ، وبقيت بقية من القلاع في يد المسلمين، في يد بعض أقارب ابن عباد مثل القائد مرزوق وهو ختنه، عمل حيلة حسنة، وهي أنه سير إلى الأنبروز وقال له : « تعلم أن ابن عباد قد راح وما بقي لنا إلا أنت، فنفذ إلي ثقاتك وخواصك لأسلم البلاد إليهم والقلاع وننزل إليك فما لنا إلا أنت» . فسير الأنبروز أخص الناس عنده وأقربهم إليه مقدار مائة وخمسة عشر نفرا، فقتل الجميع وأخذ دوابهم وغلمانهم وقال: « هؤلاء عوض ابن عباد ياعدو الله». فجرى على الأنبروز ما لا يوصف، وبقي الأنبروز على هذه الحالة.

وفيها: كان في الغرب من الغلاء ما لا يعبر عنه بحيث إنهم أكلوا الميتة جميعها، وذلك أن المطر انحبس عنهم من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة وستمائة .

واختلفت القبائل سنتين، سنة عشرين وسنة إحدى وعشرين وستمائة. وقلت الخيول عندهم، بحيث أن أكثر الموحدين رجالة وكذلك العربان .

وكان لهم في الأرض عرق يسمى الرنا شديد البياض كانوا يطبخونه طول ليلهم وما ينضج فإذا أكلوه ما ينهضم عنهم ، فهلك أكثرهم بهذا العرق. وكانوا مدة هذا الغلاء يصانعون ملوك الافرنج مثل الأذفنش، والبرشنوني، والنبري، وولد الرنك والبابوج [٢٨] والدوك، عن كل يوم ألف ومائتا دينار، الألف مقررة للملوك، والمائتا دينار لفارس يصل يقبضها منهم ، جعلوها عوضا عن حصان وعدة . وصرف هذا الذهب نصف دينار بمصري. وكان صاحب البلاد يومئذ السيد أبو اسحاق أخو المنصور والمسير لهذه الجملة في كل يوم للفرنج السيد أبو عبد الله. وأولاد عبد المؤمن أبدا يهادنون صاحب غانة ويهادونه، وهو ملك السودان ، والبرابر يهدون إليهم الخيل البلق تسمى عندهم الحبارية . والجواري والروم، والثياب الأشكري، ويهدون هم لأولاد عبد المؤمن عوضها التبر في أرقاب الجمال، ويسيرون درق اللمط ، وحمار الوحش والزرافات، والخدم البابوجيات وهن أحسن من الهنود وأطيب.

سنة إحدى وعشرين وستمائة

كان الغيث قد انحبس في الجزيرة . وفي أول شباط وقع الغيث والثلوج وعمت البلاد ورويت بعد الإياس.

وفيها : ظهر في السماء نجم بذؤابة كبيرة طويلة في كبد الغرب ، بقي اثنتي عشرة ليلة.

وفيها : اشترى الملك الأشرف من تجار حجر بلخش [٢٩] وزنه ستون درهما غير نصف درهم، يعرف هذا الفص بالجبل، وهو الذي كان لسليمان شاه بن سلجوق، بثلاثمائة ألف درهم وصحبته فص آخر وزنه خمسة عشر درهما . وكان عند الملك الأشرف فص بلخش وزنه تسعة وثلاثون درهما ونصف ، تكملت الحجران مائة درهم، وهذا لم يرلملك في

هـذه الممالك ، وقـد كـان التجار شروه مـن أتابـك أزبـك، وهو الحجـر المذكور في التواريخ بالجبل

وفيها : قـويت الأراجيف بعصيان الملـك المظفر شهاب الديـن غازي على أخيـه الملك الأشرف بـأخـلاط ، وهو يمغلـط ولا يصـدق فيه قـولا ويراسله ويهاديه ويلاطفه بالرسـل والهدايا ولا يسمع ما يقال عنه والناس يحملونـه على قصده، وتمادى الحال في ذلك إلى أن ظهـر له عُصيانـه قولا واحـدا، ، فراسلـه وخوفـه قصده لـه فما أفاد، فجمـع العساكـر من كـل مكان، وكـان قد وصـل إلىٰ الرقة أخـوه شهاب الديـن من أمـه وأبيه إلى أخيهـم السلطـان الملـك الأشرف، وتـوجـه قـاصـده ومـا زال سـائرا إلى ماردين، فنزل تحت ماردين ووصـل إليه السلطان الملك المنصور ولي أبيه السلطان الملـك المجاهـد صاحـب حمص إلى دنيسر، وجاءتـه الإقامـات منها، ونـزل صاحبهـا إليه واجتمع بـه وبات عنـده بحرزم، وعمـل دعوة للسلطان الملـك الأشرف في موضع جـدده تحت ماردين في الجبـل، وقدم للسلطان ولأصحابه وإخوته التقادم وغيرها .وجرد عسكره في خدمته، ثم توجه منهـا وجاءه صاحب آمـد الملك المسعود وقدم لـه التقادم وغيرها ، وفي جملتهـا خيمة لم يـر لأحد مـن الملوك مثلهـا ، عملت في أربـع عشرة سنة، سيرها الملك الأشرف لأخيه السلطان الملك الكامل وجرد عسكره في خدمته أيضـا، وساق إلى أخلاط وقد كـف عن حصار ميافـارقين احتراما لنساء أبيه ، وسـار ونازل أخلاط وخرج إليـه جماعة من مقدميهـا وغيرهم وزحف إليهـا، فأخذهـا من غير مداومة قتـال وملكها وآمن أخـاه الملك المظفر شهـاب الدين غـازي وأحسن إليه وقبـل عذره وعفا عنـه، وأعطاه بعـد أن حلف لـه ميـافارقين وحـاني، وجبـل جـور، وذو القرنين، وقلـب والسناسنة.

وكان ابـن زين الـدين مظفـر الديـن قد نـازل الموصل محاصرا فنـدب السلطـان أخاه الملـك الحافظ نـور الديـن وسير في خدمتـه العساكـر إلى

نجدة بدرالدين لؤلؤ أتابك الموصل، وتوجه إليها بكرة نهار الجمعة ثالث يوم فتح أخلاط، فلما بلغ ابن زين الدين أخذ أخلاط خاف على نفسه، ورحل عن الموصل، وسار الحافظ إلى أن وصل الجزيرة أقام بها مدة وخدمه صاحبها أتم خدمة بحيث إنه لعب عنده في الميدان بالكرة، فنزل الملك المعظم معز الدين بن سنجر شاه ابن أتابك صاحب الجزيرة عن حجرة مثمنة وقدمها بيده وقال: « هذه يعز عليها السلطان». وكان هذا من أعظم المكارمات. ولم يزل الحافظ إلى أن وصله كتاب السلطان الملك الأشرف إليه فتوجه واجتمع به على حرزم وهناك عيد الملك الأشرف عيد الفطر، وعنده البانياسي رسول الملك الكامل.

وفيها : مات عز الدين مسعود بن سابق الدين صاحب شيزر وهو آخر من كان بقي من أولاد الداية المعروفين بغلمان نور الدين محمود رحمه الله، ووليها بعد ولده شهاب الدين الأعرج.

وفيها : وقع من قلعة حلب تسعة أبرجة وأبدانها فبناها شهاب الدين أتابك الخادم في أسرع مدة ، وهتم همة ما قدر عليها غيره، وحسب جميع ما أنفق عليها من ماله تطوعا.

وفيها : مات شمس الدين محمود بن قلج من أكابر أمراء الدولة الحلبية.

سنة اثنتين وعشرين وستمائة

مات فيها الشهاب خطيب منبج ، وكان عالما مجيدا .

ومات خطيب الرقة وقاضيها المجد إلياس.

ومات ابن التيمية[٣٠] شيخ الحنابلة وعالمهم بحران .

وفيها : وصلت رسل الملك الكامل إلى ملوك الشرق جميعهم بالاتفاق في خدمة الملك الأشرف وتحالف الجميع.

وفيها : قوي جلال الدين بن السلطان خوارزم شاه بن محمد خوارزم شاه، ودخل العراق ونهب وقتل وسبى، وكان قد شارف بغداد ،أقام على قرب بغداد ثمانية عشر يوما، وكان الخليفة الناصر لما علم بوصوله سير الفدن إلى الأرض التي تحقق وصوله منها فحرثها وقلبها بحيث لا يبقى لدوابهم ما تأكله ، فهذا كان سبب عوده عن قصد بغداد، ووصل إلى دقوقا فأخذها وخربها وقتل جميع أهلها وانتقل إلى البوازيج أخذ أموالهم وأطلقهم، وأخذ خمسة عشر ألف فدان وسيرها بفلاحيها إلى بلاده، ووصل إلى الزاب، فخاف صاحب إربل فهاداه وحمل إليه وكاتبه وحلف له فعاد عنها ونزل بمروج شهرزور وتوجه إليه عماد الدين زنكي ابن أتابك وقدم ووعده بالموصل وعاد من عنده .

وفيها: كان الملك المعظم قد سير ولده الملك الناصر داوود إلى عند ابن زين الدين زيادة في تأكيد المودة والوثوق ، وكان ذلك بطلب ابن زين الدين له ، لأنه قال: «أريد أجعله ولي عهدي».

وفيها وصل الشيخ شهاب الدين السهروردي رسولا من الخليفة الناصر لدين الله إلى الملك الأشرف بالرقة بهدايا وتحف وأشياء ما سمح خلفاء بني العباس لأحد من ملوك الأطراف من أقوال جميلة وطرف جليلة.

وفيها : مات الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر صلاح الدين رحمة الله. كان جوادا عالما كريما محبا لأهل العلم والدين، أجرى جميع ما كان والده أجراه للناس من صدقة ورسوم رحمه الله ، وزيجته للضرورة في الستمائة إلى سلاطين الروم بني سلجوق حماية له ممن يقصده. فجاء ولده

إلى السلطان الأشرف فخلع عليه وقبل عزاءه، وطلبوا رسوله يسمع الخطبة باسمه في سمسياط فما وافق وقال : « لا تغيروا الخطبة عن سلطان الروم السلجوقي والزموا ما كان والدكم عليه في ذلك وطيبوا قلوبكم مني»

وفيها: وصل رسول أرزن الروم ركن الدين واسمه أبو الفتح جهان شاه بن طغرل بن قلج أرسلان ، إلى الملك الأشرف، وهو ابن سلجوق يطلب رسولا من عنده يقف على سماع الخطبة باسمه ، لأن أباه مات ، وهو عم السلطان علاء الدين كيقباذ ، فأرسل معه الأمير شروة المعروف بسبع مجانين ، بهدية حسنة

وفيها مات الصفي محمد بن اسماعيل الكاتب المصري وكان مجيدا.

وفيها : مات الحكيم صدقة السامري، وكان فاضلا في فنه.

وفيها : هرب أمير الحاج العراقي المعروف بأبي فراس إلى الديار المصرية .

وفيها أغارت العربان وقتلوا من التراكمة خلقا عظيما وأخذوا جشار الرقة.

وفيها: كسر السلطان علاء الدين سلطان الروم الأشكري [٣١] وأخذ من قلاعه. وكذلك كسر ألكس أيضا الرومي ومسكه.

وفيها : وصل الملك الجواد مظفر الدين بن مودود بن الملك العادل إلى عمه الملك المعظم بدمشق هاربا من البحر. وتخيل الملك الكاملّ من أمراء دولته فمسك منهم جماعة ووقع عنده الاحتراز على الطرقات وغيرها

وفيها : مات الوزير صفي الدين بن شكر بالديار المصرية لأنه كان وزر للملك الكامل بعد موت السلطان العادل، كان جبارا ظالما جباها منتهكا للناس، متعصبا للأراذل ومتعصبا على الأماثل، فأخذ السلطان الكامل أولاده، واستخرج منهم ما كان أكله أبوهم ، وعصروا وضربوا ووجدوا بعض ما عملوا.

وفيها : أمر الملك الأشرف بخراب خمسة أبرجة من سور الرقة قبالة الآدر التي عمرها في القلعة الجديدة.

وفيها : كان الغلاء قد كثر في البلاد الشرقية وخلت البلاد من فلاحيها وأهلها وحصل في البلاد الغلاء والوباء والمرض المختلف، إلا أن أكثره بالبرسام بحيث لا يؤخر المريض إلا بعض أسبوع ويموت وفني أكثر الماشية .

وفيها : مات الأمير سيف الدين بن علم الدين بن جندر، كان جوادا شجاعا صالحا ورعا كثير الخير عمارا للمساجد والمدارس والخانات.

وفيها : أمر الملك المعظم بقطع طريق باب الفرج إلى باب الحديد وسيب الماء في الخندق بحيث منع .

وفيها : أدار العمارة لسور دمشق وعرضه .

وفيها : تنكر على أخيه الملك الصالح وأحضره من بصرى وأسكنه دمشق وكان مقامه بصرى لأنها بلده.

وفيها : نقص نيل مصر وخاف الناس الغلاء، فأحسن السلطان الملك الكامل التدبير ثم عاد زاد بعد ذلك .

وفيها : وصل مجد الدين قاضي الممالك الحنفي رسولا من ابن خوارزم شاه إلى الملك الأشرف،ثم إلى الملك المعظم،ثم إلى الملك الكامل،وشرب الخمر مع الملك الأشرف والملك المعظم،وأحسنا في عطائه وحرمته غاية الإحسان .

سنة ثلاث وعشرين وستمائة

كان الحاج فيها في غاية الأمن والرخاء وكثرة المياه وغيرها، وكان الحاج الشامي أكثر من العراقي والمصري.

وفيها : كان الشريف قاسم بن مهدي قد حاصر مكة مجدها الله وحماها، وجمع عليها من العربان خلقا وما حصل على بعض غرض منها . وكان لما نزل من الديار المصرية ألطن بغا قد ترك قماشه وزرده وغيره في البحر، ضرب قاسم على الجميع أخذه . وهذا قاسم هو صاحب المدينة المحروسة . وكان قد نزل صحبة هذا ألطن بغا زيادة على من في مكة من العسكر المصري سبعمائة فارس وراجل، فقويت بهؤلاء أيضا. وكان هذا قاسم قد أخلى المدينة من أهله وقماشه وجماعته وسيرهم مع العربان إلى العراق خوفا على أهله.

وفيها : وردت الأخبار بموت الإمام الناصر لدين الله الخليفة، وولي بعده ولده ولي العهد الإمام الظاهر بأمر الله، بقي في الولاية تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، ثم مات ، وكان حسن السيرة كريما ورعا ، في زمانه ترك الحقوق وغيرها ، وأعاد على الناس ما أخذ لهم في زمان أبيه من مال وملك ، وطابت قلوب الناس وسار سيرة حسنة رحمه الله. وولي بعده ابنه الإمام المستنصر بالله أبو جعفر بعد أبيه الظاهر. فأول ما سمع من الإمام المستنصر بالله تعالى صلوات الله عليه :« نستمد من الله المعونة» هذه أول كلمة سمعت منه عند مبايعته بالخلافة في السنة المذكورة .

وكانت قد وردت رسل الإمام الظاهر إلى البلاد الاسلامية ، وخطب له فيها ، فكانت رسله إلى الشام محيي الدين يوسف بن أبي الفرج ابن الجوزي ومملوك من مماليك الخليفة تركي يقال له شمس الدين،وكان رسول الملك الأشرف إلى الإمام الظاهر في العزاء والهناء بدر الدين عتمان.

وسير الملك المعظم في ذلك القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل رحمه الله، فأكرم إكراما زائدا ، وذلك لأبيه زيادة على مرسله . وسير الملك الكامل في ذلك المعين ابن شيخ الشيوخ ابن حموية . واتفق موت الظاهر وخلافة المستنصر وهو عند الملك الأشرف وسير استأذن الكامل فيما يفعله، فأمره بالمسير وتعزية الإمام المستنصر بوالده وجده وتهنئته فسار .

الكلمات التي قالها ابن شيخ الشيوخ رسول الكامل بين يدي الوزير مؤيد الدين نيابة عن الملك الكامل : « عبد الدولة المقدسة النبوية المستنصرية يقبل العتبات التي يستشفي بتقبيل ثراها، ويستكفي بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها، ويوالي شكر الله تعالى على إماطة ليل العزاء الذي عم مصابه بصبح الهناء الذي تم نصابه حتى تزحزح عن شمس الهدى شفق الاشفاق، وصوح بيت رد كأنفق النفاق، وامتازت الخلافة المعظمة من مستنصرها بالمثل الأعلى وفاز عبد دولتها من ولاتها بالقدح المعلى، فجعل الله كلمتها العليا وكلمة معاديها السفلى، وزادها شرفا في الآخرة والأولى» . ثم قعد

ثم سير الملك الأشرف إلى الامام المستنصر للهناء والعزاء فلك الدين ابن المسيري المصري المعروف ، فأكرم غاية الإكرام وبولغ في تلقيه والاحسان إليه . وسير الملك المعظم ناصرالدين بن أيمر أحد خواص دولته.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة

مرض الملك المعظم مرضته التي كان بلغ فيها الموت، ولما أبل عمل الناس الهناء وزينوا البلد أحسن زينة بالمغاني وغيرهن ودام الناس على ذلك ليلا ونهارا مدة عشرة أيام وكان عنده قاضي الممالك الخوارزمي فرأى من ذلك ما أهاله، ووردت عليه الرسل بالهناء من البلاد حتى إنه خشي على تشويش الساحل ، فسير كاتبه عرفهم أنه في عليّ عافيته ، ورسل الخليفة الظاهر لما وردوا عليه كان في عقابيل مرضته.

وفيها : وصل رسول كبير من ابن خوارزم شاه إلى الملك المعظم وخلع على المعظم وأعطاه سنجقا وأضاف إلى السنجق حربتين وسيفا ، وصار الملك المعظم يركب بسنجق الخليفة وسنجق ابن خوارزم شاه بمحضر من رسل الخليفة.

وفيها : ورد رسول سلطان الروم علاء الدين بقود كثير وتقدمه للملك الكامل والمعظم، وأدى رسالته على المعظم، فما أجاب عنها فما قبل طعامه ، ولا هو قبل هديته، وتوجه إلى الكامل .

وفيها : عاد القاضي النجم قاضي العسكر الدمشقي من عند سلطان الروم.

وفيها : مات القاضي الجمال المصري الذي كان وكيلا أولا وصار قاضيا بدمشق ، وقبر في داره، وتحدث جماعة في القضاء من الأماثل وغيرهم وبذلوا أموالا وما قبل منهم، وولي القضاء لرجل أعجمي يقال له الشمس الخوئي ، كان في بعض المدارس وذكرت عنه أشياء ، وذكر أن المعظم رآه وسمعه فيها، وولاه أيضا مع ذلك مدرسة والده وحضر دروسه .

وفيها : ورد الملك الأمجد صاحب بعلبك لهناء الملك المعظم بعافيته وكتب مهر ابنته على الملك المغيث بن الملك المغيث بن الملك العادل وكان عظيما ، وكل هذا وقاضي الممالك حاضره.

وفيها : قبض الملك الأشرف على صاحب ديوانه علاء الدين بن الرام، ثم أفرج عنه ومسك جماعة من ولاته.

وفيها : قبض الملك الناصر صاحب حماة على قاضي بلد ه(المعروف بـ)ابن القطب و(بـ) ابن المقيشع ، وأهانه وعصره بالمعاصير ، وهرب منه، لما كان شاع عنه من أعمال لا يليق به فعلها .

وفيها : توجه قاضي الممالك إلى صاحبه ، وقد أكرمه المعظم غاية الاكرام، حتى إنه سير معه لمخدومه ثلاثة آلاف قوس عمل دمشق وهذا قاضي الممالك الذي كان أرسله الخوارزمي إلى ملوك الشام كان فاسقا خمارا زانيا محللا شرب الخمر وغيره، كثير التبرج بالمحارم. ولما عاد إلى مخدومه الخوارزمي أنكر عليه ذلك وأخذ أمواله وقبض عليه ، بقي مدة ثم شفع في حقه فأطلقه، ومات بعد موت الخوارزمي بمدة يسيرة بعد وصوله إلى حلب وأخذ صدقة من أتابك حلب طغرل .

وفيها : عاد الشرف بن عنين الشاعر المعروف بالهجاء الدمشقي من جواب رسالته من إربل.

وفيها : مات القاضي نجم الدين نائب قاضي حلب المعروف بابن الحجاج ، وولي بعده الزين بن الاستاذ.

وفيها ولي القضاء بحماة الشهاب ابراهيم بن أبي الدم .

وفيها : وقع الارجاف بأن صاحب حماة وقع وهلك ، وطلبوا أخاه

بكتاب زور وهو بدمشق، فتوجه بعد ذلك برأي الملك المعظم وتجهيزه ، وعاد من غير صحة .

وفيها : كان الملك المعظم بعد عوده من هذه القضية قد نزل على قرية من قرى دمشق يتصيد بها ، فورد عليه رسول مظفر الدين صاحب إربل بـ « أنني قد خرجت إلى الموصل ، فتخرج إلى البلاد وتأخذها » . فقبل رأيه وتجهز ووصل إلى حمص ، فأقام عليها مدة محاصرا، وتراسل هو وصاحبها الملك المجاهد عدة طرق فلم يجب.

وكان أعطاه بانياس ونابلس وخمسمائة فارس وقال له: « اطلع إلى عندك إلى القلعة وخذني بخادم واحد ، واستحلفني على ما تريد، وأنا ما أحلفك ، ولا أريد أن تسير صحبتي إلا بعض أولادك لا غير » فما وافق على ذلك .

وكانت النجدة قد وصلته من حلب في غاية القوة ، فأخربوا بلدها وطواحينها وأفسدوا فيها ، وتراسل الملك الأشرف وأخوه الملك المعظم ، بعد أن كان الملك الأشرف قد توجه إلى ماردين وغيرها من معاهدي المعظم ، فاتفق الحال بينهم على الاجتماع وكل منهما يرحل عن الموضع الذي هو محاصره، ووقع الاتفاق بينهما على ذلك، ووصل الملك الأشرف وتلقاه أخوه الملك المعظم على القريتين من بلد حمص وتصيدا ودخلا إلى دمشق ثاني عشر رمضان من هذه السنة المذكورة، ووصلت رسل حمص وحلب وحماة إليهما. أقاموا عندهم مدة طويلة وحلف الملك المعظم بحماة وبحلب وما حلف بحمص ولا أزال نوابه عن قارا ، ولا عن الوادي الشرقي الذي للملك المجاهد ، وكذلك النبك ، ثم أقاما بدمشق وعادا إلى القريتين للصيد والرسل ترد عليهما من الأطراف ، ووصل إليهما الزكي بن العجمي من جواب رسالة الخوارزمي ، ووصل

فلك الـدين بـن المسيري في جواب الخليفة أيضـا . كل هـؤلاء وصولهم إلى القريتين .

وفيها : عـاد العماد وزير الجزيرة من الملـك الكامل في جواب مـا كان سيره به الملك الأشرف وكذلك بدر الدين عثمان.

وفيهـا : مات أبـو سعيد الجعبري الـذي كان والي قلعـة دمشق بـدوز نطاريـا ، كان شيعيا سبـابا جباهـا كذابـا دهريا وولي بعـده الخادم شبل الدولة .

وفيها : مات الخادم شبل الدولة المعـروف بست الشام أخت السلطان صلاح الدين كـان دينا صالحا ، عمر المدرسة المعروفة بـالصالحيين بظاهر دمشق ، حنفية وأحسن وقفها وعمارتها .

وفيها : مات المبـارز المعتمد الذي كان شحنة دمشـق وسيرته مشهورة معروفة.

وفيها : عـاد الملك المسعود أقسيس بـن الملك الكامل إلى اليمـن بعد كل جهد من والده.

وفيهـا : وردت الأخبار بـأخذ ابـن خـوارزم شاه تفليـس وقتل أكثـر الكرج .

وفيهـا : عزم الملـك الأشرف على طلوعـه الـديار المصريـة غير مرة مـا يمكنه المعظم من ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والملك المعظم والملك الأشرف على ما هما عليه بدمشق من الاجتماع في الملاذ وغيرها .

وفيها : وردت الأخبار أن عسكر الخوارزمي في أواخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة كانوا قد قصدوا خلاط وهجموها وبلغوا فيها سوق الدقيق ، وأن الناس تحايوا ونصحوا وقاتلوا أشد قتال وأخرجوهم منها عنوة ، ورحلوا عنها لكن بعد خراب كثير وقع في البلد .

وقيل : إن أهل أخلاط هم الذين كانوا استدعوا الخوارزمي ليسلموها إليه ، ثم عادوا عن قولهم ، فعاد الحاجب علي بعد رحيلهم حصنها ونقل إليها العدد والغلال وحشدها خيالة ورجالة وبقيت في أتم حصانة .

وفيها : عاد الملك الناصر داوود من إربل إلى أبيه الملك المعظم وتلقاه عمه السلطان الأشرف .

وفيها : كانت الأخبار قد حققت بعود علاء الدين من حصار صاحب آمد بعد أن أخذ الكختين [٣٢] ومواضع أخر مثل حصن منصور وغيرها إلى بلاده. وكان الملك الحافظ نور الدين قد توجه منجدا لصاحب آمد ، هو وعز الدين أيبك الأشرفي ، ووقع ابن بدر وأخذه العسكر الرومي ، وكان في سنة ثلاث وعشرين وقع هذا .

وفيها : كان صاحب ماردين قد خطب للرومي وعاد في خدمته.

وفيها : وصل قاضي حصن كيفا إلى الملك الأشرف يخبره أن صاحب آمد في خدمته وأنه ما عاد إلى الرومي كما نقل عنه.

وفيها : وصل بدر الدين عثمان أخو الحاجب علي والغرس مبارك المعظمي برسالة [٣٣] إلى الملك الناصر صاحب حماة وإلى أتابك حلب لا غير ، فما وقع مرضيا لقولهما .

وفيها : عاد النجم خليل الحموي قاضي العسكر من عند خوارزم شاه، وقد كان له عنده مدة تسعة شهور، وحكى من جوره وظلمه وجبروته وعظمته ما لا سمع عن غيره ، وفارقه متوجها الى كنجة وسار صحبته مملوك المعظم المعروف بالبركين

وفيها : مات المهذب السامري الحكيم الذي كان عند الملك الأمجد صاحب بعلبك، الذي كان الناس قد عملوا الأشعار في الأمجد بسبب عشقه له ومحبته ، فمن جملتهم الشهاب فتيان النحوي الشاغورَي رحمه الله، عمل :

الملك الأمجد الذي شهدت
له جميع الملوك بالفضل
أصبح في السامري معتقدا
معتقد السامري في العجل

فيها : وصل الكمال بن مهاجر من بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، إلى الملك الأشرف والملك المعظم بقود وهديه وأقمشة وغيرها ، وهو كبير القدر كثير المال والمعروف ، وله الصدقات الدارة وبناء الطرقات والخانات وأوقف الوقوف ، فتلقي بحلب أحسن تلق ، وتلقاه الملك المجاهد صاحب حمص ، وحمل له وأضافه وبالغ في إكرامه ووداعه.

وفيها : كان وصل إلى صاحب الموصل رسالة من الإمام المستنصر يطيب قلبه ، ويبسط أمله ويغده بكل جميل لا سيما عن صاحب إربل ، ووصل إليه أيضا رسول السلطان علاء الدين كيقباذ سلطان الروم، في

معنى التعاضد على الخوارزمي، والتعجب من تأخر الملك الأشرف عند أخيه في مثل هذا المهم .

وفيها : قبض بدر الدين لؤلؤ على أولاد بلس وذلك بعد اتفاقه مع ابن زين الدين صاحب إربل على ذلك ، وأخذ جميع أموالهم وكانت كثيرة .

وفيها: عاد ناصر الدين بن أيمر من عند الإمام المستنصر إلى مخدومه المعظم .

وفيها : عاد كريم الدين المعروف بالخلاطي من عند سلطان الروم كيقباذ إلى صاحبه .

وفيها : كانت الوقعة بين الأمير مانع بن حديثة وابن عمه الأمير منيع على يرعم ببلد بارين ، فطعن منيع طعنة بلغت منه، وحمله مانع إلى بيوته، وسير الملك المجاهد جرائحيا من عنده لعلاجه فصلح . ومات الأمير حلو من أصحاب منيع ، وطرح منهم جماعة مانع مائة وثمانين شخصا ، وكانت وقعة عظيمة ، كان أصلها منيع ، لأن مانع قال له عند الالتقاء : « كف الشر واحقن الدماء » فأبى إلا السيف والغي ، فحمل مانع بجماعته على منيع وأصحابه فرموهم إلى الأرض وجرى من القتل والجرح والموت والهرب ما اشتهر في الناس وهذه عاقبة البغي . ثم رحل بقية أصحاب منيع إلى بلد بعلبك وصاروا يتخطفون الناس ، فمن جملة فعلهم وإقدامهم أنهم وقعوا على البهاء بن رسلان بغا وهو في قرية يقال لها قطينة بقرب بحيرة قدس من بلد حمص ليلا ، فأخذوا قماشه وجرحوه ومماليكه وأصبح فقيرا ، وكم لهم من فعل قبيح هذا أقله .

وفيها : كان الملك المعظم والملك الأشرف قد توجها إلى الغور للصيد والتفرج وغيره ، أقاما مدة ثم عادا إلى خربة اللصوص بدمشق أقاما فيها

وفيها في آذار في العشرين منه وقع من الثلج والأمطار والأهوية ما لا يحد ولا رؤي من الأعمار، وتلف بعض الأشجار.

وفيها : شرعوا في إعادة عمارة البرج الذي كان بسلمية وخربه الملك المنصورمحمدبن تقي الدين رحمه الله، وذلك بأمر الملك الكامل واشارته لصاحبها ، وهو الملك المظفر محمود المقدم ذكره

وفيها : شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في حفر خندق القلعة وتعميقه وتوسعته وحصانته لأنه من الثغور الإسلامية المندوب إلى حصانته، وقد كانت قلعة حمص أيضا قبل ذلك مترجلة صغيرة فعلاها وكبرها وحصنها وكم عني بها من أتم عناية لله تعالى وساق إلى حمص المياه وأطاعه في ذلك العاصي الذي لم يطع قبله لغيره من الملوك.

وفيها : وقع بين صاحب حماة الناصر وصاحب شيزر شهاب الدين الأعرج على ضامنة اللطف وقصده الناصر وخرب شيزر ونهبها وقتل منها إلى أن وصل من الملك الأشرف رسول بالصلح بينهما .

وفيها : عاد الحجاج ووصفوا من الرخص وكثرة المياه والأمن ما تجاوز الوصف وانباع الليمون الأخضر في الطريق برخصه في الساحل

وفيها : وقع الصلح بين مانع بن حديثة وابن عمه منيع بن توبة، وذلك بإشارة السلطان الملك المجاهد صاحب حمص.

وفيها عاد الملك-الظافر خضر المعروف بالمشمر لدين الله بن صلاح الدين رحمه الله من عند أولاد عمه العادل من دمشق فأحسن إليه الملك المجاهد وأعطاه نفقة سنية وحمل إليه الاقامة الكثيرة إلى حين انفصاله.

وفيها : عاود الملك المعظم بن العادل مرضه وهو نازل بخربة اللصوص من بلد دمشق .

وفيها : وردت الأخبار من البحر أن البابا أعطى الملك الذي كان صاحب عكا اثني عشر بلدا، وكان الملك الامبراطور قد تزوج ابنة هذا الملك المذكور وبقيت عكا له ورتب نائبه فيها .

وفيها : مات ملك الإفرنس وكان يحاصر بلد صنجيل وهو بلد البطلانية ، والبطلانية عند الفرنج كالنصيرية عند المسلمين ، فاجتمع أكابر ومحتشمو الخيالة ورتبوا ولده في الملك عليهم ، ولازموا حصار من كانوا عليهم ورتبوا الصبي بالا وهو مثل أتابك العسكر.

وفيها : عاد خصبك ابن صاحب تكريت من العجم وخبر أن الخوارزمي تأخر عن حركته بسبب من قام عليه في تلك الخطة .

وفيها : توفي نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا بدمشق .

وفيها : وردت الأخبار بأن الاسماعلية قتلوا خال الخوارزمي ووصلت رسلهم إلى الأشرف بذلك .

وفيها : اتفق الأشرف وأخوه المعظم على ما جرى بينهما ، وسيروا الكمال بن مهاجر إلى السلطان الملك المجاهد وإلى الناصر صاحب حماة وأتابك حلب بصورة ما وقع به الاتفاق بينهما، فما وافقوا على شيء منه ، وشرعوا في عمارة بلادهم وتحصينها .

وفيها : ورذت الأخبار بإنفاق السلطان الكامل في عسكره وخروجه .

وفيها : وردت الأخبار أن الخليفة المستنصر بالله قتل رشيق الشرابي ورتب عوضه كافور أحد خدام أبيه، ثم بعد ذلك توجه الخليفة إلى الحديثة للتفرج بقي أياما فغلا السعر ببغداد، بلغه ذلك فعاد إليها وأعاد السعر إلى حاله .

وفيها : في شهر جمادى الآخرة ودع الأشرف أخاه المعظم من المنزلة عائدا إلى بلاده الشرقية بعد الإرجاف بقبض المعظم له قطعا.

وفيها : في الشهر بعينه بعد انفصال الأشرف عاد كيميار رسول الرومي إلى مخدومه. فتلقاه الملك المجاهد وأولاده ولي عهده الملك المنصور ابراهيم واخوته ، وأحسن إليه .

وفيها : في الشهر أيضا غارت العرب، وهم غزية البطنين وغيرهم على بلد حمص وأخذوا حتى غنم أهل البلد، فوقع الصوت وركب العسكر وتبعوا العربان إلى معظم الطريق، وكان فيهم قوة ومنعة لكثرتهم ، فعاد عنهم بمراسلة جرت بينهم ، وذلك توفيقا من الله لحقن الدماء . ثم بعد ذلك أمر المعظم عربه أن يغيروا على بلد حمص وحماه وسلمية وبارين فجاءوا ونزلوا الزراعة من أرض حمص وأرض جوسيه الخربة والقصب ومكثوا أياما يغيرون والملك المجاهد مهمل لهم ، فلما طمعوا ركب إليهم بمن معه وأولاده ، وأذن لأهل بلده في النهب وأطمعهم فما كان بأقل من نصف نهار حتى نهبوهم وسبوهم وقتلوا وجرحوا خلقا ، وكان مانع بن حديثة يومئذ قد وصل إلى خدمته فحضر الوقعة أيضا ، وكان عند العرب المذكورين مملوك المعظم سنجر أمير العرب فرحلوا غصبا ، وكاتبوا المعظم بما جرى فصعب عليه وأمرهم بنزولهم الغوطة خوفا عليهم ، وعاتب الملك المجاهد في ذلك فأجابه جوابا سادا، ثم توجه المعظم في ضمن هذا إلى صفت ، وكوكب ، وتبنين، وغيرها ليخرب بقية أساساتها وسد صهاريج الماء بالقدس خوفا لما بلغه من حركة الفرنج .

وفيها : توجه السلطان الملك المنصور ابراهيم بن السلطان الملك المجاهد صاحب حمص ، وهو ولي عهد أبيه، إلى حلب والى الأشرف

طالبا نجدة ، ليجهز إليه من العسكر العدة المقررة لالتقاء المعظم وعاد، ووصل من العدة جماعة من عسكر حلب إلى حمص مثل شهاب الدين ابن مجلي الهكاري ومظفر الدين بن جرديك وغيرهما.

وفيها : عاد رسول الملك المجاهد صاحب حمص من عند الرومي وأخبره بمن عنده من الرسل المجتمعة من الخليفة وسائر الملوك ، وأنه حلف لصاحب آمد، وقد كان رسوله أقام مدة ، فلما تحقق وصول رسول الأشرف، وهو الزكي بن العجمي، حلف قبل وصوله حنقا على الأشرف، وأنهم في ترقب وصول كريم الدين الخلاطي من المعظم .

وفيها : توجه رسولا من أتابك حلب إلى الرومي ، بدر الدين ابن أبي الهيجاء الدقيق.

وجملة ما كان قد أخذه السلطان الملك المجاهد، ومانع عنده والتركمان، من العربان خمسة آلاف جمل خارجا من الأغنام والخيول والأقمشة وغيرها . وعاد مانع إلى أصحابه على الفردوس من بلد حلب بعد وقعة كانت جرت لعربه ولأخيه علي على عسكر حماة، وظفرهم بهم ، ولولا عسكر حلب لم يبق من عسكر حماة بقية ، وخربوا بلد حماة والمعرة وقطعوا الطرقات .

وفيها : طهر السلطان الملك المجاهد بقية أولاده الصغار، وهما الملك الزاهر داوود والملك الأفضل موسى .

وفيها : كان مجد الدين متولي حصون الإسماعلية بالشام قد سير إلى ملك الروم علاء الدين كيقباذ يطلب منه المقرر عليه ، وهو ألفا دينار التي كانت جرت عادتهم بحملها إلى ألموت، فأبوا ذلك ، وسير الرومي

إلى جلال الدين [٣٥] بألموت في ذلك ، فقال له : « تحملها إليهم بالشام، فقد عيناها لهم ذخيرة » ، فحملوها .

وفيها : وصل نجم الدين رسول الروم، وهو المهمندار، واجتمع به السلطان الملك المجاهد في جواب رسالته وفاوضه وقال : « قد وصلت من صاحبي في قضاء شغلك مع المعظم وإزالة اعتراضه على جميع مالك» وكان عند وصوله قد تجهزت سرية عظيمة إلى بلد حماة وغيرها من عرب المعظم ، فأخذ خبرهم الملك المجاهد وركب خلفهم وتبعهم بنفسه وأولاده فأخذوهم وقتلوا منهم عالما واستعادوا غنائم كانوا قد غنموها من حماة وغيرها .

وفيها : في شعبان وصل ولدا شيخ الشيوخ وهما الكمال والمعين من عند السلطان الملك الكامل وقاضي العسكر المصري الشريف الحسيني رسلا إلى المعظم ، وأن الرسالة تؤدى بعد أن يقف عليها الكمال بن شيخ الشيوخ، ثم يعود قاضي العسكر إلى مصر ، ويتم الكمال والمعين إلى حمص ، ويؤدي الكمال الرسالة إلى السلطان الملك المجاهد، فتلقاهم الملك المجاهد بأولاده وأنزلهم في دار الملك المنصور تحت القلعة وأكرمهم غاية الاكرام ، وأدى الكمال رسالته وسار أخوه المعين إلى بغداد لأنه ما كان معه رسالة إلى غير الخليفة . وأما الكمال فإنه تأخر بحمص، وقال ما كان حمله وفي جملته:« إن مخدومي قال : تعرف الملك المجاهد صورة ما جرى منا ومن المعظم ، ومهما أشار به يكون العمل بمقتضاه » فقرر الملك المجاهد معه ما وقع الاتفاق عليه وتوجه إلى حماة وإلى الأشرف وإلى بدر الدين لؤلؤ الموصل ، وأخبر المذكور بأن قد وصل رسول الأمبرطور، ومعه من التحف وغيرها والخيول ما لا يحد ولا يوصف، وأن السلطان الملك الكامل اهتم له غاية الاهتمام من حسن ترتيب وإقامة وغيرها ، وأنه أحضر له من مراكيبه عدة بالذهب وغيره ، وأن الكامل سير فرس الامبرطور الخاص بعينه إلى ابن الملك الظاهر بحلب

وأشياء معه، وأنه قد شرع في عمل هدية لم يسمع بمثلها ، ويسير بها جمال الدين اسماعيل بن منقذ في الجواب، وقد ذكرنا هذا وغيره من الوقائع في كتابنا التاريخ الموسوم « بالكشف والبيان في حوادث الزمان» لأن هذا التاريخ في غاية الاختصار كما شرطنا .

وفيها : وصل رسول الأشكري في البحر إلى السلطان الملك الكامل وبذل من نفسه .

وفيها : وصل رسول من الامبرطور، وهو نائبه بعكا إلى المعظم بهدية حسنة ، وكان رسول الامبرطور وصل وطلب الساحل من الكامل .

وفيها : أصلح هذا الرسول بين الأبرنس والديوية والاسبتارية فإنهم كانوا قد حرموه.

وفيها : وصل رسول الخوارزمي واجتمع بالملك المجاهد وعلى يده إليه كتاب إليه من وزيره خواجا جهان يتضمن ما جرى لهم مع الكافر ، وأنه في عزم المضي إليه لاستقصاء شأفته، وذكر أنه كان على يده هدية في جملتها أسارى من الذين أخذوهم وعدة إلى المعظم وأنهم اتهموا بغدي مملوك أتابك أزبك بأنه تبعهم بعد انفصاله عن الأشرف وأخذهم

وفيها : وصل رسول الامبرطور إلى الإسماعيلية بالحصون الشامية بجواب رسالتهم إليه وعلى يده هدية بما يناهز ثمانين ألف دينار ، فقال لهم مجد الدين متولي الحصون : « الطريق إلى ألموت وجلال الدين غير طيبة من الخوارزمي وغيره ونخاف إلى حين صلاح الطريق واتركوا ما معكم عندنا وديعة لكم ، والغرض حفظ نفسه وأماننا له » . وحلفّ لهم وأعطاهم قميصه أمانا وهذه عادتهم

وفيها : سير الاسبتار يطلبون قطيعة من الاسماعلية ، قالُوا لهم : «

ملككم الامبرطور يعطينا وأنتم تأخذون منا» ومنعوهم ، فأغاروا عليهم وأخذوا من بلدهم جملة .

وفيها : اتفق عيد رمضان وعيد اليهود وعيد النصارى وهذا عجيب عجيب .

وفيها : كانت وقعة بين التركمان وصاحب آمد وظهر عليه التركمان .

وفيها : كان قد اجتمع الملك المنصور صاحب ماردين والملك المسعود صاحب آمد ، وجاء كل واحد منهم إلى بعض الطريق وأكلا وشربا وتحالفا واتفقا بعدما كان بينهما من الشحناء والبغضاء .

وفيها : حج الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل على البرية وودعه أخوه الأشرف ، ولما عاد تلقاه، أقام عنده أياما وعاد إلى بلده ميافارقين وغيرها .

وفيها : اهتم الفرنج بعمارة قيسارية الشام .

وفيها : ورد الخبر بأن الحاجب علي بن حماد صاحب الدولة الأشرفية توجه إلى بلاد العجم فنزل سقماواناه [٣٦] فبلغه بأن الوزير خواجاجهان وصل إلى شميران [٣٧] بثلاثة آلاف فارس ونزل عليها ، فجرد الحاجب علي العسكر من أول الليل ،وأصبح عليهم بشميران وساق عليهم فكسرهم وأخذ أحمالهم وكوساتهم ، ولم يفلت منهم إلا خواجا جهان بستة نفر وتسلم الحاجب علي خوي [٣٨] وسار يتسلم غيرها .

وفيها : كان موت الملك المعظم بدمشق وولي ولده الملك الناصر.
وفيها : وصل العماد ابن موسك إلى سنجار ، وصحبته رسول الخوارزمي الذي كان بدمشق لما مات المعظم

وفيها : هرب بغـدى من حران إلى الخوارزمي وسبب ذلك أنـه كان له حوالـة وصار كـل وقت يطلبهـا، فقال بـدر الديـن قابيـا الأشرفي ، وهو يومئذ نـائبه في البلاد، قولا قبيحـا عن بغدي ، فلما بلغه ، هـرب والتحق بالخوارزمـي، وكان بغـدي في غايـة الوبـال على الناس هـربته، وكـان قد عرف البلاد وتحقق العساكر بها ومن فيها .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

والأشرف بسنجار

وفيها ؛ وصل رسول الاربلي يستصلحه فانصلح له .

وفيها : وصل إليه الملك المنصور بن الملـك المجاهد والركن الهيجاوي ووصل كتاب مجير الدين الملك المعز بـن العادل بأنهم قد ملكوا نقجوان ومدينة أرمية وخطبوا للأشرف فيها .

وفيها : ورد الخبر بأن بغدي تملك ثـلاث قلاع ، وكذلك ورد الخبر أن الرومـي ملك قلعة عظيمـة بعد حصارها ثمانيـة أيام ، ثم عـاد الأشكري صافقه فكسر الرومي وأخذ جماعة من عسكر الرومي وقهره .

وفيها : عاد الحاج وقد وجدوا شـدة عظيمة من موت أجمالهم والعطش.

وفيها تـوجهت أم الملك الناصـر بن المعظم من دمشق الـى الكرك.

وفيها : عمر الفـرنج صيدا بغير رضى من في الساحـل ، لأن الفرنج الغرباء الذين وصلوا من الجزائر عمروها .

وفيهـا : وصـل الحاجـب علي بـن حماد إلى الأشرف بنصيبين ، وعـرفـه

صورة مـا جرى لـه في العجم ويحثه على نـزوله إلى خـلاط لا غير ليملك العجم ، فان أهـل توريز وغيرها قالوا : « إذا جـاء الملك الأشرف سلمنا إليه البلاد» ومـع هذا فأنكر عليـه الأشرف وصوله إليه خـوفا على االبلاد ووعـده بنزولـه إلى خلاط وأعـاده إليهـا فعاد . وسير الملـك الأشرف إلى أخيه الحافظ يأمره بـأنه ينزل ويقيم بحران وأن عز الدين نفـذنا إليه بمن معه يكـون عندك بها، وكـذلك الكمال بـن مهاجـر» فامتثـل أمره وسير أصحابه إلى حران.

وفيها : وصل فخر الدين أبو شعـرة وابن شيخ الشيوخ من السلطان الكـامل بـالخلع والسنجـق . وسلطنوا الملـك الناصروحملـوا في خدمتـه الغاشيـة ، وكذلـك أعمامه الملك العـزيز والصالـح ووصل معهـم خلعة للسلطان الملك المجاهد أيضا ، وأصلحوا بينه وبين الملك الناصر .

وفيها : حلف الأشرف لابن أخيه الناصر ولصاحب آمد أيضا .

وفيها : سير الأشرف الركن أمير جانداره [٣٩] بهدية إلى الخليفة ، وعاد جواب الخليفة إلى الأشرف بسنجـار يأمره بأن لا يتغير منهـا إلى أن يأمره، فتأخر بعد تحقيق حركته إلى العجم، وكان ذلك سبب حرمانه العجم .

وفيهـا : أفرج النـاصر عـن الوادي الشرقـي وجميع مـا كـان لصاحـب حمص السلطان الملك المجاهد.

وفيهـا : أغار الملـك العزيـز عثمان بـن العادل على صـور وأخذ منهـا جماعة أسارى وفعل في ذلك فعلا عظيما .

وفيهـا : زاد ظلم الملـك النـاصر بحماة إلى غايـة ، وطـرح على الرعيـة أغناما وغلة ما يناهز خمسة آلاف مكوك بأكثر الأسعار .

وفيها : خرب داراً لأحد بني قرناص كانت عامرة حسنة .

وفيها : هجم الملك العزيز بن العادل بعلبك طامعا بمخامرة من أهلها لكراهيتهم في الملك الأمجد صاحبهم لظلمه وعسفه لهم وفسقه وجوره، فلما علم بهم قتل من بلده جماعة بسبب ذلك .

وفيها : وقع بين ناصر دمشق وعمه العزيز ومملوك أبيه أيبك صاحب صرخد وسير الملك الناصر إلى عمه الأشرف يستنجده .

وفيها : عاد الأشرف من نصيبين بعد استصلاحه لصاحب ماردين بحيث أنه بذل له بلد نصيبين أو رأس عين الخابور أو الموزر وجملين ليحلف له ، ولم يوافق لأنه طلب دارا فأعطاه بلدها . فأبى وقال : « أريد القلعة وأخربها وأحلف » فما وافقه الأشرف عليها . وكان رسول الديوان أيضا قد دخل في هذه القضية وما وافق. وكان الأشرف قد جهز عسكرا إلى خلاط بعد كسرة كسروها ، وكان الحاكم فيها بغدي وخواجاجهان .

وفيها : أخذ صاحب الروم كيقباذ أرزنجان [٤٠] بعملة طريفة ذكرناها في التاريخ الكبير وغيرها لما شرطنا ها هنا من الاختصار .

وفيها : عاد الامبرطور إلى قبرص وملكها وعمل عملة على صاحب بيروت ليقبضه فما تمت عليه وقبض المال [٤١] الذي فيها وخافته الديوية وجميع من في الساحل .

وفيها : وصل سيف الدين بن قلج بحران يخبر الأشرف بصورة الرسالة التي وردت إليهم من السلطان الملك الكامل ويطلب ألف فارس ، وأنهم ما وافقوه على ما طلبه ، وان الناصر بحماة ما وافق أيضا .

وفيها : عاد ابن قاسم الدين من بعلبك وحمص لاصلاح ما كان بينهما .

وفيها : توجه أبو منصور بن الزُبد رسول الإسماعلية إلى حلب يخبرهم بصورة رسالة الامبرطور إليهم بما طيب به قلوبهم ووعدهم ، ويقول لأتابك حلب :« إن أنتم اتفقتم مع الساحليين انتصرتم عليه ، وإن كنتم عاجزين عرفونا لنصلح أحوالنا معه » .

وفيها : وقعت واقعة بين عسكر خلاط وبغدي على بيكري [٤٢] وكسر عسكر الأشرف بهم وجرحوا تاج الملوك بن العادل في خده جرحا نسر ومات منه عند أمه بميافارقين ،وكان الحاجب علي قد جمع العسكر قاصدا الخوارزمي فأعاقه الرومي بأخذه لأرزنجان خوفا على أرزن الروم، لأن صاحبها كان في خدمة الأشرف وكان قد خطب له كما تقدم .

وفيها : وصل الملك الكامل بعساكره ونزل على تل العجول، فخافه الناصر صاحب دمشق فتحصن وحلف رعيته، وعاد إليه عمه الصالح وكذلك عز الدين أيبك مملوك والده وتخلف عنه عمه العزيز ، فسير الناصر ابن القاضي الفاضل إلى عمه الأشرف يستحثه للوصول إليه .

وفيها : ورد الخبر بمضي الخوارزمي إلى ألموت في طلب أخيه غياث الدين لأنه كان انهزم منه وقال لهم : « ان دفعتم أخي إليَّ فلا كلام ، وإلا خربت بلادكم وغيرها » فما سلموه إليه .

وفيها : في ثالث رمضان وصل الأشرف قاصدا دمشق إلى نجدة الناصر كما طلبه ، فاجتمع به في الطريق بأرض سلمية الناصر بحماة وحمل إليه وقدم له ذهبا وغيره ، ثم إجتمع به السلطان الملك المجاهد ، وحمل له وقدم جملة، وكان عمل شغله ليسير في خدمته فمنعه من ذلك ، وقال له :« المصلحة إقامتك بحمص فإن دعت الحاجة إلى حضورك

نطلبك » فأجابه وعاد إلى حمص بأولاده وعسكره ، ووصل الأشرف إلى دمشق وتلقاه الناصر وأنزله في القلعة وحمل إليه جميع مفاتيح خزائن القلاع وأحضر أخواته إليه وقال : « نحن مماليك مولانا وعبيده وأيتامه مهما حكمت سمعا وطاعة ».

وورد الخبر بأن الأمبرطور يشتي في الجزائر وسار إليه الإبرنس، بعد أن كان قد أخافه .

وكان الملك العزيز قد توجه إلى أخيه السلطان الكامل إلى الديار المصرية فتلقاه في بعض طريقها وقدم له الكامل وأعطاه عطاء لم يسمع بمثله ، وكتب له خطا ببعلبك لابنه وله زيادة في خبزه . وكان الملك الكامل عند وصوله منع أحداً من الأذية في بلد الناصر، فاتفق أن صاحب بعلبك ، بعد مضي العزيز إلى الكامل ، قد دخل بلد العزيز ونهبه ، فلما بلغ الكامل ذلك أمر بنهب بلد الناصر .

وكان الحافظ قد رتب معه الأشرف ومع أيبك أنه إن قصدهم صاحب ماردين، وإلا فلا يقصدونه هم ، وإن احتاج صاحب آمد إلى نجدة بسبب الرومي يروحون إليه ينجدونه.

وفيها : أغار صاحب ماردين على حصن كيفا ، أخذ ونهب وأحرق وكذا أغار صاحب آمد المسعود على التاخ .

وفيها : وصل رسول الامبرطور، وهو الكند توماس وصحبته صاحب صيدا إلى السلطان وقالوا له : « الملك يقول لك إن الجيد للمسلمين والمصلحة لهم أنهم كانوا قد بذلوا لنائبي اللكان الساحل جميعه وإطلاق الحقوق هذا في حصارهم لدمياط وما فعلوا ، وفعل الله بكم ما فعله وأعادها إليكم . ومن كان للكان هو إلا أقل نوابي وعبيدي ، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له » . فقال السلطان الكامل لابن قلج،

وكان عنده يومئذ ، لأن الأشرف كان قد سيره إلى عنده: « تكتب إلى الملك الأشرف تعرفه صورة هذه الرسالة وتقول له يقول ما عنده فيها » فقال الأشرف : « يا سيف الدين ، ما يقول عبد مملوك هو وجماعته، مهما رسمه السلطان الكامل كان ، لأنه هو سلطان البلاد ولا يخرج أحد عن أمره، بل تسأله اتفاق الكلمة ، لتجمع العساكر من البلاد إلى خدمته ويقرر ما فيه الصلاح للمسلمين وللبيت ، وقد اشتاق المملوك إلى تلك الطلعة السعيدة » . وهذا في العشر الأول من ذي القعدة من السنة المذكورة .

وفيها : مات وجه السبع مملوك الخليفة صاحب ششتر فوليها بعده بهمان .

وفيها : غلا السعر ببغداد . ثم عاد رخص

وفيها : أزوج الخليفة المستنصر مملوكه الدويدار بابنة بدر الدين صاحب الموصل، وخرج معها من الأقمشة والذهب والفضة ما لا يوصف .

وفيها : سير صاحب ماردين الى الرومي يقول له : « ما لمضيك إلى أنطاكية معنى . البلاد خالية ، الملك الأشرف عند الملك الكامل في قبالة الفرنج ، والجزيرة ما فيها سوى الحافظ وأيبك وصاحب آمد ، ومن هو بحلب فتسير إليّ عسكراً لآخذ تلك البلاد » . فقوي عزم الرومي وسير إلى والي الكختين سيف الدولة عدة أمراء . فجاء الوالي وركب الماء، ودخلوا إلى بلد قطينا والسويداء ، وأخذوا منها جماعة ، ثم عادوا فسير صاحب آمد طلب الحافظ لنجدته فجهز إليه ، فعاد الآمدي إليه شكره ومنعه من قصده ، فعاد هذا ، وقد وصل كتاب الأشرف إلى أخيه الحافظ يخبره بأنه قد توجه صحبة ابن قلج إلى السلطان الكامل لإصلاح حال الناصر بن المعظم .

وفيها : وصل كتاب الحاجب علي وفي عطفه نسخة كتاب الخوارزمي ووزيره خواجاجهان إلى حسام الدين خضر صاحب سرماري، لأنه كان يظهر للخوارزمي أنه في جملته ويظهر للأشرف كذلك .

ووصل كتاب الآمدي يخبر أن عسكر الرومي قد عادوا إلى بلادهم .

وفيها : وصل كتاب الحاجب علي وشهاب الدين غازي يخبران أن الخوارزمي وصل إلى ملا زجرد ، وكاتبوا الأشرف بذلك ، وهو بدمشق ، حتى أن الحاجب قال في كتابه للكمال بن مهاجر: « اعلم أن الخوارزمي يسبق خبره، وقد ذكر أنه يريد يشتي بالرقة، لأنها أشبه ببلاده . فلا تتمم قراءة هذا الكتاب الا بقلعة حرّان أو الرها». فاجتمع الحافظ وأيبك وابن مهاجر وقابيا على أن جمعوا أهل حرّان عند الحافظ واستحلفوهم وأمروهم بالاستخدام والعدد مهما قدروا، وتعرّف الحافظ وأيبك أبرجة القلعة بحرّان والبلد ورتّبوا آلة الحصار، وطلب الحافظ زَرَدْخَاناه من حلب وغيرها لقلعة حرّان ونقل جميع ماكان في الرقة من مال وغيره إلى قلعة جَعْبر، ثم بعد ذلك وصل الخبر بأن بغدي وصل إلى جبل جور وعاد منه لأجل الثلج وكثرته.

ووصل كتاب الحاجب علي وطيه كتاب صاحب سرّ ماري الواصل من الخوارزمي ووزيره، مضمونه ما نسخته. كتاب الوزير:

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوانه:محبة علي بن القاسم.

المجلس السامي الشريف الملك الكبير العادل المؤيد المظفر المجاهد، شرف الدولة والدين، نصرة الإسلام والمسلمين، عضد الملوك والسلاطين

قامع الفجرة والمتمردين، شهريار أرمن، دام شريفاً مخصوصاً بالتحية والثناء والأشواق الى كريم محياه متوافر.

والذي نعلم به أن أمور السلطنة في غاية الرونق والطراوة، وما لها عزم الا الانصراف الى بلاد الأرمن والشام، وان كان جماعة من الحساد الذين يريدون ليطْفئوا نورَ الله بأفواههم، يظهرون أصواتاً، فما ذاك الا مُنَى زور، وسؤل غرور، فلا يلتفت المجلس الى ذلك، ولايصغي اليه، ولايفوّت مصلحته. ولو أن السلطان كان يُهمل أمرَ بلبان، صاحب خَلْخال، ويتوجه الى الأرمن والشام، لكان تنسد طرقات العراق وخراسان، فرأى أن يطفىء شرَّ شرَّه، ولما تحقق قصد العساكر المنصورة إلى المذكور، وبطل طِلَّسم إمرته؛ وكان اجتمع عنده ثلاثة من الباوكسية، تفرقوا وأكثرهم انتظموا في سلك عبودية الدولة، وقد وصل معتمد المجلس الشريف الأجل تاج الدين حميد الدولة، وشاهد أحوال القلعة التي فيها بيت المذكور وأولاده، وفي هذين اليومين نفتحها ان شاء الله.

وحيث خلا وجه سلطان هذا العالم من هذه الجهة، فلاشك ولا شبهة في تصميم عزمه المبارك على فتح بلاد الأرمن والشام،وقد وصل الأجل الأغر بهاء الدين؛ جمال الإسلام والمسلمين، رضي الملوك شرف الأماثل، مشهور خراسان أعزّ الله نصره عائداً من جهة المجلس الشريف، وشرح ماشاهد من اختلال أحوال بلاده. وإنني وإن تأذّى قلبي من المجلس فما استحسنت ولا استحسن أن يتأذى المجلس، وساعة وصول قاصده قدمته إلى سرير السلطنة وأدّيت شرائط التهنئة عن لسان المجلس بالقدوم، وطالعت بها أنعم على المجلس بمثال موشح بالمواعيد الحسنة. وتعلم أن عاطفة السلطان ورحمته تشمل من اليوم إلى أسبوع، فيتحقق هذه المعاني ويتصورها. والظاهر أن بهاء الدين يرجع الينا ويجتمع بنا في حدود أذربيجان،فيكتب المجلس أحوال الملوك والأطراف مشروحاً، وقد

ذكرنا على لسان بهاء الدين مايعيده عليه فيسمعه ويعلم انما نذكره قولنا ويتيقن أننا مانجازيه على فعله ونحن كما قال قُرْيط بن أُنَيْف:

يُجْزُونَ مِـن ظُلْـمِ أَهْـلِ الظُّلْـمِ مغفرةً
وَمِـنْ إساءَةِ أَهْـلِ السُّـوءِ غُفْـرَانـا .[٤٤]

وهـذه نسخة كتـاب الخوارزمـي الوارد إلى صـاحـب سُرَّ ماري، وهـو بالفارسية والعربي. ترجمته:

«جلال الدنيا والـدين أبوالمظفر مَنْكُبرتي بن السلطان محمـد بن تكش خوارزم شاه ناصر أمير المؤمنين.

عنوانه: النصرة من الله وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك الكبير العالم العادل المؤيد المظفر المنصور المجاهد شرف الدولة والديـن سعد الإسلام والمسلمين، نصرة الملـوك والسلاطين، قاهـر الفجرة والمتمرديـن، خسروا شهريار أرمـن سميدار إيـران أذكره دام عزه وتـأييده مخصـوص بعـزّ الاستمالـة وشرف الاستخبـار والتفـات الضمائر إلى نظـم مصلحته. وتعلـم أن جوامع أمر السلطنـة جارية على وفق إرادة ممـاليكنا وممـالكنا. وعنـد وصولنـا أذربيجان كـانـت العزيمـة مصممة على قصـد الأرمن والشـام، ولكن لما تجاوزت فتن عز الـدين بلبان الحد، وكـان يرى غيبة الرايـات المنصورة فرصة فينتهـزها ويشوّش هذه الأطـراف، اقتضت آراؤنـا التي هـي مـرآة الأسرار أن تقطع أولاً أصـول فتـن المذكور ليخلـو خاطـرنا الأشرف من أمـور هذه البلاد، فجهـزنا فـوجاً من الحشـم لقصد المذكـور في نصـف شهـر رمضان، فـانهزم ودخـل قلعـة فيرزر[٤٥] آباد وتحصن فيهـا. ونحن أقمنا بحـدود خلخال لأجـل العلوفة إلى آخـر شهر رمضـان، وتـوجهنا بعـد العيـد إلى قلعـة فيـزور آباد، فنازلتهـا ممـاليكنـا

وعساكرنا وأحدقنا بها بحيث كان يتعذر عبور الطيور إليها وهبوب الريح من جهتها، وأمرنا بترتيب المجانيق وتقدمنا إلى كل عشر نفر من العساكر باتخاذ ما ممكن من جلود البقر، فحصل في اليومين التاليين من العُدد والآلات ما لايُعد، فلما عاين أهل القلعة تلك العُدّة والاستعداد، علم بلبان أنه لايمكن خلاصه من تلك الورطة إلا بالاعتذار والاستغفار، والتجأ إلى ظل الأمان، وتمسك بأركان الملك، وتشفع بهم، ففتحت عواطفنا له باب القبول على معذرته، وسترت هفواته بذيل المغفرة لتعلم الملوك الذين يهبون الذهب والفضة، وقد انتظم بلبان منذ ثلاثة أيام في سلك مماليكنا وتقدمنا بأن يرتب في كل قلعة والياً. ولما انقطعت مواد تلك الفتن بانعطاف العنان المبارك، وأي شر لاينطفىء، وأخذ بصدر من ضميرنا الأشرف، وقد أمرنا بإعادة معتمد الملك الكبير شرف الدولة الذي وصل إلى أبوابنا العالية أعلاها الله وشُرّف بتقبيل اليد الكريمة المباركة في صحبته معتمد ديوان الوزارة، أجله الله وأكرمه وهو الأجل الأخص بهاء الدين، نجم الإسلام، عميد خراسان، أعزه الله،ليبلغ هذه البشارة ويعرّف مملوكنا المخلص الكبير الأشرف شرف الدولة والدين شهريار أرمن دام عزه وتأييده أحوال الدولة، ويعلم أنه إذا حصل للرايات المنصورة فراغ من ضبط هذه الحدود ورتب في كل قلعة مملوكاً، يتحرك إلى صوب الأرمن والشام. وعند وصولنا إلى تلك الحدود نجازي الأولياء والأعداء بالواجب وقد أحاطت علومنا الشريفة بما اعتقده جماعة المشركين ومخالفي دولتنا من التعدي على بيته، وأصبح خاطرنا الشريف ملتفتاً إلى نظم أحواله وقد انقضى وقت فراغ معانديه وحاسديه ومضت مدة استيلائهم، وسيجري عليهم من صواعق غضبنا وقهرنا وعواطف سخطنا من اليوم إلى مدة يسيرة مايصيره عِبرَة وتنقطع مدة التعرّضات لمماليكنا المخلصين، فليتصور هذه المعاني ويستظهر بأنواع من اصطناعات وأصناف ترتيبنا وقوّتنا أن يُنير بالأمر العالي أعلاه الله هذا المثال العالي الصاحبي المعظمي الصدري الأعظمي العادلي المؤيدي

المظفري المجاهدي الفخري الذخري اليميني القامعي القاهري المنصفي المنتصفي العُهْدتي العدّتي القوامي النظامي الكهفي الخالصتي، شرف الملك، كريم الأنساب والأطراف، مظهر العدل والإنصاف، ذُو المناقب والمناصب، قدوة صدور العرب والعجم، ملك ملوك وُزَراء الشرق والغرب، دينورا إيران أتوران، أصغر زماك اينانج قتلغ الثُغ ملكاً خواجا جهان لازال عالياً. الثاني عشر من شوال سنة خمس وعشرين وستمائة».

وهذه نسخة كتاب الحاجب علي بن حماد على هذين الكتابين:

«المملوك علي الأشرفي تقدّمت كتبه ومطالعاته غير مرة.

المملوكُ يعرّف أن يوم السبت خامس شوال وصلني كتاب بأن الخوارزمي عاد لكثرة الثلوج بعد أن كان بلغ إلى جبل جور وأخذ غنائم كثيرة».

وفيها: وصل قاصد صاحب ماردين إلى الكمال بن مهاجر يطلب من يصل يحلفه للأشرف، فأجمعوا رأيهم بعد مراسلة الأشرف بذلك على أن اتفق الكمال بن مهاجر والملك الحافظ وعز الدين أيبك وقابيا نائب السلطان الأشرف على محمد بن نظيف الكاتب الحموي كاتب الحافظ ووزيره والأمير شمس الدين خاص بك التكريتي يحضر اليمين، فحلفه ولم يطلب شيئاً مما كان بذله الأشرف له وقال:«الآن رأيت فعل هذا من تلقاء نفسي، فما أريد جزاء عليه».

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

والأشرف عند السلطان الكامل قبالة الامبرطور.وغلت الأسعار في الساحل ودمشق.

وفيها: تفرّقت عساكر النجد من خلاط إلى أصحابها بوقوع الثلوج.

وفيها : وقعت الأخبار بوقعة الرومي مع الأشكري وأنه استظهر على الرومي وقفز من الرومي جماعة إليه مثل ابن أخت ماتريدون، وقبض الرومي على شخص يقال له قَزَل.

وفيها: وصل المظفر غازي إلى دمشق كأنه في حجة الغزاة،واجتمع بإخوانه وعاد غير طيب. وكان السلطان الملك المجاهد صاحب حمص وأولاده عندهم وكذلك عسكر حلب وحماة.

وفيها:قفز أيدَمُر المُعظمي من عند ابن أستاذه الناصر إلى الكامل.

وفيها: استدعى الرومي المجد البَهْنسي فسار إليه بغير كتاب إلى الأشرف.

وفيها:وصل رسول أرزن الروم وهو حسام الدين بهدية إلى الأشرف ويعتذر عن ميله وحلفه للرومي.

وفيها: عاد الناصر قلج صاحب حماة من قصده خدمة السلطان الكامل مظهراً أنه قد مرض.

وكان الحاج في سنة خمس وعشرين قد انقطع من العربان وعاد أكثر الناس على الشام فوجدوا شدة من العطش على طريق أيلة ومات عدة جمال، وكان في جملة الحاج زوجة الخوارزمي التي كانت في قلعة قطور(٤٦)،وهي بنت البهْلَوان وقد كانت زوجة أزبك صاحب توريز، وأنفقت أموالاً كثيرة ومعروفاً، حجت على العراق وعادت على الشام، وكانت كبيرة السن وتوجهت أقامت عند الخليفة ببغداد وعليها منه الراتب.

وفيها: وقع الصلح بين السلطان الكامل والامبرطور على القدس، وتهادنوا وتأكدت بينهم صداقة، والذي تولى الحديث في الصلح فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وقاضي العسكر المصري، والصلاح الإربلي ومن عند السلطان الملك المجاهد الأمير صفي الدين سودان بن ابراهيم بن سودان المعروف، وكان قد طلب من يعرف علم الهيئة فسيّر إليه العلم قيصر المعروف بالحنفي المشتهر بتعاسيف، وهو أفضل المتأخرين في هذا العلم.

ثم جرى بعد ذلك من محاصرة دمشق ماجرى إلى أن وقع الصلح ومقايضة الملك الأشرف بالجزيرة للسلطان الكامل على دمشق وبعلبك وانتقال الملك الناصر صاحب دمشق إلى الكرك مابيناه وشرحناه مستوفى في تاريخنا الكبير، وأن أيبك أستاذ دار المعظم يعطى الكرك وأن الملك العزيز وأيبك يكونان في خدمة السلطان الكامل خارجاً عن تبعية دمشق وكذلك الملك الناصر.

وفيها: سيّر الكامل شمس الدين صواب الخادم وفخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الجزيرة يتسلمانها من الملك الحافظ ومن بدر الدين قابيا فوصلا وتسلماها، وخاف علي بن جرير الرقي على نفسه من قبضه فسار مع العرب في البرية وكان إذ ذاك متولي الرقة وقد كتب خطه بارتفاعها بزيادة كثيرة إلى غاية لم تكن، فخاف عند تحقيقها على نفسه، فهرب واتصل بالسلطان الأشرف بدمشق.

وفيها: وصل كتاب الحاجب علي بن حماد يخبر أن خواجا جهان وبُغدي في خوي والخوارزمي بنفسه في كرميان وإن لم يلحق الأشرف البلاد وإلا فهي غير مأمونة البقاء.

وفيها: وصل الجمال الكاتب المعروف بابن أبي دبوقة إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة في تسكين العالم عقيب الصلح على القدس.

وفيها: وصل كتاب الحاجب علي يخبر أن الخوارزمي قصد بلاد الكرج لاختلافهم ونزل على قلعة لهم يحاصرها يقال لها كاك، بقي يحاصرها مدة ثم رحل عنها عجزاً، بعد أن كان قد خرب من سورها مقدار قامتين. ووصل كتاب صاحب سُرّ ماري إلى قاضي خلاط يخبر أن الخوارزمي رحل عن قلعة كاك. ووصل كتاب الأشرف بالاستخدام، ونزل صاحب ماردين إلى حرزم يستخدم.

وفيها: في آخر جمادى الأولى عاد الامبرطور إلى بلاده.

وفيها:وردت الأخبار بعود الرومي إلى ملطية ووصلت غوّارته إلى جسر العادل، فنهبوا وخرّبوا ودخل بعضهم على الجسر ووقع بعضهم. فجمع الحافظ العربان وأيبك وقصدوهم فما لبثوا وأمر الأشرف مملوكه أيبك بالنزول إلى خلاط وَحثه على ذلك، وكان مريضاً فقبل أمره ونزل إليها فلما وصلها بعد يومين أو ثلاثة وصل كتابه بوصوله، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة وصل كتابه بالقبض على الحاجب علي وذلك أنه قال:«ماوجدت في القلاع ذخيرة ولا غيرها، ولما قلت للحاجب عن هذا اعتذر عذراً غير سائغ فقبضت عليه»، ثم بعد أيام وصل كتاب مجير الدين يخبر أن الحاجب علي مات بالإسهال،وكان الأمر غير ذلك وقد ذكرنا ذلك في تاريخنا الكبير. وبلغ الأشرف هذا فقبض على أخيه عثمان وأخذجميع ماله وبقي في الاعتقال مدة ثم أطلقه وأحسن إليه وكان وصل الجمال الكاتب ومعه أيبك التغلبي ولاّه قلعة خلاط وعزلوا الزكي العجمي من ولايتها.

وفيها: نقلوا بيت الأشرف، زوجته بنت الملك العزيز ابن عمه إلى سنجار ونقلوا زوجته بنت أتابك الموصل إلى دمشق.

وفيها: وصل الملك المظفر بن المنصور إلى حماة يحاصرها بعساكر الكامل وبأمره والسلطان الملك المجاهد صاحب حمص، ونقل إليه من عنده جميع آلة الحصار مثل مجانيق وغيرها والرجالة، وكان الناصر صاحبها قد تحصن غاية التحصين، ووصل السلطان الكامل إلى سلمية بعد ذلك، وكان المتولي لحصار حماة فخر الدين عثمان أستاذ الدارالكاملية والملك المجاهد والملك العزيز وأقاموا المجانيق على الباب الغربي وهدّموا بعضه، وتحدث الناصر بما يحمله إلى السلطان الكامل مصانعة ثم عاد عن ذلك، ونزل بنفسه إلى السلطان الكامل إلى سلمية مستسلماً جريدة تلقاه، ثم وكل عليه وسير علامة بتسليم حماة فما قبلوا منه، فراسل المظفر من بحماة وهو بشير الخادم ومن كان معه وتقرر الحلف بينهم على ثلاثمائة ألف دينار تحمل للناصر وجميع ماله من خيل وعدة ورخت[٤٧] وزيت وصابون وغير ذلك، فلما وقع الصلح والأيمان، وأدخلوا المظفر إلى حماة، وكان قد نقل بعض قماش الناصر وأنزل به من القلعة، فلما طلع المظفر ليلة عيد رمضان عاد عن ذلك جميعه وحمل للناصر بالتوكيل إلى الرها، بقي فيهامدة، ثم لما تقرر حال حماة وصل منشور السلطان الكامل بها للمظفر.

وفيها:وصل الحافظ بأولاده إلى سلمية إلى الكامل، فتلقاه وأحسن في حقه وتوجه إلى الجزيرة فعبر من قلعة جعبر فحمل إليه مفاتيحها على يد أصغر أولاده فقبلها، ثم أعادها إليه وأعطاه ألف دينار، وجرى في هذا وغيره مالايليق ذكره هاهنا لما شرطناه من الاختصار.

ولما وصل الكامل إلى الرّقة بقي يوميات ثم سار إلى حرّان أقام بها، ووردت عليه الرسل من الأطراف جميعها ففيهم من قبل منهم وفيهم من لاقبله. ووصل إليه الملك المعظم صاحب الجزيرة فتلقاه وبالغ في إكرامه واحترامه، وأعطاه عطاء كثيراً فيه في جملته عشرة آلاف دينار مصرية خارجاً عن قماش وخيول وغيرها. ثم عاد بعد مدة إلى بلاده،

ووصل أيضاً المظفر صاحب حماة فأحسن تلقيه، وكتب مهر ابنته عليه وكان صداقاً مشهوداً.

وفيها: وصل رسول صاحب إربل يشير بأن يسيّر السلطان الكامل رسولاً إلى الخليفة في نعي البيت المقدس والعذر عنه، فقال الملك الكامل:«نحن مماليك هذا البيت المقدّس وآباؤنا وخدماتنا له معروفة مانُرائي ولانماذق» ثم بعد ذلك جهز فخر الدين ابن شيخ الشيوخ رسولاً إلى الخليفة.

وفيها: وصل كتاب من خلاط يخبر بأن الخوارزمي قد أحاط بها وضايقها من كل مكان، ووقع بينهم القتال وربحوا الخوارزمي مازالت كتبه تصل تارة بقوة الخوارزمي، وتارة بقوتهم عليه، وطالت مدته وأكلوا جميع ما في خلاط، وعدم كل شيء عندهم، وأكلوا لحم الكلاب والحمير والبغال وغيرها والخطمي والأشراش وجلود اللوالك، ينقعونها ويأكلونها، وانصب عليهم عدة مجانيق وخرّب السور وبنوا بطانة له، وصبر أهل خلاط وصابروا وكان الخوارزمي عزم على المسير عنها فقفز مملوك للزكي ابن العجمي الذي كان بها والياً إلى الخوارزمي وعرّفه ضعف البلد، وأنه مابقي فيه خمسون فرساً، فعاد عن رحيله وشد القتال، وتوهموا في الزكي أنه سيّر مملوكه قاصداً فأعدموه نفسه أيضاً، ثم وصل رسول الخليفة إلى الخوارزمي وسأله الرحيل عنها وتقرير الصلح فما وافق عليها. وقال:«هؤلاء قد فنيت رجالي عليهم وأموالي عليهم وماكفى هذا حتى يشتموني أقبح شتيمة،لأصابرنّها حتى آخذها عنوة». ثم حفر له السرابات وقطع الأشجار وعملوها بيوتاً، وصارت دوابهم تأكل الأشجار ولم يزل كذلك إلى أن أخذها وقيل بعَمْلَةٍ من ابن محسن دَلْدَرُمُ ورفيقه، وكان قدوصل إليه صاحب سرّ مَارَي المقدم ذكره، فأعطاه أرجيش وألأل[٤٨] .وكان وصله صاحب أرزن الروم وهو حمل إليه جميع المجانيق وغيرها، وكان الرومي قدسيّر إليه هدية عظيمة من جملتها خمسمائة فرس

وعشرون مملوكاً كبارا بعدتهم وعدة خيولهم خارجاً عن تلك الأفراس، وكان غرضه، كما قال، الصلح بينهم. فقال لرسوله:«رسولي يصل إلى الرومي» ،فعاد بهذا القول، ثم بعد ذلك سير الخوارزمي رسوله إلى الرومي بمائة وعشرين فرساً ، فأحضره الرومي وماقام له ولاتلقاه أحد من عنده، بقي أياماً ، فلما كان وقت وداعه ماقام له وأعطاه يده باسها وكلمه منه إليه، وعادة الرومي أن لايكلم أحداً ، وقال له:«إذاأنكر صاحبك هذا التلقي لك وقلّة الاهتمام فقل:إن هذه عادة أبي مع أبيك وجدّي مع جدّك» وودّعه.

وأما عز الدين أيبك ومجير الدين بن العادل والأمجد تقي الدين عباس وجماعة فطلعوا إلى القلعة، وبعد ذلك صعد حسام الدين القيمري، بقوا يوميات، ففرغ ماعندهم. وأما الخوارزمي فإنه وَفَى لأهل خلاط ،وقتل من قتل ونهب من نهب، ثم أفكر في القلعة والعجز وأنه يأخذهم عنوة، فوقع رأيهم على أن يستأمنوا، فأمنّهم الخوارزمي، وأول من نزل إليه تقي الدين عباس، فأكرمه وأطلق أنفسهم من القتل، وحاسن أيبك بحيث لعب معه بالأكرة، وشرب معه. وهذا كله خديعة لعله يحصل على تسليم باقي القلاع، وقال له:«تسير تسلم إليّ ملازجرد» فسير إلى من فيها، فما التفتوا إليه، وكان فيها بهاء الدين صاحب السويداء، وفتح الدين بن دَلْدُرم الياروقي، وعدة مماليك. وقالوا:«ومن أيبك وغيره هو مملوك مثلنا، ومهما وصلنا خط صاحبنا عملنا به».

وفيها: ظهر وطلب خوابي في ملطيّة عدتها سبع خوابي في سرداب.

وفيها: توجه فخر الدين عثمان إلى بعلبك ليأخذها بمن معه من العساكر التي كانت تحاصر حماة، بعد رحيلهم عن حماة.

وفيها: وقع برد وصواعق، فنسفت برد كبار بمنبج، وآذت جماعة، وذلك في أيلول.

وفيها: خطب صاحب ماردين للكامل، وعاد عن البرومي وضرب السكة باسمه.

وفيها: كان الكامل قد توجه إلى الرّها، وعاد منها بعد نظرة في أحوال قلعتها وأمر بعمارة جدّدها فيها.

وفيها: عاد العزيز من بعلبك وتولى حصارها أخوه الصالح إسماعيل.

وفيها: في ذي الحجة غارت الفرنج على بارين، وأخذوا جملة من مواشٍ ورجال ونساء وغير ذلك وست قرايا بجميع من كان فيها، ولم يكن الملك المجاهد بحمص، وكان بتدمر هو وأولاده، فلما سمع هذا عاد غائراً من طريقه، وسيّر عرّف السلطان الكامل فشق ذلك عليه.

وفيها: أمر الأشرف بعمارة قلعة زلبيا بعد أخذها من الحافظ.

وفيها: كان قد جهَّز الكامل الناصر وأطلقه من حبس الرُّها، وقال له:«بارين لك تروح إليها» فلما وصل قنسرين وجد أخاه المظفر قد توجه إليها من حماة يحاصرها، فأقام موضعه، وسير عرّف الكامل، فأنكر ذلك، ثم بعد ذلك سار إليها ودخلها.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

والسلطان الكامل بالجزيرة، والخوارزمي بخلاط، والأشرف على بعلبك يحاصرها.

وفيها: وصل بحرّان رسول الامبرطور إلى الكامل، وعلى يده كتب إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ بما نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوانه ترجمته: قيصر المعظم امبرطور رومية فردريك بن الامبراطور هنريك بن الامبرطور فردريك المنصور بالله المقتدر بقدرته، المستعلي بعزته، مالك ألمانية ولمبردية وتسقانة وإيطالية وانكبيرده وقلورية وصقلية، ومملكة الشام القدسية، معز إمام رومية، الناصر للملة المسيحية.

بسم الله الرحمن الرحيم.شعر:

رَحَلْنَا وَخَلَّفْنَا القُلُوبَ مُقِيمَةً
تَخَلَّتْ عَنِ الأجسَامِ والجِنْسِ والنَوعِ
وآلَتْ عَلَى أنْ لا تُخِلَّ بِوُدِّكُمْ
مَدَى الدَّهْرِ وانْسَلَّتْ تُنَكِّبُ عَنْ طَوْعِي

لو ذهبنا إلى وصف ما نجده من عظم الشوق، ونكابده من أليم الاستيحاش والتوق، إلى المجلس السامي الفخري أدام الله أيامه، وسرمد أعوامه،وثبت في الرياسة أقدامه، وحرس مودته وإكرامه، وأجرى على سبيل النجاح مرامه، وسدد عهده وكلامه، وأجزل من النعم أقسامه، وجدد مع الجديدين سلامه،للزمنا في الخطاب شططا، وحِدنا عن الصواب غلطا، إذ منينا بروعة استيحاش؛ بعد سكون وإيناس،ولوعة فراق، في إثر غبطة واشتياق، فرأينا السلو ممتنعاً، وحبل التجلد منقطعاً، ومأمول التماسك قد عاد، وشمل الاصطبار مُنصدعا:

وَقَدْ كُنْتُ لَوْ خُيِّرْتُ بَيْنَ فِرَاقِكُمْ
وَبَيْنَ حِمَامِي قُلْتُ يُدْرِكُني نَحْبِي

وتخاله، أكرمه الله، ملّنا، واعتاض بغيرنا، واختار فراقنا، وتناسى ودادنا، فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب:

إذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا
ألاّ تُفَارِقَهمُ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ(٤٩)

وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا، نشعره حسبما شرحناه له بصيدا أن البابا—باء بالغدر والخديعة— أخذ إحدى قلاعنا المنيعة تسمى منت قسين، أسلمها له أبّاطها اللعين، وعند ذلك رام المزيد، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لرجوعنا السعيد، فاضطر إلى أن زعم أننا متنا، وحلف القردنالية على ذلك وعلى أن رجوعنا مستحيل، وراموا خداع العامة بمثل هذه الأباطيل، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن حراسة بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا، فلإيمان هؤلاء الذين هم أئمة الدين وخلفاء الحواريين، انخدعت جماعة من الطغام والمفسدين، فعند وصولنا إلى ميناء برنديس المصونة، ألفينا الملك جُوَان واللمبرديين في الدخول في ملكنا معاندين، وقع خبر ورودنا متشككين ، لما قرره القردنالية عندهم باليمين، وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين. داخل أعداءنا الجزع، وحل به الروع والفزع ونكصوا إلى ورائهم خاسرين مسافة يومين ، وارتد أهل طاعتنا إلينا طائعين، وكذلك اللمبرديين الذين كانوا معظم عسكرهم لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أدبارهم أجمعين، وأمل الملك المذكور وأصحابه، فأحاط بهم الحياء والخوف، واجتمعوا إلى موضع ضيق يخافون الانصراف عنه، والخروج منه، بل لايقدرون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قد عادت لنا وإلى طاعتنا: ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكراً مديداً من الألمانية الذين كانوا معنا في الشام، والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح إلى بلادنا وغيرهم من أمنائنا ورؤساء دولتنا، واستعددنا نجدّ السير إلى بلاد أعدائنا.

وبعد فمّما نؤثر من المجلس مواصلة كُتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته، وأن يقري سلامنا على جميع أكابر العسكر وغلمانه ومملوكيه ودخلته، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. كتب ببرلتّ المصونة بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسّو للأندقتنس الثاني».

وهذه نسخة الكتاب الثاني. الترجمة كالأول:«فيه من الأخبار بما نشعره به. أنا قد جمعنا عسكراً كثيراً، وأنا نجدّ السير إلى قتال من هم بانتظارنا، ولم يهرب أمام وجهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا، وذلك أنهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنا ونصبوا عليها المنجنيقات وماشابهها من الدبابات والآلات، فلما أحسوا بإقبالنا مع بعد المسافة بينهم وبيننا، لم يتمهلوا إلي، بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم، وانهزموا هاربين أمامنا، ونحن نجدّ السير في طلبهم وتفريق شملهم، وتبديد جمعهم، وطلب البابا حيثما وجدناه، وردّه خاسئاً على قفاه، نادماً على مانواه، ومانجده من الأخبار فنحن نكاتب المجلس إن شاء الله».

الغرض من إثبات هذه الكتب تحقيق ممالك هذا الملك الأمبرطور وقدرته، فما ملك من النصرانية مثله من زمن الإسكندر وإلى الآن، لاسيما قدرته وإهماله لخليفتهم البابا وقصده له واطّراحه إيّاه.

وفيها: وصل إلى الكامل بحرّان شخص يقال له أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرّمان من جزيرة صقلية، من أهل مشايخ غلو من جبال صقلية، وهي غير ماهو على رأس صقلية مُطل على البحر، والجزيرة كلها بيد الامبرطور، إلا هذه الجبال التي فيها القلاع الخارجة عنه التي فيها هذا الرجل المذكور، وهن غلو، وجنش، وجاطو، وأنطلة، وغلو خراب وأهلها في الجبل، والباقي عامرة.

وسبب وصوله أن الامبراطور غدر بأصحاب الجبال هناك،وعدّتها أحد عشر جبلاً ، فيها هذه الحصون المذكورة، وذكر هذا الحاج المذكور أن الامبرطور من جملة من أخذهم إلى البر الكبير، وأخرجهم من أوطانهم، وأخذ أموالهم ، مائة ألف وسبعون ألفاً، وقتل من الشطار مثلهم، وخلت هذه الجبال. والذي يطلب من السلطان الكامل ردهم

إلى أوطانهم، فان كان الامبر طور لايفعل، فيمكنا من الخروج إلى ديار مصر ولايؤذي أحداً».

فكتب له السّلطان الكامل كتاباً إلى الامبر طور بذلك وسار عائداً من حران.

وفيها: حلف الكامل للعزيز صاحب حلب دون أتابكه، وسيّر التاج ابن الصفي بن شكر إلى حلب حلّف العزيز له.

وفيها: كان سيّر السلطان الكامل القاضي الأشرف بن القاضي الفاضل رسولاً إلى الخليفة، وعاد إلى الرقة أقام. وسيّر فخر الدين عثمان يحث الأشرف على وصوله إلى الجزيرة.

وفيها: سيّر الرومي يخبر السلطان الكامل أنه قد سيّر خمسةعشر ألف فارس إلى أرزنجان وعشرة آلاف إلى ملطية، وأنه حيث يأمره الكامل، فطاب قلب الكامل بذلك، وكان الرومي قد سيّر حلّف الكامل وحلّفه الكامل بالشهاب أحمد والجمال الفقيه الإسكندري مدرس الشافعي رحمه الله بمصر.

ووصل الخبر بأن رسول الخليفة واصل مع ابن الفاضل،فرتبوا له إقامة من رأس عين الخابور،وأخلوا دار أتابك في الرقة فنزل بها.

وفيها: في العشر الأخير من ربيع الآخر تسلم الأشرف بعلبك وعوض صاحبها بخبز وداره بدمشق، واستخدم أولاده.

وفي الشهر المذكور وصل الأشرف إلى السلطان الكامل بالرقة.

وفيها: وصل مانع وغنّام وبذلوا من أنفسهم ورجالهم الخدمة للكامل.

وفيها أورد الكمال كيميار رسالة الرومي التي كان سيرها إلى الخوارزمي، بمحضر من الملوك الكامل والأشرف والحافظ وغيره ورسول الخليفة محيي الدين بن الجوزي وماقاله له. وهي أنه قال له:«المولى من بيت كبير ومازلتم ماشين الحال إلى أن غيّر والدك نيته، وخبط على نفسه، فآل به الحال إلى ماآل، والآن فقد فضلت هؤلاء بيت أيوب. وتجنيت عليهم، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصل من سنين، ولهم الإحسان الى الجند والرعايا والمجاورين، ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد والقوة؛ وأنت فلا أموال ولا رجال ولا قوة، وبلادك خربة، ونحن نعرف حالك أكثر منك، ولاتظن أني عدوهم، لاوالله، بل صديقهم ونسيبهم بمابيننا من الأهلية والمصاهرة واختلاط الدم، ولعمي معز الدين منهم الأولاد، ولي منهم الأولاد، ولاشك جرى بيننا قضية عاتبتهم عليها وعدنا إلى ماكنا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحك، فتصالحهم وتعتد بهم أصدقاء ، فنحن نعرف ماوراءك من الأعداء، يعينونك على عدوك، ويقع الاتفاق وشأنك وشأن الكرج وغيرهم، وهذا نصحي لك، فلا تغتر بمن يكاتبك ويحلف لك فكله زور وتدفيع للأوقات، وقد والله قلت جميع مايلزمني عقلاً وشرعاً. فكان الجوا ب أن قال لرسولي: عد إلى صاحبك والجواب يصل مع قاصدي».

وفيها: وصل خادم من حلب إلى الكامل يخبر أن العزيز جاءه ولد ليلة الاثنين العاشرجمادى الأولى من سبع وعشرين وستمائة.

ولما ملك الخوارزمي خلاط كانت رسل الديوان عند الكامل بالرقة، وصارت الرسل تتردد بينهم وبين السلطان الكامل، وحلف الكامل للخليفة في الرقة بمحضر من السلاطين وباقي الجماعة وحضور بهاء الدين مروان بن قابيا رسول السلطان الملك المجاهد، وخلع عليهم وعادوا إلى بغداد، وسيروا في الماء من الرقة إلى بغداد شَبَّارة، معرفة بما جرى قبل وصولهم بأنفسهم.

وفيها: مات الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر رحمه الله،كان كريماً جواداً شجاعاً، هو أول من سنّ القندس العريض الجامكية وجراية الخبز واللحم وحوائج طعام وغير ذلك، من بني أيوب، دُفن بحرّان.

وعند تمليك الخوارزمي خلاط سيّر هدية للخليفة أرمغانا ابن العادل تقي الدين عباس في قيوده إلى العراق، فلما وصل بغداد أزيل ذلك عنه وأكرمه الخليفة، وبقي عنده إلى أن كُسر الخوارزمي ووصل الكمال بن المهاجررسولاً من الأشرف، فسيره الخليفة صحبته وأعطاه عطاء عظيماً، وأمّره، وأعطاه جميع مايحتاج إليه مثله، وفي جملة الحوائج الحطب والكُزبرة والبصل وغيرها، وعاد مع الكمال بن مهاجر إلى أرجيش بعد كسرة الخوارزمي.

وفيها: قويت حركة الكامل إلى الديار المصرية، وتحدث بذلك بمحضر من رسل الديوان، فما أعجب الأشرف هذا ولا الجماعة، فقال:«لابد لي من هذا وأعود سريعاً بالخزائن والرجال، ولابد لي من فتح العجم». فما قدر أحد على منعه من قصده. وكان وصل إليه خبر موت ولده أقسيس صاحب اليمن، وهو بحرّان، فما أشاعه وكتمة، ولاخاطبه أحد بعزائه. وقد كان فيها شخص يقال له ابن رسول من أصحابه تقدم عند الملك المسعود أقسيس وعظم، فلما مات حفظ اليمن، وقيل له في تسليمه إلى من يعيِّنه الكامل فأبى وقال:«لاأفعل لأنني محلف لابن أستاذي بأن الأموال يصل من يتسلمها،ويسير ديواناً لذلك، ماعدا ولاية القلاع، فلا أمكن منها لأنها لابن أستاذي».

وقرّر[الكامل] مع الأشرف مايفعل مع الخوارزمي من الاتفاق مع الرومي ثم توجه.

وفيها: بعد مسير الكامل وصل حسام الدين القيمري زوج أخت

الأشرف هارباً من خلاط إلى الرقة، وحكى عن ضعف الخوارزمي وقلة من معه وأنهم غير عاجزين عنه، فسيره إلى الكامل في بعض طريقه بدمشق فعرّفه ثم عاد.

وفيها: وصلت كتب أيبك بتشديد الخوارزمي وفي عزمه خنقهم بعد هربة القيمري لحنقه و«أن الخوارزمي توجه من خلاط ونحن صحبته إلى بلاد ملازجرد».

وفيها: وصل إلى الأشرف بعد مضي الكامل الغرس خليل، والزكي بن السكري الحموي رسلاً من السلطان الملك المجاهد يخبرانه خبر الصلح مع الفرنج وصحبتهما سيمون رسول بيت الاسبتار.

وفيها: توجه ابن كريم الدين الخلاطي إلى الرومي وحلفه له وعاد من عنده وصحبته الكمال كيميار من الرومي، مضمون رسالته أنه قال:«مخدومي السلطان علاء الدين كيقباذ يخدم المولى، ويقول له: محبتي ومودتي وصداقتي ماتغيرت بل زادت، وإنما لعن الله من كان السبب، ولايحسب المولى أنني[ما] ذكرته في نجد السلطان الكامل إلا لتأكيد مودة وغرض أبلغه. والآن فبلادي وأموالي بحكمك، فتصل قولاً واحداً بالعساكر إلى قُرْشِهر، وتنجرد وحدك وتصل إلى عندي بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك،ونصل أنا وأنت إلى العسكربالعساكر، فوالله لاقنعت لك بخلاط، بل بجميع البلاد».

ثم عاد وصل كتابه إلى كيميار يقول له:« لاتجيب الأشرف إلا إلى سيواس حتى لايتعب ويبقى العسكر في قر شهر». ومعه نسخة يمين فإن لم يصل الأشرف بنفسه قبل عساكره. قال الأشرف:«ماأحلف بهذا اليمين، بل أنا أصل بنفسي جريدة إلى خدمته».

وفي شعبان من السنة توجه الأشرف إلى الرومي جريدة وصحبته

كيميار، فوصل إليه بسيواس، فتلقاه وسرّ به، وتبعته العساكر الشامية، فلما وصلوا خرجوا إليهم إلى الملّوحة (٥٠) ، وتلقوهم فأنزلهم مواضعهم، وحمل لهم من الإقامات والتقادم النفقة مالاً عظيماً في مرتين، عند وصولهم إلى سيواس وبعد كسرة الخوارزمي بأرزن الروم بحيث حمل إلى الأشرف أربعمائة ألف درهم سلطانية وعشرين ألف مكوك غلة وعشرة آلاف رأس غنم، ولإخوته على طبقاتهم ماينا هز مائة ألف درهم لكل واحد، وعدة خيول وبقج من أثواب ومراكيب وغيرها، وكان ذلك عظيماً، وأقاموا عنده بسيواس سبعة أيام.

وفيها: وصل الخبر بوصول السلطان الملك المجاهد من حمص، وأسرّ الأشرف بذلك، وعاد وصل الخبر بعوده بسبب أشياء جرت فعاد من بلد حلب، وأن ولده السلطان الملك المنصور إبراهيم ولي عهده واصل بعسكره، وأحضر الرومي زوجته ابنة العادل من قيسارية إلى سيواس، أبصرت إخوتها، وقدموا لها وقدمت لهم أشياء، ولعبوا معه بالأكرة غير مرة، وبالغ الأشرف في خدمة الرومي، بحيث أنه كان يبوس له الأرض فما يخدمه الرومي على ذلك، وتعاظم عنهم الرومي تعاظماً زائداً بحماقة، ثم سمعوا بحركة الخوارزمي إلى أرزن الروم، وأن الخوارزمي كان مريضاً، وأبلّ من مرضه، حتى إنه لولا مرضه كان سبق إلى البلاد الرومية وحصل على غرض منها، وهذا كان من لطف الله، فتجهز الرومي والأشرف وساقوا إلى لقائه، وسير صاحب الروم إلى عسكره بأرزنجان يستدعيه، ولم يعرف الأشرف بذلك، وكان قد وصل من أخبر أن الخوارزمي قد وصل، فنزل في مرج يقال له ياصجمن، وسار الرومي طالبه، فلما قارب ذلك المرج وبلغ الخوارزمي وصول عسكر أرزنجان إلى صاحبهم، جرّد سبعمائة فارس، التقتهم فقتلوا منهم عالماً ماينا هز ثلاثة آلاف فارس، ونهبوا وأسروا خلقاً، وبقي الغبار طالعاً، وفي الأخير عُلم ماالسبب. فشق على الأشرف ذلك وقال:«ليت كان المولى عرّفنا بطلبهم، كنا لقيناهم». وخجل الرومي. وفي ذلك اليوم كان وصول السلطان الملك

المنصور ناصر الدين ابراهيم بـن السلطان الملك المجاهد بعسكره، فتلقاه الأشرف والملوك، وسُرَّ بـه سروراً كاملاً، وفي صبيحـة تلك [الليلـة] ركب العساكر وأشرفوا عليهم من رأس ذلـك المرج، وطاردتهم العربان، وأخذوا منهـم عدة خيـول وقتلوا جماعـة، وذلك في ثـامن وعشريـن رمضان، ثـم ساقت العساكـر وطلبوا العقبة المطلة على منزلة الخوارزمـي، ورتبوا الميمنة والميسرة، والـرومي هـو الدُّبَنْـدَار (٥١)، وله الميمنـة والميسرة، والأشرف في القلب، ولـه الأجنحة وغيرهـا كما جرت عـادة تعبئة العسكـر، وكان مـع الرومـي من الخلائق ماطبق الأرض ومـلأها من التركمان والأرمن والفـرنج والمسلمين وغيرهم مـن الشاميين، فكـان من جملـة أجنحة الـرومي أرتـق شـاه ابن صـاحب خـرتبرت، ومـن أجنحة الأشرف الملـك المنصور ابـن الملك المجاهد صاحب حمص. وكـان يوم الجمعة. وألبـس الخوارزمي في قتالهم ورتب جماعاتـه، فلم يزالوا كذلك كل في قبالـة صاحبه إلى الليل، وكان الخوارزمـي قد أخفـى أصحابـه في الأودية نكـداً منه، وطلـع بنفسه على الجبل، وطمـع الأشرف وساق وملك عليهـم أكثر منزلتهـم. فلما كان الليل عـادْ الأشرف والرومي إلى منازلهم، ورتبـوا اليزكية كما جـرت العادة، ثم قوي عزم الخوارزمي على كبسة العسكر، وقفـز إليه جماعة قالوا له:« ان الرومي والأشرف قـد خافاك وتأخرا عـن ذلك التل». فقوي عـزمه أيضاً، ثم عاد أفكـر، فما قويت نفسه على الكبسة. فلما كان صبيحـة تلك الليلة تعبأ الخوارزمـي والأشرف والرومي وكـان في قلب الشاميين عسكـر حلب وعسكر الجزيرة:صواب، وبعدهم المظفـر غازي، والملك العزيز، والأشرف والرومي بعدهـم. فوقع الجاليـش، فظهر أصحاب الخوارزمي وشالوا ميسرة الـرومـي ثـم عـادوا على الخوارزميين ثم عـاد الخوارزميـون ثـانيـاً فكسروا الـرومـي، فـأردف الأشرف الميسرة بـأخيـه الحافـظ والـرومـي بصـاحـب خـرتبرت، ووقعت الـواقعة، وعمـل الملك المنصـور ابن الملـك المجاهـد ذلك اليـوم عملاً عظيماً، هو وأصحابـه،وفقد جماعة منهم دون بـاقي جمع السلاطين، وذلك لنشبه بما كان فيه مـن دون غيره، فلما عاين من مباشرته

الخوارزمي كثرة العساكر وقوتها وشدتها أيقن بالغلبة، فأومأ بيده يمنة ويسرة وقلباً، وساق منهزماً بجماعة يسيرة، من جملتهم قلج الخادم الذي كان يحبه ، ورُمي جماعة من أصحاب الخوارزمي، منهم صاحب ألْتي وغيره من الخانات وصاحب أرزن الروم وأخوه وصهره، وأحضرهم إلى الرومي، وتفرق الخوارزميون في الجبال والأودية والشعاب، وبلغوا إلى درابزون، وفي ذلك الوادي شقيف وقع فيه ماينا هز ألفاً وخمسمائة رجل وأبغال بأحمالها وجمال، وصار الناس يطلعون منه الأجمال والأبغال بأحمالها، وفيها الجواهر والكساوي والذهب والأطلس وغيره، وكأن معظمه كان خزانة للخوارزمي أو لأصحابه من خواصه. وبقي في الطريق من العدد والآلات والأقمشة مالايوصف. وكب الناس ومسك العربان جمدارية الخوارزمي ومعهم أثوابه وتلاكشه (٥٢) جميعها مطرزة.وأما الخوارزمي بنفسه، فإنه في يوم وليلة بلغت هزيمته إلى خمربرت بات بها ليلة. ودخل الحمام هو وقلج الخادم، وسار إلى خلاط واجتمع بخواجا جهان وزيره وعرفه صورة الكسرة، وكان خواجاجهان يحاصر ملازجرد، وقد أشرف على فتحها فسار عنها وترك طعامه في القدور. وحمل الخوارزمي بقية أثقاله وبيته وتوجه إلى العجم. وكان علم الدين سنجر الألفي الأشرفي مقيماً ببدليس، فضرب على الأمير اختيار الدين قبض عليه لأنه ماكان بلغه كسرة الخوارزمي، ولو كان مع تقدير الله تسوق العساكر خلف الخوارزمي ماكان يسلم، بل ظنوا أن له عدة أمكنة، لأنه انكسر من غير قتال. فقالوا:«هذه خديعة مانثق بكسرته».

ثم عيَّد الناس عيد الفطر، وخلع الرومي على الأشرف وعلى باقي الجماعة، وساقوا إلى أرزن الروم، وكل الجماعة قلعوا خلعة الرومي إلا الأشرف لبسها عدة أيام، وقد جافت الأودية والجبال من رمم الموتى وأركب الرومي صاحب أرزن الروم وأخاه وصهره على أبغال تبن بفردات التبن بالقيود، وساقوا بهم، فسبحان مالك الملك، وكذلك من كبسوه من جماعة الخوارزمي، منهم مشاة وركبان والتواكيل عليهم، وكان قد وصل

رسول آمِد مكاسرة ويطلب أن يُحلف له. فقيل له: « تخدم صاحبك وتهنّيه بهذه الكسرة التي تعزّ عليه» فكتبت الكتب إلى الكامل والخليفة وجميع الأطراف، ووصلوا إلى أرزن الروم، ونزلوا عليها، وأحاط بها العسكر، وشرعوا في قتالها، وأظهروا العصيان والممانعة أول يوم، وقوتلوا من جماعة بعض قتال، ثم سيّروا سراً إلى الأشرف فقال لهم:«أنا أدخل في الكفّ عنكم ورفع الأذى من السلطان عنكم». وأرسلوا الرومي باطناً، ودخل إليها بكرة هو والأشرف، وإخوته، والملك المنصور صاحب حمص، إلى قصرها وذلك يوم الثلاثاء، ووقع العوض عنها، وحلف له الرومي بالسلامة على نفسه—أعني لصاحب أرزن الروم— وأخذ زوجته أخت صاحبها، وكان قد منعه منها، وأقاموا يوميات هو والأشرف في أكل وشرب ولذةووداع وتقرير ممالك، وأجرد الرومي مع الأشرف من عسكره خمسة آلاف فارس قدّم عليهم نجم الدين الجاشنكير، وودّعه، وسار الأشرف، وقد أعطاه جميع العَجل التي كان عليها الزردخاناه بإيفادها ذخيرة لخلاط، وعرض القلاع التي كانت الكرج أخذتها من خلاط، وهي جملة، فما أخذ إلا قلعة أُلتي لاغير، وهي أجودها، ثم سار ووصل إلى خمربرت فعرّفه أهلها بوصول الخوارزمي وأن قلج كان مريضاً ودخل هو وهو الحمام، ثم سار إلى ملازجرد فتلقاه من كان بها من أهلها وعسكره، وسيّر إلى خلاط رتبها ورتب والياً وديواناً الشهاب أخا الجمال الكاتب، ثم بقي ثلاثة أيام وسار إلى أرجيش، فتلقاه من بها ووصل إليه فيها الملك المعظم صاحب الجزيرة، فكرمه غاية المكارمة.

وفيها: وصل الكمال بن المُهاجر وصحبته الملك الأمجد عباس بن العادل وتلقوه كما جرت العادة.

وفيها: رتب الأشرف اليزك، وذلك أن خواجاجهان كان قريباً من بيكري، والخوارزمي في خوَي، وكان قلج الخادم المقدم ذكره الذي يحبه الخوارزمي قد مرض مرضاً شديداً فمات بخوَي وجرى عليه منه أعظم

من كسرتـه، كان مليـح الصورة إلى نهايـة، وبقي أيـاماً لايـركب ولايـراه أحد، وقيل إنه قطع بعض شعره عليه لحزنه.

وهـمّ الأشرف في عبوره بـلاد العجـم ليبلغ أولئـك، وتـارة يقدم وتـارة يحجم، واتفق أنه أحضر اختيار الدين المقـدم ذكره، وطيّب نفسه وفاوضه وقـال لـه:«كيـف نعمـل بجلال الـديـن»؟قال:«إذا أذن للمملـوك قـال ماعنـده»،ثم تركه وأحضر مـن كان عنده من أسراه مـن الخوارزميين يقال له جُتر خان وأعطـاه أماناً وقال:« تمضي إلى جـلال الدين تعرّفـه إحساننا إلى من عندنـا منكم من الأسرى ومالكـم من راتب ونفقة وحـرْمَة ليفعل مع من لنـا عنده كذلك» فسـار إليه واجتمع به فطلـب الخوارزمي رسولاً من الأشرف ليحـادثه، فلما عـاد جتَرخان وذكر قـوله وطلبـه، قال الأشرف لجُتَرخان:«مـاعندنـا مثلك وأنـت أميننا ونسمـع ماتقـوله». فلما عـاد إليه وعرّفـه، قال له:«تقـول للأشرف ياخوانـد، أنا ماأسـأت أولاً، ولاشك أني سيّرت المجير قاضي الممالك إليكم فما أحسن السفـارة، وأفسد بيننا، ومع هذا فقـد كنت طلبـت المسالمة مـا أجبتم إليهـا، ودخل الحاجـب بلادي وخرّبها وأخذ حرمـي، وفعل ماقد علمتموه. وطلبت الصلـح مافعل، ثم ولي بعده أيبـك طلب الصلح مافعـل وجرى ماجرى بقـدر الله وقضائه وعندي الآن ملوك وعندكم مماليـك، فإن اخترتم الصلح بسم الله». فكان جواب الأشرف لجترخان بـ«أن تخدم عني المولى السلطـان وتقل: ياخواند أنت سلطـان وابن سلطان ومـاأردنا لك سُـوءاً وقد بالغـت فيما فعلته في بلادنـا من خـراب ونهب وقتل، والـذي كان قصـد بلادك، كما زعمـت؛ فقد قابلناه على فعلـه، وأنت فما أبقيت في سوء المعاملة وإراقتـك الدماء فبلادنـا قد خربت فصلحنـا على أي شيء يكون، فإن أردت ذلك فـانزل عـن هذه البـلاد التي مـاكانـت لـك ولا لأبيك، لنعمـر نحن بـالعامـر الخراب. ونحـن فما اشتهينـا نتمـم أذيتك، لأن خلفـك أعـداء كثيريـن، وأنت أبتر، فهـذا موجـب إبقائنا عليـك رحمة. وأما قـولك: عنـدك ملوك وعندنامماليك،فالذي عندك مماليك أيضاً. وأخي مجير الدين أقدّر أنه قد

مات، ولي عدة إخوة وأولادهم جماعة، وأهلي ماينا هز ألفي فارس من بيتنا، ولي من يكفلني ويخلفني ويكفيني ماورائي، وأنت فمالك أحد». وسيّر جُترخان إليه في الجواب، وكان خواجاجهان نازلاً بمنوشهر (٥٤) .

فيها: كما تقدم كان وصل الكمال بن مهاجر وصحبته تقي الدين. وحكى أن زوجة الخوارزمي، التي كانت عند الخليفة، كان قد جهزها إليه قبل الكسرة، وأعطاها عطاء لم يُسمع بمثله، وسلمها إلى رسل الخوارزمي الواصلين إليه بسببها، بعد أن توثق لها منه غاية التوثق، فلما وصلوا إلى إربل، سمعت بكسرة الخوارزمي، فقالت:«مابقيت أروح من هاهنا، إلى أين». فجهدوا بها، فأبت. فقال صاحب إربل لغلمان الخوارزمي:«تروحون من عندي، وإلا إن طلبكم الأشرف ماأقدر أحميكم». ثم نفاهم من عنده، وعادت زوجة الخوارزمي إلى العراق أقامت به.

وفيها: طلب المظفر غازي من الأشرف أرزن، فأنعم عليه بأخذها ورسم بتوقيعها، ووصل قاضي أرزن ابن الشهرزوري العماد بهدية إلى الأشرف وتهنئة بالكسرة، ويعتذر بمرضه عن تخلفه، فقبل هديته وقال له:«حديثكم مع أخي المظفر، إن رضي فلا أي كلام» فلما توجه هذا القاضي المذكور إلى المظفر اعتقله يومين ثم قال له:«هذه أرزن لي مابقي فيها كلام، والمصلحة تسليمها إليّ، ونعطيه مايتبلغ به بقية عمره». وزوجة صاحب أرزن ابنة الأوحد بن العادل فما رعيت في ذلك، ثم إن المظفر سيّر إليها حاصرها، ونصب مجانيق عليها، وسير الأشرف الجمال الكاتب إلى صاحبها فما أجابه، فلما تواتر الحصار وعاين أخذها وعجزه، قال صاحبها:«ماأسلمها إلا إلى الأشرف، وثوقاً بأنه ربما أبقاها لبيته وكبره ولأخته ولخدماته، حتى إنه أُسر بخلاط ومشى مدّة مع كبره راجلاً في ركاب الخوارزمي.

وفيها: سيّر الأشرف شمس الدين التكريتي إلى الكرج وإلى صاحب الدَّربند شروان. فقال له شروان:«تعرّف صاحبك أنه كان عندي جماعة من الخوارزمي ليتناولوا من مُغل بلادي الثلث فقتلتهم جميعهم، وقد سيَّرت إلى الكرج أيضاً استنجدتهم، والخوارزمي فقد توجه إلى توزير بعد أن كان قد جمع واستخدم زيادة على من عنده ألف فارس، ولاشك في خوفه من التتر، والتتر قد خرجوا عليه، فتعرّفه ذلك.

وفيها:وصل ابن صاحب سُرّمَارَي الأصيلي وتلقاه الحافظ وكريم الدين وقابيا.

وفيها: قبض الأشرف على حسام الدين خضر وابنه صاحب سُرّمَارَي المقدم ذكره، لأنه كان قد أساء كثيراً عند تمليك الخوارزمي وإعطائه له أرجيش، وحمله بعد ذلك إلى دمشق.

وفيها: بأرجيش أيضاً وصل كتاب إيواني ملك الكرج، حمو الأشرف مضمونه:« إن كتاب الخوارزمي قد وصلني ابتداء لاجواباً، وقد سيرته على مافيه. وعلى رأس الكتاب ترجمته:

داعيه مَنُكبرتي بن السلطان محمد بن السلطان سنجر. وإنما ابنتي تبعث تقول لي:«دار الخوارزمي لأجلي» وكان قد بعث إيواني هذا سيفاً للأشرف صحبة الكتاب، لأن عادة الكرج إذا ظفر جارهم سيروا له سيفاً. وقال:«قد عرفتك صورة الحال، وأنا على ماتعهده من المعاهدة».

وفيها:شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في عمارة قلعة ببلد سلمية، كانت قديمة على رأس جبل يعرف بشُمَيميس، وما طاب ذلك لصاحب حماة، واجتهد في إبطالها ظاهراً وباطناً، فجمع السلطان الملك المجاهد غلمانه وأصحابه وعسكره ورعيته وجماعة من العربان، وكان قد

حصل جميع الآلات، وشرع فيها جملة واحدة بنفسه وأولاده أيضاً ماخلا الملك المنصور ولي عهده، لأنه كان بأرجيش بعسكره، وأدارها بالعمارة وتسوير سورها في سبعة أيام، بحيث إنها صارت تمنع من يقصدها، ودار الحرس عليها تلك المدة، ثم بعد ذلك كمل عمارتها كما ينبغي؛ ورتب الولاة والأجناد وحمل إليها الذخائر في تلك السنة وسماها ماردين الشام، وهي كذلك لأنها في غاية المنعة والحصانة وحفر فيها عدة آبار، وعمل عدة صهاريج وملأها ماء، وخرّب برجاً كان قد عمل في سلمية قديماً في وسط البلد، وكان قد خرّبه الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله قديماً، فلما صارت سلمية لولده المظفر بأمر السلطان الكامل أعاد عمارته، كما كان أولاً، فنظر الملك المجاهد في أمره فخرّبه ونقل حجارته وآلته إلى قلعة شُمَيميس، وقد كانت انتقلت من المظفر المذكور بأمر الكامل إلى الملك المجاهد، فعمرّها وحصنها، وكم له من عمارات حميدة، وآثارات سديدة. وكذلك عَمّر قلعة حمص ورفعها عما كانت عليه، وحصنها وعمق القنوات وأجرى الماء في المدينة وعمل البساتين، وتجرفت المياه في جميع أرضها الغربية، وزرع الأرز عليها وغير ذلك، وأطاعه العاصي، وهذا لم يقدر عليه سواه من الملوك الذين تملّكوا حمص. وكذلك عمَّر قلعة الرحبة كما تقدم، وكذلك أنشأ قلعة بتدمر على جبل عال منيع حصين، وخرّب برجها الذي كان في المدينة. كل هذا خوفاً على الرعايا، وجدّد بحمص بيمارستاناً عظيماً، ورتب فيه مايحتاج إليه. وأوقف عليه وقوفاً، ولم يكن قبل ذلك. وعمّر مدرسة جميلة غير المدرسة النورية أولاً. وهذا وكم له من اصطناع وصدقة ومعروف وبرّ لاسيما إلى من يقصده، وكم له من واقعة مع الفرنج صارت تواريخ، وكذلك مع العربان السرايا وغيرهم، وأبداً يسترد منهم الغنائم ويطاردهم هو وأولاده في البرية اليومين والثلاثة.

وفيها: بأرجيش كان خواجاجهان قد طلب من يصل إليه يحدِّثه فيما

يتفق بينهم، واتفق الأمر على أن المظفر غازي يسيّر إليه من عنده رسولاً فعاد المذكور من عند خواجاجهان وصحبته رسول من عنده، واتفق وصول هذا الرسول بكرة نهار عيد النحر، فأمر الأشرف العساكر والملوك وعسكر الرومي أن يلبسوا ويتجملوا، وأن يدخل بين يديه جميع الأكابر في الحلقة، وأن يحضروا رسول خواجاجهان لاعن قصد وترتيب، يتفرج عند وصوله برانية من الطريق؛ فحضر وأوقف بمعزل بمن معه ورأى العالم وكثرته وحسن ترتيبه، ثم حمل إلى مخيم المظفر، ونزل بخيمة لُبَّاد، كان قدَّمها له الملك المعظم صاحب الجزيرة، وحضر الناس الخوان، ثم انصرفوا وفي غد العيد أحضر رسول خواجاجهان عند الأشرف، وسمع رسالته وإخوة الأشرف كلهم قيام في الخدمة، وأكابر الأمراء تعظيماً لحاله، وصرف الرسول بعد ذلك، واجتمع آراء السلاطين على الجواب، وسيروا به الحكيم سعد الدين بن الموفق الدمشقي طبيب الأشرف الدمشقي لأنه يعرف بالعجمي، وسار إليه.

وفيها: في عشرين ذي الحجة بأرجيش قبض الملك الحافظ على كاتبه محمد بن على بن نظيف الحموي، وأخذ جميع مايملكه من مماليك ودواب وذهب وقماش ورخت وغيره، وحمله إلى قلعة جعبر ليلاً، وذلك لكثرة سكره. وكان سبب ذلك أنه طلب أحد مماليكه فما امتنع عليه. وقيل له غير مابذله من نفسه في ذلك القبول، ووقع النشب به، فلما أفاق من سكرته، ندم، ومابقي يمكن إلا الإتمام لما فعله.وكان هذا كله بعد أن خلع عليه خلعة العيد، وأخوه أيضاً.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

فيها انتقل الأشرف إلى خلاط ليرتب أحوالها وينتظر رسول

الخوارزمي، فوصل الرسول صحبة الحكيم سعد الدين وحلّف الأشرف في البلد. ثم بعد ذلك أطلعه القلعة وشرب معه وأنعم عليه وأعاده. ورتب الأشرف مماليكه والعسكر والديوان بها، وكان قد نقم على حسام الدين القيمري، وفتح الدين بن دلدرم الياروقي، ففارقاه وخدما لصاحب آمد، ثم توجه الأشرف إلى أرزن فتسلّمها، وسلّمها إلى المظفر وأعطى دستوراً للعساكر، وسار صحبته الحافظ وصاحب الجزيرة ووزراؤه، وفارقه السلطان الملك المنصور إلى الرحبة، لأن والده السلطان الملك المجاهد كان قد وصل إليها، فأقام الأشرف بدارا يومين ثلاثه، ثم انتقل إلى نصيبين وبقي كذلك، ثم توجه إلى سنجار وبقي مدة يفرّج بها صاحب الجزيرة وقال له:«تجيء إلى دمشق فتفرج فيها أياماً» فما أمكنه مخالفته، فسار معه، فلما وصل إلى قرقيسيا بلغه أن السلطان الملك المجاهد وقع في الصيد عن فرسه، فساق إليه جريدة افتقده، فأطلعه إلى قلعة الرحبة وقدّم له كما جرت العادة، واستحسن القلعة وشكرها كثيراً، ثم سار إلى دمشق، وفارقه أخوه الحافظ إلى قلعته، فأقام الأشرف أياماً يسيرة بدمشق، ثم توجه، وبقي الملك المعظم مقيماً بدمشق يتفرج، إلى أن سيّر إليه استدعاه للظلوع إلى مصر، فسارا إليها، فتلقاهما السلطان الملك الكامل، وضاعف احترام صاحب الجزيرة وأعطاه عطاء كثيراً، ثم تركه والأشرف، وسار إلى الاسكندرية، ثم عاد وفرّج صاحب الجزيرة في دمياط وغيرها.

وفيها: شفع صاحب الجزيرة بمصنف هذا التاريخ محمد بن علي بن نظيف إلى الأشرف بمكاتبته إلى مخدومه الحافظ بإطلاقه، فكتب الأشرف في ذلك، وأمر الحافظ بإعادة جميع ما أخذ له عن آخره، وأن يحسب جميع ماله ولمماليكه من حين قبض وإلى حين الإفراج عنه، ويعطاه جملة ويضاعف حرمته وماكان له،«ولاتمكنه من المفارقة لنصل ونحسن إليه» فقبل شفاعته وأطلقه بعد تحليفه ألا يفارق خدمته. وجميع ماردّ عليه من

جميع ما أخذه له: مملوكان كبيران لاغير، وأربعة دوابّ. وكان كل وقت يمنّيه ويعده، فأطال عليه وخاف من غدره، فتسحَّب ليلاً إلى الرحبة من قلعة جعبر، فوجد المولى السلطان الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم ولي عهد والده فيها، فأحسن إليه، وخلع عليه خلعة جميلة، وحمل له جميع مايحتاجه، ورتّب له بعد ذلك راتباً معتبراً من طعام وحلاوة وشمع وقصيم دواب، ثم كاتب السلطان المجاهد به، فوصل كتابه إلى الولاة بتقرير راتب كفايته وزيادة، وأطلق له أشياء، وبسط أمله وأمره بالمقام فيها، إلى حين وصوله فبقي في خدمة السلطان الملك المنصور في أحسن كرامة إلى أن استدعيا إلى حمص. فتلقى ولده السلطان الملك المجاهد إلى سلمية، ولقيه المذكور، فبسط أمله وأحسن إليه، وأطلق له جملة، ورتب راتبه الذي كان له بالرحبة، وأطلقوا له أولاده كلهم على طبقاتهم، وأحسنوا في حقه إحساناً كثيراً. ونقل بيته إلى تحت ظله بحمص، ورتب جامكية تكفيه وزيادة مع الإحسان المتتابع أولاً وآخراً. وكم له مثل هذا مع من يقصده.

عدنا إلى حديث الأشرف بمصر وصاحب الجزيرة، وهم في ضمن لذتهم دخل التتر إلى البلاد، فلما تحقق الخوارزمي قَصْدَ التتر له أطلق مجير الدين بن الملك العادل الذي كان في إساره ومملوك الأشرف بكتمر الأحول، وسيّر صحبتهما رسولين من عنده، وقال له:«نفسك لك.فتعرّف أخاك الأشرف بالتتر، فما هم قليل، وهم أعداء الدين» فوصل مجير الدين وتلقاه صاحب ماردين وأحسن إليه، ثم تلقاه الحافظ إلى قرب حرّان وحمله إلى قلعته، وضاعف إليه الإحسان وإلى الأمراء الخوارزمية، ثم سار بهم قاصداً الأشرف، فأقام بدمشق أياماً، ثم طلع إلى مصر هو وأخوه تقي الدين عباس فأحسن السلطان الكامل إليهما، وأما الخوارزمي فإنه تسحّب بمن كان معه إلى آمد من خوفه من التتر، فقصد آمد وقال لصاحبها:«مانكلفك نجدة ولا إقامة، بل إن تبعنا التتر واحتجنا تكن

آمد ظهـرنا» قـال:« نعم وكرامـة» فلما وصل التتر وأغـاروا على الخوارزمي وكبسوه ليلاً، ومعه الآمدي في عدة له يحمـل أثقاله وقماشه، وسار خائفاً، وتفرقـت أصحابه في تلـك الخطةلايهتـدون على مسير. أما الخوارزمي فـإنه ماعلم أي جهة أخـذ وقالوا:«قتل»وقالوا:«لابل في الحيـاة» وتسحب خاله ومعـه جماعة إلى المظفـر غـازي والباقـون تشعبـوا في الجبال لاسيما جبـل ليسـون. وزوجة الخوارزمـي وسراريه وخـدامه وقطعـة كبيرة من عسكـره، طلبـوا أمانـاً من صـواب. فأمَّنهـم ثـم غدر بهم، فنهبهـم هو وعسكـره، وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعـة حرّان، وبعد ذلك استدعيت إلى دمشق أقامت بها.

وأما التتر فإنهم قصـدوا الجهة التي قصدها الخوارزمـي ودخلوا الجزيرة ونهبوا وقتلوا وسبوا وعاثوا في البـلاد، وبلغت غوّارتهم إلى الجبال بسنجار، وقـاتلوا نصيبين، وجـرى لهم بسعـرد من القتـال والقتـل والغدر مـاتجاوز الحد. ومـايعلم مقـدار مـن قتلوه منهـا ومانهبـوه، وكـذلك دنيسر قتلـوا أهلها وسبـوهم وأحرقوا الجامـع وكان قد احتمـى به جماعة فحرقـوهم في الجملة، وعادوا عـن حمية إلى مواضعهم، وماوجدوا في الجزيـرة من رد ثَمَّ لهم نشـاباً، وقـد ذكر أن هـؤلاء الغوارة مـابلغوا ألـف فارس، وفعلـوا في البلاد مافعلـوه وأخافوا الناس وارتحلـوا من الجزيرة إلى الشام، وجـلا أهل رأس عين الخابور وغيرهم ودُرِّبَـت دروب أكثر البلاد وامتنعوا مـن فتحها وكل هذا والأشرف وصاحب الجزيرة عند السلطان الكامل بمصر.

وفيها: قفـزت الباطنية على أحد رسـولين جاءا من الخوارزمـي، أحدهما يقال لـه المخلص، قتلوه بـدمشق، وكان له أمـوال، فأخذ الجميـع الملك الصـالح، وقـالـوا: إن البـاطنية كـان بينهـم وبين والـد المخلص عـداوة أوجبت مـافعلوه. واتفـق وصول رسل التتر، واجتمع بهم السلطان الملك المجاهـد بحمص، ووصلوا إلى دمشـق، فخاف عز الـدين بلبان الـرسول

الآخر من الخوارزمي على نفسه، فهرب بجماعة معه، وتسحب إلى شاطىء فرات الرحبة، فنزل عند عرب غدروا[به] وأخذوا ماكان معه. وكان معه جماعة قطعوا الفرات وبقي هو، وسيّر الصالح بن العادل خلفه، فقبض بوالي قرقيسيا وكان السلطان الملك المنصور في الرحبة إذ ذاك، فأحسن إليه، وجُهّز إلى دمشق من الرحبة.

وفيها: وصل رسول الخليفة إلى الديار المصرية بالخلع والتقليد، بقي مدة لم يجتمع بالسلطان الكامل، وكان الغرض من تأخيره ماقد استوفيناه في تاريخنا الكبير، ثم بعد ذلك وصل السلطان الملك الكامل في البحر، وخلع عليه وقلد تقليداً لم يقلد به غيره من سائر الملوك من بيت العباس، وزادوه زيادات عظيمة في التقدمة له والقول، وكذلك للأشرف، وكذلك لولده الصالح، ولمن عينوه، وخلعة للوزير. فقال:«مالي وزير» قيل:«هذه عادتنا معكم» فبقي أياماً. ثم أعطاها لكاتبه الفخر سليمان بن الخباز ا لدمشقي؛ لأن أباه كان خبازاً بها مشهوراً.

وفيها: خرج الملك العزيز صاحب حلب ودار في جميع بلاده، وذلك أول خروجه إلى البلاد.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

فيها كثر الإرجاف بعود التتر إلى الجزيرة، بعد أخذهم كنجة وقتل كل من فيها، لأنهم كانوا قد تديّروا موغان وبها شتّوا، وصاروا يغيرون ويعودون إليها، واهتم الخليفة اهتماماً عظيماً، وكثرت رسله إلى الكامل والأشرف في نزولهم الشام، واستخدم الخليفة عرباناً كثيرة وغيرهم من أجناد، وبذل الأموال، وبقي في نفسه فعل التتر في بلاد الجزيرة.

ثم إن التتر عادوا إلى الجزيرة طمعاً بأهلها، فنهبوا أيضاً وقتلوا وسبوا ووصلوا إلى جسر بدّايا، ودخل بعضهم عليه، وأخافوا كل البلاد من قوتّهم وإقدامهم وتسحّبوا من بين أيديهم. فنزل الأشرف إلى الشام، وصحبته صاحب الجزيرة، وقد وعده السلطان الكامل بلحاقه، وتقدم الكاملَ نزول العساكر المصرية إلى الشام، وتجهّزوا وقدم عليهم فخر الدين عثمان أستاذ داره، فلما وصل الأشرف تلقاه إخوته والسلطان الملك المجاهد وأولاده، ووصل الملك المظفر صاحب حماة للقاء الكامل، فلما وصل الأشرف قدم له الملك المجاهد تقدمة حسنة على يد الأمير صفي الدين سودان، وفارق صاحب الجزيرة الأشرف عائداً إلى بلاده، وتحمل للبيكار. ونزل الكامل في هذا الشهر إلى الشوبك، أقام به مدة،ثم وصل إلى دمشق وتلقاه الناس، وأمر المظفر بأخذ ابنته والدخول بها في دمشق، ففعل ذلك. ووصلت ابنته أيضاً زوجة صاحب حلب الملك العزيز، وسار معها قاضي العسكر المصري وفخر الدين البانياسي، وتلقاه عسكر حلب مع بعض أهلها إلى حماة فكان عرساً عظيماً.

وفيها: استبد الملك العزيز صاحب حلب برأيه، ورفع أتابك شهاب الدين يده ولسانه، فقطع العزيز جماعة أمراء وأخذ أخبازهم.

وفيها:صالح صاحب الروم الأشكري، وأخذ أموالاً كثيرة من بلاده بسبب خروج التتر.

ووصل عسكر الكامل، وفي مقدمته ولده الملك الصالح، وكان فوّض ولاية العهد عند نزوله من مصر إلى ابنه الصغير الملك العادل، ورتب وزيره المعين ابن شيخ ا لشيوخ، ثم صارت العساكر تتبع بعضها بعضاً أولاً فأولاً، فأخذ الملك المجاهد دستوراً وتقدم إلى حمص لإتمام أشغاله. ووصل الكامل إلى سلمية. وحمل له من الإقامات حاجاته، وكذلك حمل إلى سائر الملوك. ثم سار وعيّد في الطريق، ووصل حرّان ونزل بها، ووصل عسكر حلب. هذا والتتر قد أحاطوا بقلعة خلاط ولم يبق إلا تسليمها، فرحلوا عنها يداً واحدة خوفاً من السلطان، ونزل من كان بها مثل شيرون سبع مجانين أحد الأمراء الأشرفية وقال:«لو صبروا يومين ثلاثة أخذوها، وإنما فرّج الله عنا ببركات السلطان».

وفيها:سيّر الملك الكامل عماد الدين[ابن] شيخ الشيوخ إلى الخليفة من حرّان.

وفيها: وصل مملوك فخر الدين ابن شيخ الشيوخ من مكة يخبر أن صاحبه أخذ مكة واستحلفها،فما أعجبه وقال:«نحن أمرناه بأن يصل اليَنبُع لاغير، مَن أمره بأخذ مكة؟» فما طاب له ذلك.

وفيها: بحرّان كتبوا مهر ابن سلطان الروم الذي من ابنة العادل على ابنة الأشرف.

وفيها: وصل الخبر بوصول ابن الجوزي من الخليفة، فاهتموا بلقائه. وكان الأشرف غير طيب القلب لصاحب آمد، وقد نزل الكامل على

قصده، وكان قد سير الآمدي وزيره شرف العلاء إلى الملك الكامل بتقدمة، وإلى الأشرف، فقبلها الكامل ولم يقبلها الأشرف، وضبطوا شرف العلاء عندهم بحرّان مدة مقامهم، وصاروا يهتمون بقصد آمد، وشرف العلاء يمغلط مخدومه ومايصدقه ذلك. والآمدي يواصل بالهدايا ولايحترز لنفسه، ووصل إليه رسول الرومي وطيب قلبه وقال:«لاتخف أنا أصل إليك بنفسي» فلما كان قويت عزيمتهم على قصد آمد، فسار السلطان الكامل إلى الرُّها، وأمر العساكر بالرحيل أولاً فأولاً على تعبئتها ميمنة وميسرة وقلباً. ثم أمر بتلقي رسول الخليفة ابن الجوزي، وإتيانة إلى أي موضع كان به، وهذا وقع إهانة له، فلم يجتمع به إلا على السويداء على السماط أيضاً، ولم يخرج على الطريق أحد له، وتسحب على السويداء، رحل طالباً آمد، فحينئذ تحقق الآمدي القصد له. فرتب بلده كما جرت العادة من غير أجناد ولارجّالة ولا من هو طيب قلب منه، ووصل رسوله إلى السلطان الملك المجاهد ليعمل نوبته مع السلطان الكامل، ولم يبذل إلا ذهباً، ولاطلب بعض البلاد ولا نزل عن شيء، ولوكان طلب ذلك لهان، ولم يزل في قلة عقله، إلى أن إحتاطت العساكر بها من كل مكان، وحمل شرف العلاء إلى الرها تحت الحوطة، فلما نزل عليها جاءت تقدمة المارديني ورسله، ثم وصل من عسكره ألف فارس كما ينبغي، وبذل من نفسه أشياء، وسيّر دسوس خيم معتبرة من أكسية مغربية ولباد للسلطان والأشرف والملك المجاهد والناصر بدمشق.

ثم شرع الأشرف في عمل آلات الحصار والزحف وكذلك الكامل والملك المجاهد وكل الملوك، وشرعوا في عمارة آدر للكامل والأشرف، وفيما هم في مثل ذلك، وقع عزم السلطان الكامل على الزحف؛ ورتبوا المجانيق واتفق الزحف عليها من كل جانب بعد صلاة الظهر إلى قبل العصر، فأخذت النّقّابون النقوب في الباشورة، وكشف الرماة الأسوار

بنشاب أكثر من المطر، بحيث دخل معظمه في أحجار السور، ثم شرعوا في نقب السور الكبير، فطلب أهل البلد الأمان واستغاثوا فوقعت الرحمة لهم من الكامل ومن سائر الملوك والناس، فأمنهم وطلب صاحبها الأمان فلم يجبه، ثم بعد ذلك سأل الأمان ليلاً بصاحب حماة المظفر، وشمس الدين صواب على نفسه، فأجابه إلى ذلك وأعطاه منديله. وكان الناس قد هجموا البلد، ونهبوا معظمه، فخرج المسعود صاحب آمد، ومنديل السلطان الكامل في رقبته، ومعه صاحب حماة وصواب، ووصل إلى عند الكامل فأمكنه من النزول، وتلقاه وأنزله عنده أ وّلاً، وصارت الملوك يسلمون عليه عنده، ثم نقله بعد ذلك إلى الخيمة، التي كان سيّرها المارديني للكامل بدهليزها وبيوتها وكان عنده شهاب الدين أحمد، ثم انتقل الكامل إلى البلد، ونزل في آدرها، وكذلك الأشرف وأخلى الملك المجاهد البيمارستان، والناصر والعزيز ودخل البلد من قدر على دخوله، ورّتب لصاحب آمد في الخيم مطبخه،لم يغيره ولا منع منه بعض غلمانه وجمداريته وأمير جانداره وفرس النوبة في الكرد آخُر،كما جرت عادته،وكتب به خطه وأعطى السلطان أوراقاً بعلائم قلاعه جميعها بالتسليم، ماخلا حصن كيفا فإنه قال:«ماهو لي ولا في حكمي ،ولايقبل شيء في أمره» ثم بعد ذلك سيّر الكامل إلى القلاع وتسلم بعضها، وخطر له أنه يخرب معظمها ووصل أولاد صاحب ماردين إلى الخدمة، ولي عهده وأخوه، للتهنئة، فتلقاهم وأكرمهم، وأنزلهم عنده في تلك الآدر، ثم نقل الملك المسعود صاحبها إلى البلد وأنزله في طيارته التي يحبها، و[رتب] الجاووش والجاندارية والسنجق والدوشاخ [٥٥] والجمدارية كعادته. وبالغ في إكرامه، وصار له من الراتب جملة، وأطلق له جميع ذخائر القلعة، وكان فيها جملة، فحملها إلى بيته بالقصر، وأباع نوابه جملة، وكان نازلاً في القلعة صاحب الجزيرة وصاحب حماة، ثم سير الكامل حجّارين إلى قلعة الجبابرة [٥٦] خرّبها ، وإلى أكِلّ خرّبها، واتفق

أن صاحب [الروم]أفسد عليه قلعة كركر، وعصت بعد أن كان قد سيّر إليها مثقال الجمدار وابن قيسوم يتسلمانها، فعصت فطلبا[٥٧] من الأشرف أن يسير إليهم من عنده إلى نائب صاحب الروم بحكم الصداقة، فسير إلى صاحب السويداء مرتين، فما قبلوا منه، وقيل: إن الرومي شراها بألفي ألف درهم وخمسين ألف درهم. فعادوا أشاروا على السلطان الكامل ترك باقي القلاع ولايخربها فتركها وندم على ماخرّبه، وصار الكامل يشرب عند صاحب آمد، ويوعده منه إليه بكل خير ويطيب قلبه، وسير الصلاح الإربلي والبانياسي بألف فارس إلى حصن كيفا وفاوضهم ووعدهم بأشياء يبقيها عليهم، فلم يقبلوا، وأصروا على العصيان، ثم سيّر صاحب آمد أمه صحبة قاضي العسكر الحسني، شتموها وما أجابوها، وعاد قاضي العسكر مريضاً، وصار كلما لجّوا في العصيان، حنق الأشرف والكامل، فاقتضت الحال التضييق على صاحب آمد والإهانة له وعصره، ففعلوا به ذلك، وعصروه وقيدوه. وهم في هذا وصل محيي الدين بن الجوزي من الخليفة يهنىء بآمد ويشفع لصاحب الموصل وإربل، فقبل الشفاعة وحلف لهم، وطلب أبو فراس أمير الحاج العراقي دستوراً إلى بغداد وقال:«أريد تظهر آثار نعمة مولانا عليّ في العراق» وكان قبل ذلك قد عاد والده إلى العراق. وسلم إليه جميع أملاكه، فوعده الكامل عند عوده إلى الشام يعطيه دستوراً، وتجهز رسول الخليفة عائداً إلى بغداد والشيخ عماد الدين ببغداد مريض.

ثم إن السلطان الكامل حنق على الرومي لأشياء منها منعه التركمان من الوصول بغنم أو غلّة ، وقضية كركر وكرفازاك، وكان قد عصى مع حصن كيفا عدة قلاع مثل الجديدة، والقرشية، وقلعة نجم والهيثم وباتاسا وغير ذلك. قالوا:«خذوا الحصن ونجم تسلم من غير قتال» فاتفق الحال على الرحيل عن آمد بعد أن رتّب الملك الصالح فيها

وصواب وتعيين من عينّه من العساكر فيها والذين يستخدمونه عليها، ويتوجه الملك الأشرف بنفسه إلى الحصن يفاوضهم، فإن سلموا فلا كلام، وإلا تركوا عسكراً ورجالة إلى الربيع. وأعطى السلطان لعسكر ماردين دستوراً قبل باقي العساكر، واتفق أن السلطان الملك المجاهد يرحل أيضاً، أما الأشرف فإنه قطع الشط سائراً إلى الحصن، وبعده إلى سنجار يشتي بها ويعود إلى الحصن، وبات عنده السلطان الكامل، وودّعه ليلة مسيره، وفي بكرة تلك [الليلة] تبعه الملك المجاهد ودّعه، وكان قد سار هو والمظفر والحافظ وابن المغيث إلى الحصن، فلما عاد الملك المجاهد حمل ماينا هز مائة خلعة معتبرة لأصحاب السلطان الكامل بعد إذنه له على يد بهاء الدين مروان بن قابيا، وحملها وودَّع الكامل إلى رأس عين الخابور، ومنها قصد الرحبة وأعطى دستوءاً بعد أن أطلق لهم وأحسن إليهم وسار هو وجميع أولاده إلى الرحبة. وأما السلطان الكامل فإنه كان قد قدم عليه القاضي شهاب الدين قاضي الرقة، فأحسن إليه غاية الإحسان وفاوضه في أحوال الرقة وظلم الجواد لأهلها، وأنه مابقى فيها خمسمائة نفر، فرفع يد الجواد منها وسلمها إليه، وكتب له توقيعاً بإعادة من كان نزح منها، وفاوضه في كمال الدين بن شيخ الشيوخ، وذكر أنه قد عزله لما قيل عنه من ظلم وجهل بالعمل وأخذ الأموال وغيرها، والله المطلع على صحة ذلك وسقمه. ثم سار الكامل وترك الملك الصالح مريضاً، ورتب عنده أطباء وسار إلى السويداء أبصرها، وتلقاه كمال الدين إليها بالإقامات كما جرت العادة، ثم قصد الرها نظر في أحوالها وولّى وعزل ورتب، ثم وصل حران، فقبض على كمال الدين ووكل عليه، ثم نقل بيته إلى الرها، ونقله هو إلى قلعة حران. وقبض وكيل بيت المال النجم الفقيه المغربي، أخذ منه أموالاً وقبض على السامري الذي كان أسلم على يد الملك الأشرف وأخذ منه عشرة آلاف درهم، ثم قطع يده، ثم من الجمال بن الصلاح شيخ الخوانك ومشهد الذّهبْاني، وأخذ منه ستة آلاف درهم، وغير هؤلاء، كل هذا

بسبب كمال الديـن. وولى البلاد لتاج الدين بن شكـر والتقي بن حمدان مستوفي البلاد.

ومات في هذه السنـة فخر الدين عثمان أستاذ الدار بحـران بعد مرض طويل.

ومـات النجم بـن الحمصي مشدّ الـديوان بمصر كـان ثم بـآمد عنـد فتحها.

وابن الشها ب أحمد.

ومات والي الإسكندرية.

ومات ابن الملك المغيث بن العادل ونقل إلى دمشق.

ومات خلائق أُخر على آمد.

ومات شمس الملـوك ابن ابن صلاح الـدين، كان الكامـل ربّاه، يحبه ويثق به.

ولما دخلت سنة ثلاثين وستمائة

كان السلطان الملـك الكامل قد رتـب ولده ا لصالح بها كما قـد تقدم ذكر هـذا، وأما الأشرف فـإنه سـار إلى حصن كيفـا بمن ذكـرناهـم وتبعه الصـلاح الإربلي وصحبته صـاحب آمـد (٥٨) مقيـداً، فلما حضر عندهـم تحت الحصن قـال لهم:«سلّموه إلى نواب السلطـان الملك الكامـل، فقد والله أحسن إلي غـاية الإحسان، ووعـدني وعوداً جميلـة، فلا تحرموني إيـاها

وبقية إحسانه» فقالوا له:«أنت أحلفتنا لك ولولدك، أحضر لنا فُتْيا بأن ماتلزمنا اليمين» فأحضر لهم فتيا، فما قبلوا وهم أربعة ولاة، وأركبوا ولده في الحصن، ورفعوا السنجق على رأسه، وسلطنوه ومشوا في ركابه، ثم اختلفوا على التسليم وعدم التسليم، وفتحوا الخزانة، وأخذوا باطية ذهب من ستين ألف دينار مصرية، قطعوا منها قطعاً وتقاسموها بأمر أمّ ولده. واتفق نزول واحد من الحصن حضر عند الأشرف فأعطاه عطاء كثيراً وخلع عليه خلعة عظيمة، فسار تحت الحصن ورأوها عليه فرمى الناس أنفسهم من الحصن، وعلقوا الملك المسعود فقام قبالتهم، فأجابوا إلى التسليم وحثوا الأشرف على جمع ما للمسعود فيها من أموال وعيال وأن يرتبهم على أخبازهم، ففعل وحلفوا هم، وفتحوا الحصن وأنزلوا جميع أصاحبهم وطلع الأشرف إليها دارها. ومابات بها ليلة، وتسلمها صواب، وكذلك بقية الحصون وولّوا فيها كما جرت العادة. ووصلت كتب الأشرف إلى السلطان الكامل بذلك، فتوقف إلى أن وصل الأشرف، وطلع هو وهو إلى دمشق، فأقام يُوَيمات، ثم سار إلى مصر.

وكان قد وصل رسول من الفرنج يقال له سير ريمون على يده طير يقال سنقر قال: إنه شراه من داخل البحر بثلاثمائة أوقية ذهب بأمر الكامل، والعهدة عليه في قوله. وخبرَّ أن كسرة الأمبرطور كانت صحيحة، غير أنه مابالى بها، وأنه قوي على البابا وغيره. والبابا في طلب مراضيه.

ثم وصل الصلاح الإربلي وصحبته صاحب آمد، أقام بدمشق أياماً، وشرى الآمدي فيها داراً وبستاناً وأباع بقية تيك الباطية، وقال صاحب آمد:«والله إن السيف الآمدي رجل عالم، كان قد عزم على الوصول إلينا» فلما سار عن دمشق، عزل الأشرف السيف الآمدي و أمر بخروجه من دمشق فشفع في حقه، فبقي فيها معزولاً وسكن المزة لايدخل البلد.

وفيها: كان مانع بن حديثة قد خاف على نفسه من الكامل وتسحب إلى العراق وعمل معه الخليفة من المكارمة مالا عمله مع غيره.

وفيها:كان السلطان الكامل قد أمر الملك المظفر صاحب حماة بأخذ بارين وهم في آمد، فلما وصل إلى حماة اتفق نحس صاحبها الناصروسوء مخيلته وبخله، نفر من سائر جماعته ونفروا منه، وانقضوا كلهم عليه مع أخيه المظفر وعملوا العملة ثم سيروا إلى المظفر فحضر ليلاً وما أصبح الصبح إلا وهو محاصرها، ونصب المجانيق عليها، ورتب الرجالة، وراسله المظفر بالتسليم، فأبى وعصى تسعة أيام ثم لما عاين الظَّفر به طلب الأمان بنفسه وهم برمي نفسه من القلعة في هلعه، فأمنه المظفر وسكن روعَه ووعده بالإقامة فأبى وقال:«لابد لي من مصر» فمكنه من أخذ أهله، وسار إلى دمشق فما مكّنه الأشرف من المقام بها ولا رآه، وقال:«يمضي إلى السلطان الكامل مهما رسم عملنا بمرسومه» وقد كان منتمياً إلى الأشرف من حيث ملك حماة، وطلع إلى الديار المصرية، وأقام بها ذليلاً حقيراً لايلتفت إليه ولا يلوى عليه.

وفيها:طلب الملك العزيز بن الظاهر بحلب شيزر، فأنعم بها الكامل عليه على لسان سيف الدين بن قلج، فجاء إليها وحاصرها يومين ثلاثة، فلما وصل العزيز بنفسه طلب صاحبها أمانه على نفسه وجميع الأموال، فأجابه إلى ذلك، فحلفه ونزل منها بجميع الأموال وولى في قلعتها ابن عثمان زردك وفي بلدها ابن دينار الكردي.

وفيها: أخذ الملك العزيز صاحب حلب من أتابك شهاب الدين طغرل تلَّ باشر غصباً ورفع يده من القلعة وولى فيها مملوكاً له، ونزل شهاب الدين إلى المدينة.

وفيها: وصل الخبر بأن صاحب مكة جمع خلقاً من عرب وغيرهم،

وأعانه ابن رسول من اليمن فأخرج ابن شيخ الشيوخ فخر الدين منها هارباً إلى اليَنْبُع وماكاد يسلم.

وفيها: مات الملك العزيز بن الملك العادل بدمشق، وطلع ولده الظاهر إلى عمه السلطان الكامل، فأحسن إليه وكتب له بخبر أبيه جميعه وبقي عنده مدة، ثم طلع الملك الناصر من الكرك إلى السلطان الكامل شاكياً فتلقاه، وودع ابن الملك العزيز.

وفيها: جدّد الأشرف داراً للحديث وهي دار قايماز النجمي.

وفيها: قبض على نواب دمشق مثل الشرف يعقوب وعلى القضاة وجمع المتولين وأخذ منهم جملة أموال.

وفيها: عاد مانع من العراق وانصلح حاله مع الأشرف ونزل بأهله الغوطة.

وفيها: عاد الملك المجاهد من الرحبة بأولاده إلى بلده، فمرض بعد وصوله.

وفيها: وصل محيي الدين بن الجوزي من الخليفة إلى الديار المصرية، وتلقاه الملك المنصور بحمص.

وفيها: خرّب الملك المظفر صاحب حماة مدرسة الحنفية التي في سوق الأسفل، وكذلك المسجد المعروف ببني نظيف على العاصي الذي لم يكن مثله في العمائر، وأمر بسد أبواب الآدر النهرية وبنى سوراً قدّامها وسدّ باب الجسر الشمالي، وحوّل باب الثقفي من مكانه وبالغ غاية المبالغة في الحصانة.

وفيها: شرع يعمل نعلة لقلعة بارين وحسّن خندقها وحصنها.

وفيها: شرع المظفر أيضاً يعمل برجاً في الفحيم بوادي البرية من أرض حماة وحلب وسلمية،وكذلك عمل قلعة بالمعرّة لم تكن قط وفرغ منها في بقية سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

وفيها: صالح المظفر صاحب حماة الفرنج بحصن الأكراد على نصف ماكان لهم على بارين أولاً.

وفيها: وقع الإرجاف بموت مظفر الدين صاحب إربل، وجرى في موته ماقد استوفيناه مشروحاً في تاريخنا الكبير. وعلى الجملة ففتحها عسكر الخليفة بعد عصيانها عنوة. وقتل خلقاً كثيراً، وأحرقوا ونهبوا نهباً عظيماً. وبقي فيها الشرابي وقُشْتَمِر وخواص الدولة.

وفيها: كان قد عبر الملك الصالح بن الملك العادل إلى سنجار بعسكر الأشرف ذخيرة لمن هم بآمد، فتلقاه الملك المنصور وإخوته وكان السلطان الملك المجاهد عاجزاً لمرضه عن تلقيه، ثم عاد تلقاه إلى البساتين وأطلعه إلى القلعة بحمص وقدم له أشياء ثم سار.

وفيها: ألح الأشرف بطلب السلطان الملك المجاهد إلى دمشق. فلما صلح من مرضه طلع إلى دمشق، فتلقاه وقدم كل لصاحبه أشياء وعمل له دعوتين ثلاث في القلعة وفي بستانه وخرج الأشرف إلى الصيد بالحارثية وغيرها. وكان غنّام ومانع ومنيع وجميع العربان نزولاً في الغوطة، عملوا دعوة للأشرف فخرج إليهم بقي أياماً والسلطان الملك المجاهد بدمشق في البلد، واتفق أن خفاجة وغزية نزلوا بتدمر للأذية في البلاد، فاتفق الأشرف والملك المجاهد وأمراء العرب على قصدهم ونهبهم، ففعلوا ذلك، وجهّز الملك المنصور من حمص من كان عنده بها لأنه كان مقيماً بها، ولم يكن مع أبيه بدمشق، فأخذوا ونهبوا نهباً عظيماً من جمال

وغيرها. وكان أعاريب قد أغاروا على عرب الملك المجاهد من خالد، فاستعاد لهم أجمالهم في طلعته إلى دمشق.

وفيها: مات الأمير مانع بالغوطة فحملوه ودفنوه بسلمية واتفق الأشرف والملك المجاهد على تأمير ابنه مُهنا وخلعا عليه.

وفيها:مات نجم الدين حسن بن الملك الحافظ وأبوه في غاية المرض.

وماتت أم الملك الصالح بن العادل.

وماتت ابنة الأمجد زوجة المغيث.

ومات ابن الملك العزيز الظاهر بدمشق، بعد أن كان قد خلع في العيد الكبير على جمع أصحاب أبيه ماينا هز مائتين وأربعين خلعة.

وفيها: عاد ابن الجوزي من مصر، فتلقاه الملك المجاهد وأولاده وأكابر أهل دمشق والقضاة والفقهاء وأنزلوا بدار سامة والأشرف بالحارثية.

وفيها: وردت الأخبار بتمليك الرومي خلاط، وأمر بعمارتها ونقل إليها الفلاحين والغلال وزرعها، ومتولى هذا جميعه حسام الدين القيمري، لأن الأشرف كان قد أحنقه لما قطعه ولابن دَلْدَرُم وخدما لصاحب آمد، فأما ابن دلدرم فمات. وأما القيمري، فأمر الأشرف صاحب آمد أن يمسكه، ثم عاد أطلقه، فسار إلى الرومي وخبّره على ماقد فعل وقال:« أنا أفتح لك البلاد» وشرع في شيء بعد شيء، وخاف الناس بعد تمليكه بخلاط من الطمع بغيرها. لأن الرومي أخذ كركر وكُرْفَزَاك وبَابْلُوَا (٥٩) وجميع البحيرات التي لآمد وهذا في غاية القوة، وانضاف إلى ذلك خلاط وعنده جماعة من العساكر الشامية وأتباع ابن كريم الدين الخلاطي.

ثم عزم السلطان الملك المجاهد على العود إلى بلده، فركب إلى الأشرف وودّعه في البرية، وقد جمع الخيول للسباق. ولما كان في وادي المضحين استهلّ هلال سنة إحدى وثلاثين وستمائة ليلة الجمعة.

وكان الأشرف بجيرود وفي عزمه لقاء رسول الخليفة بقارا، وكان الكامل والناصر بن المعظم عنده بدمشق، والمظفر غازي والملك الصالح وصواب بآمد، والملك الصالح إسماعيل بسنجار، والملك الحافظ وأخوه مجير الدين وتقيّ الدين عباس مرضى بدمشق وقد أبلّوا من مرضهم، والملك العزيز بحلب بحارم، والملك المظفر صاحب حماة بالمعرّة لعمارة القلعة، والملك المنصور إبراهيم قد تلقّى أباه إلى النبك.

وفيها: مات الإبرنس وسيّر الملك المجاهد يعزي ولده ويهنيه.

وفيها: مات للملك المظفر بن الملك المجاهد ابنان، وكان بحمص من الوباء والموت والأمراض مالايُعبر عنه ولا سمع بمثله.

وفيها: مات أتابك شهاب الدين، طغرل أتابك حلب، وسار الملك العزيز إلى تلّ باشر يعشرها.

وفيها: مرض السلطان الملك المجاهد صاحب حمص وهو بظاهرها وأبلّ.

وفيها: كان قد وصل من السلطان الملك الكامل هدية من قماش وخيل وغيرها للملك المجاهد، فسير بعضها للملك الأشرف وقال:«هذه تصلح لطريق مصر».

وفيها: كان الملك الأشرف قد اجتمع برسول الخليفة ابن الجوزي على قارا.

وفيها: سار الملك المجاهد إلى الأشرف واجتمعا في الوادي الشرقي.

وفيها: وصل بدر الدين قابيا رسولاً من الأشرف إلى الملك المجاهد، بقي عنده أياماً بظاهر حمص ثم توجه.

فهذا جميع ماقد وقع في الاختصار من المتجددات إلى آخر هذا التاريخ وهو في ثاني عشرين صفر من سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ومهما تجدّد فالمملوك يذيله ببقاء مولانا السلطان إن شاء الله.

وفيها: توجه الملك الأشرف إلى الديار المصرية.

وفيها: وردت الأخبار بأن ابن الكامل وصواب أغارا على بعض بلد آمد، الذي كان قد أخذه الرومي منه، بلد كركر وبابلّوا وكُرْفَزاك ونهبوا، وكذلك عسكر الرومي أغاروا على بلد الحصن وأرزن وميّافارقين، وأن الطائفة التي تأخرت من الخوارزميين عن الخوارزمي وبقوا في البلاد، جاءوا إلى خلاط أخذوا المدينة وشرعوا في حصار قلعتها. والله أعلم.

وفيها: ورد على الملك المجاهد بحمص رسول كيقباذ صاحب الروم في شهر ربيع الأول، وكان الملك المنصور في الصيد، فاستدعاه والده بهذا السبب.

وفيها: سير الملك المجاهد هدية للفرنج وللإسماعيلية في الشهر المذكور.

وفيها: وصلت رسل التتر إلى إربل والموصل، واشتروا جمالاً وأقمشة، وأقيم لهم الراتب في الموصل بإذن الخليفة لهم في ذلك.

وفيها: سلطن لؤلؤ بالموصل، لابل أمر بسنجق بعصابتين وخلع عليه.

وفيها: في شهر جمادى الآخرة وصل ابن الجوزي من بغداد وخلع على ابن بدر الدين لؤلؤ وعليه لأنه ماكان خلع عليه مع أبيه أولاً.

وفيها: استخدم الخليفة أربعة آلاف فارس من الخوارزمية كما نقل الناقل.

وفيها: أمر الخليفة قُسْتَمر أوقع ببني خفاجة وشاح بن درّاح فأغار عليهم وأخذ بقية رحلهم ونقله إلى بغداد، ثم ساروا طالبين الشام، فانصلح لهم الخليفة وسير إليهم بأن قال:«نعقد لكم جسراً بين الحديثة وعانة». فخافهم بقية العربان، آل عضية وآل يسار وزُبيْد والحَرِيث، واندفعوا إلى الجزيرة وغيرها. ولقد وقعت الإغارة على أسامة بن إبراهيم أمير بني كلاب في جسر الرقة، لأنهم عقدوه لهؤلاء العربان من خوف خفاجة.

وفيها: صالح الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب الفرنج الديوية على نصف قطعة بلد شيزر، على يد سيمون كاتب الأسبتار.

وفيها: كان قد جاء لهذا العزيز بنت من ابنة السلطان الكامل، فما طاب له، وسارمن حلب يومين ثلاثة من حنقه ثم عاد.

وفيها: مات بهاء الدين مروان بن قابيا أحد أكابر أصحاب السلطان الملك المجاهد بالقاهرة.

وفيها: وصل السلطان الأشرف إلى دمشق من الديار المصرية إلى دمشق مهتما بالحركة

وفيها: خاف صاحب خرتبرت من الرومي، وسير إلى صواب بآمد يستصلحه.

- ٩٩٠٧ -

وفيها: كان الصالح بن السلطان الكامل قد وصل من آمد إلى الزرّاعة بحرّان قاصداً الرقة للتفرج، فوصل كتاب السلطان الكامل أعاده وكتاب صواب، فعاد وأقام أياماً برأس عين الخابور.

ثم لما أراد التوجه إلى آمد عبر بحرّان وأخذ قماشاً كثيراً وفراء وغيرها نهباً من غير ثمن، وغلقت الأسواق وانتقل إلى الرها وفعل كذلك، وأخذ قماشاً، أخذه له الوالي بها، ثم سار إلى آمد.

انتهى التاريخ المبارك بحمد الله وله الحمد والمنة

تمّ

من

التاريخ الصالحي — لابن واصل الحموي

obeikandl.com

obeikandl.com

سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كان استيلاء الفرنج على القدس، وكان من حديث ذلك أن الفرنج لعنهم الله خرجوا إلى بلاد الإسلام في ألف ألف فيما قيل، فملكوا أنطاكية وهجموا معرة النعمان بعد حصار شديد، وقتلوا أكثر أهلها، ولم تزل بأيديهم إلى سنة ست وعشرين وخمسمئة، فاستنقذها منهم أتابك الشهيد رحمه الله، ثم ساروا إلى الرملة فملكوها، وكان ابتداء خروجهم سنة إحدى وتسعين، ولما ملكوا الرملة خيَّموا على بيت المقدس وقاتلوا أهله أشد قتال ثم ملكوه، وجمعوا من فيه من اليهود إلى بيعة لهم وأضرموها ناراً عليهم وقتلوا بها من المسلمين مايزيد على سبعين ألف إنسان، وأخذوا من عند الصخرة نيِّفاً وأربعين قنديلاً فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، ونيِّفاً وعشرين قنديلاً من ذهب، فما رُزِء المسلمون بأعظم من ذلك، ولم يزل القدس بأيديهم إلى أن استنقذه منهم الملك الناصر في سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة على ماسنذكره مشروحاً في موضعه إن شاء الله تعالى، فكان مدة مقامه بأيديهم إحدى وتسعين سنة.

ابتداء أمر السلطان غياث الدين محمد بن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي

وكان من خبر ذلك أن السلطانين محمد وسنجر، كانا أخوين لأب وأم، فلما توفي السلطان جلال الدولة كما ذكرناه، خرج محمد مع أخيه السلطان محمود، فلما اقتتل السلطانان محمد وبركيا روق كانت أم محمد في عسكر السلطان بركياروق، فخرج محمد إلى أمه مختفيا، فأكرمه أخوه السلطان بركياروق فأقطعه كنجة وأعمالها، ولما دخل السلطان بركيا روق إلى بغداد وملكها تَوَجَّه محمد إلى كنجة عامداً إليها، فاستولى على

إقليمها، واجتمع إليه خلق عظيم، وخطب لنفسه، وطمع في السلطنة، وعظم شأنه، وخرج إليه أكثر عسكر السلطان بركياروق فصاروا معه، فلما بلغ السلطان بركياروق ذلك خرج لقتال أخيه محمد، وبعث السلطان محمد إلى بغداد رسولاً يطلب الخطبة له فخُطب له في ذي الحجة من هذه السنة، وجرت له مع أخيه السلطان بركياروق وقائع نذكرها واحدة واحدة إن شاء الله تعالى.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة قدم السلطان بركياروق بن ملكشاه بغداد، وقُطعت خطبة أخيه محمد و خُطب له بها، وحَشَدَ واجتمع إليه خلق كثير، وخرج للقاء أخيه السلطان محمد فالتقيا بمكان بقرب همذان، وكان الظفر للسلطان محمد، وانهزم السلطان بركياروق في خمسين فارساً، فقُطعت خطبة بركياروق وأعيدت خطبة السلطان محمد، وذلك في رابع عشر رجب، ثم اجتمع إلى السلطان بركياروق خلق كثير فلقيه أخوه سنجر بعسكر فانهزم سنجر وأَسَر السلطان بركياروق أم أخويه محمد وسنجر، وكان سنجر قد أسر جماعة من أصحاب بركياروق فقال بركياروق لأُمّ أخويه: إنما أسرتُكِ ليطلق أخي مَن عنده من الأسارى من أصحابي فأطلق سنجر مَن كان عنده، وأطلق بركياروق أُم سنجر.

سنة أربع وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة التقى بركياروق ومحمد، فانهزم محمد وأصحابه، وعاد السلطان إلى بغداد فأُعِيْدَتْ خطبتُه وقُطعتْ خطبة أخيه السلطان محمد.

وفيها تسلَّمتِ الفرنج حيفا بالسيف وأرسُوف بالأمان، وصارت بأيديهم أكثر البلاد الساحلية.

سنة خمس وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستعلي بالله صاحب مصر، وذلك سابع عشر صفر، وكانت مدة ملكه سبع سنين وأشهراً وأياماً، ولما تولى المستعلي هرب أخوه أبو المنصور نزار بن المستنصر بالله إلى الاسكندرية ووليها يومئذٍ أفتكين مملوك الأفضل أمير الجيوش فادعى نزار بالاسكندرية الإمامة وتلقَّب بالمصطفى لدين الله، وبايعه أفتكين على ذلك، فتوجَّه إليه الأفضل، فحاصره إلى أن فتح الاسكندرية، وعاد نزار وأفتكين فحبسهما ولم يظهر بعد ذلك لهما خبر، وإلى نزار هذا نُسب النزارية من الإسماعيلية.

بيعة الآمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، بُويع له بالخلافة بمصر يوم توفي والده المستعلي، وعمره يومئذ خمس سنين، والقَيِّمُ بأمره ووليُّه الأفضل أمير الجيوش، وإليه الحرب والأموال، وجميع الممالك.

وفي هذه السنة نازلت الفرنج طرابلس فحاصروها أشد حصار وصاحبُها يومئذ فخر الملك ابن عمار، فاستصرخ بالمسلمين، فنهض إليه عسكر دمشق مع الملك شمس الملوك دُقاق، وجناح الدولة حسين

صاحب حمص، فالتقوا بالفرنج، فكانت الغلبة للفرنج، وانهزم المسلمون أقبح هزيمة.

سنة ست وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة نازل السلطان بركياروق أخاه السلطان محمد بأصفهان وحاصره بها، وكان قد توجه إليها عقب الوقعة التي كانت بينه وبين أخيه، فاشتد عليه وعلى أصحابه الحصار، وضاقت عليهم الأمور، لقلة الميرة، فخرج السلطان محمد سراً في بعض أصحابه من بعض الأبواب، فأصبح على فراسخ من أصبهان، فبلغ السلطان بركياروق ذلك فجهز وراءه رجلاً من غلمانه يقال له إياز فلحقه وقد نزل لضعف خيله من قِلَّةِ العلوفة فذكرَّه محمد اليمين الذي له في عنقه فتركه، ومضى السلطان محمد فحشد وجمع واستخدم ثم كانت وقعة بينه وبين أخيه السلطان بركياروق فانهزم إلى بعض بلاد أرمينية، ثم سار إلى أخلاط، واستمرت الخطبة للسلطان بركياروق ببغداد.

وفيها كان استيلاء الملك شمس الملوك دقاق على حمص، وحدث ذلك أنه كان بحمص رجل يقال له جناح الدولة حسين، وكان من أصحاب الملك فَخْرُ المُلْكِ رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب ونائباً عنه بحمص، ثم تَغيرَّ عليه الملك رضوان فصار مع الملك دقاق وأتابك طغتكين، وانتسب إليهما، وخلع طاعة الملك رضوان، وكان مع الملك رضوان بحلب رجل من الباطنية فندب ثلاثة من أصحابه لقتل جناح الدولة، فقدموا إلى حمص في زِيِّ الصوفية، ووثبوا على جناح الدولة وقد جاء إلى الجامع لصلاة الجمعة فقتلوه ثم قُتلوا.

ولما قُتل جناح الدولة بلغ الخبر إلى أتابك طغتكين، والملك شمس

الملوك دقاق، وكاتبهما أكابر أهل حمص بأن يُنْفِذا من يتسلم حمص قبل انتهاء خبر قَتْل جناح الدولة إلى الفرنج، فسارا من فورهما إلى حمص، وتحصنا بقلعتها ووافق ذلك وصول الفرنج إلى الرستن قاصدين أخذ حمص، فلما بلغهم وصول الملك دْقاق والملك طغتكين إلى حمص واستقرارهما بها نكصوا على أعقابهم راجعين.

سنة سبع وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك شمس الملوك أبي نصر دقاق بن تاج الدولة تتش ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ن سلجوق صاحب دمشق، وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وكان سبب ذلك أنه حدث به مرض تطاول به، وقد ذكر بعض المؤرخين أن وفاته كانت في سنة ثلاث وتسعين وأن أمه زوجة أتابك طغتكين رَتَّبَتْ له جارية فَسَمَّتْه بعنقود عنب معلق في شجرته، ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم، وأن أمه ندمتْ على ذلك بعد الموت، وأومأت إلى الجارية أن لاتفعل، فأشارت إليها أنْ قد كان، وتهرَّى جوفه، فمات.

ولما تُوفي دقاق غَلَبَ على المُلْك بدمشق وأعمالها أتابك طغتكين الملقَّب ظهير الدين، وقد ذكرنا ابتداء أمره وقيامه بتدبير مملكة دقاق.

وفي هذه السنة كان استيلاء الفرنج على عكا، وكان من حديث ذلك أنّ بادوين ملك الفرنج المتغلب علي بيت المقدس سار في جموعه إلى ثغر عكا ومعه الجَنَوِيُّون من الفرنج في المراكب، فأحدقوا بها براً وبحراً، وكانوا في نَيِّفٍ وتسعين مركباً، فحاصروها من جميع جهاتها وملكوها بالسيف، وكان مُتَوَلِّيها يومئذ زهرة الدولة نبا الجيوشي من جهة صاحب

مصر، فخرج منها من خوفه وعجزه عن ضبطها، وهرب إلى دمشق ثم إلى مصر.

سنة ثمان وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق صاحب العراق وبلاد العجم، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة، بعد أن عهد بالسلطنة لولده جلال الدولة ملكشاه بن بركياروق بن ملكشاه، وعمره يومئذ أربع سنين وقام إياز مملوك أبيه بتدبير ملكه.

ولما بلغ السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وفاة أخيه السلطان بركياروق، قَدِمَ غياث الدين محمد على أمور جرت بينهما، ودخل السلطان محمد إلى بغداد، واستقرت له بها السلطنة، فلما استتب أمره قبض على إياز فقتله، وَصَفَتْ له الدنيا فلم يبق له منازع، وخلع عليه أمير المؤمنين المستظهر بالله خِلَعَ السلطنة، وقلّده العهد على ماوراء بابه.

سنة احدى وخمسمئة

في هذه السنة كان استيلاء الفرنج على طرابلس بالأمان، وكانت مدة حصارهم لها سبع سنين فإنهم نازلوها في سنة خمس وتسعين، وقد ذكرناه، وذلك بعد أن فَنِيَ من فيها بالجوع والضائقة، وقُتل خلق عظيم، وكانت مدينة عظيمة مملوءة من المسلمين والعلماء.

سنة ثلاث وخمسمئة

في هذه السنة جاءت الفرنج لعنهم الله إلى رفنية، وذلك بعد أن فتحوا طرابلس، فسار الأمير ظهير الدين أتابك طغتكين صاحب دمشق بعسكره إليهم، ونزل بإزائهم ثم جرت بينهم موادعة على أن يكون للفرنج ثلث مغل البقاع ويُسَلَّم إليهم حصن عكار وحصن المنيطرة، وأن يكون حصن مصياف، وحصن الطوبان، وحصن الأكراد للمسلمين، ويحمل أهلها للفرنج قطيعة مبينة، وأقام الفرنج مدة على هذه الموادعة ثم نكثوا وغدروا.

وفيها تسلمت الفرنج بيروت وملكتها بعد حصار شديد، وفيها توفي قراجا صاحب حمص فملكها بعده.

سنة سبع وخمسمئة

في هذه السنة تسلمت الفرنج صيدا وزردنا واستفحل أمرهم ببلاد الشام، وصارت بأيديهم جميع السواحل، فجهز السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه لحربهم رجلاً من قواده يقال له مودود، فلما وصل إلى دمشق وثب عليه باطني بالجامع فقتله، وكان قتله في سنة سبع وخمسمئة.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك فخر الدين رضوان بن الملك تاج الدولة تتش [1] بن رضوان بن تتش المعروف بالأخرس

سنة ثمان وخمسمئة

في هذه السنة قتل تاج الدولة تتش بن فخر الملك رضوان صاحب

حلب بالقلعة، فتسلم البلد والقلعة لؤلؤ خادم تاج الدولة، لكن الخطبة واسم المملكة لسلطان شاه بن رضوان بن تتش.

سنة تسع وخمسمئة

في هذه السنة سار ظهير الدين أتابك طغتكين صاحب دمشق إلى بغداد، لخدمة الخليفة المستظهر بالله والسلطان غياث الدين محمد، فأكرماه وخلعا عليه، ثم رجع إلى دمشق.

سنة عشر وخمسمئة

في هذه السنة قتل لؤلؤ صاحب حلب قريباً من بالس، وكان قد توجه من حلب مُريداً قلعة جعبر، فجلس بقلعة حلب بعده كاتب الجيش أبو المعالي ابن الملحي.

سنة احدى عشرة وخمسمئة

في هذه السنة سُلّمَت حلب إلى الأمير ايل غازي بن أرتق فأقام متملكاً لها خمس سنين.

وفي هذه السنة كانت وفاة غياث الدين محمد بن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وذلك بأصبهان في ذي الحجة، وعمره سبع وثلاثون سنة بعد أن عهد بالسلطنة لولده السلطان

أبي القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وخلَّف في خزانته أحد عشر ألف ألف دينار عيناً، ومن العروض مثلها، فخطب لابنه السلطان محمود ببغداد يوم الجمعة لسبع بقين من المحرم.

سنة اثنتي عشرة وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستظهر بالله أمير المؤمنين لسبع سنين بقين من ربيع الآخر، فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وشهوراً، وكان بين وفاة السلطان محمد ووفاة الخليفة المستظهر أربعة أشهر وأربعة أيام.

سيرته: كان رضي الله عنه كريم الأخلاق، ليِّن الجانب، سخي النفس، مُؤْثِراً للإحسان، محباً للعلماء، حافظاً للقرآن مُنكراً للظلم، كثير الصدقة، وله شِعْرٌ من جملته قوله:

أذابَ حَرُّ الهوى في القلب ما جمدا
يوماً مَدَدْتُ على رسم الوداع يدا
فكيف أَسْلُكُ نَهْجَ الاصطبار وقد
أرى خلائق في مهوى الهوى قَدَدَا
قد أَخْلَفَ الوعد بدرٌ قد شُغفت به
من بعد ما قد وَفَى دهري بما وَعَدا
إن كنتُ أنقضُ عهد الحب في خَلَدِي
من بعد هذا فلا عاينتُهُ أبدا

خلافة المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بن المقتدي بن الذخيرة بن القائم ابن القادر، وأمه أم ولد يقال لها طرفة، بويع له بالخلافة يوم توفي والده المستظهر، ولما بُويع له صلى على المستظهر وعجل في دَفْنِهِ لأنه رآه في النوم كأنه يقول له:أخرجني من عندك وإلا أخذتك إلى عندي، فعجَّل في إخراجه.

سنة ثلاث عشرة وخمسمئة

في هذه السنة انفصل الأمير أبو الحسن علي بن المستظهر بالله من الحِلَّة، وقد هرب من بغداد إليها، فصار إلى واسط ودعا إلى نفسه بالخلافة، فتبعه جماعة كثيرة، فجهز إليه أخوه المسترشد بالله الأمير دُبَيْس ابن صَدَقَة بن مَزْيَد صاحب الحِلَّة في جيش من العرب وغيرهم، فانهزم أبو الحسَن منهم وَتَاهَ في البريَّة ثم قُبض عليه بعد أن كاد يهلك من العطش وسُقي شربة من ماء، وأُتي به إلى الخليفة أخيه فحبسه في دار الخلافة، وكان أبو الحسن هذا شاعراً فاضلاً ولما حبسه أخوه المسترشد بالله[قال] يستعطفه:

فَأَشْمَتَّ أعدائي وأَوْهَنْتَ جانبي
وهِضْتَ جناحاً رَيَّشَتْهُ يَدُ الصَّبْرِ
وما كنت عندي بالمَلُوم ولا الذي
له الذَّنْبُ هذا قَدْرَ حَظِّيْ من الدَّهْرِ

ومن جملة شعر أبي الحسن بن المستظهر قولُه أيضاً:

قد جَدَّدَ الدهرُ في الورى محنا
وأَودَعَ الهجر في الحَشَا حَزَنَا

- ٩٩٢٠ -

لـو كـان شخـصٌ يمـوتُ مـن أَسَـفٍ
على حبيـب نَـأَى لكنـتُ أَنَـا

في هذه السنة ورد السلطان سنجر بن السلطان جلال الدين ملكشاه الريّ وملكها، وانهزم منه ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بعد حرب جرت بينهما، وكان مع السلطان سنجر خمسة ملوك على خمسة أَسِرَّةٍ منهم ملك غزنة، وكان معه من الباطنية ألف، وكان معه نحوٌ من أربعين فيلاً، ثم عاد محمد إلى عمه السلطان سنجر فأَمَّنَهُ وخدمه.

سنة أربع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة خُطب للسلطان محمود بن محمد وعمه سنجر ..بغداد وجميع الممالك وتلقب كل واحد منهما شاهان شاه.

وفيها انضم إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان جماعة كثيرة، واحتشد وأظهر الخلاف على أخيه السلطان محمود ابن محمد، ثم اقتتلا وكانت الكَرَّةُ للسلطان محمود، وانهزم السلطان مسعود إلى جبل فاختفى به، ثم بَعَثَ إلى أخيه محمود يطلب منه الأمان فأمنه، ولما كان الخُلْفُ واقعاً بين السلطانين مسعود ومحمود اغتنم سيف الدولة دبيس بن سيف الدولة صدقة بن مَزْيَد صاحب الحِلَّةَ اختلافهما، فسعى في أذيَّة بغداد، وعصى ونهب وسبى وافترش أصحابُه النساء، وأفسدوا إفساداً كلياً، وجبى أموال السلطان، فلما ظهر السلطان محمود على أخيه مسعود وكَسَرَهُ، أحرق دبيس ما استولى عليه من الغلات والأَنْهَاب خوفاً من السلطان محمود، ومضى إلى بغداد قاصداً للنهب، وتهدد دار الخلافة بنهبه، ثم عاد إلى الحِلَّة، ولما بلغ السلطان محمود ذلك أقبل إلى بغداد فدخلها، وسأل الخليفة المسترشد إطلاق أخيه أبي الحسن

ابنَ المستظهر بـالله من الحبس فبذل الخليفـة ثلاثمئة ألف دينـار ليسكت عن هذا ولا يطلبه، فأجابه وسكت.

سنة خمس عشرة وخمسمئة

في هـذه السنة وثـب ثـلاثـة أنفس على الأفضـل أمير الجيـوش بمصر فقتلـوه عند الجسر، وذلـك ليلـة عيد الفطـر، وفيهـا كسر أتابـك طغتكين صاحب دمشق الفرنج، وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها أخربت الفرنج جرش.

سنة ست عشرة وخمسمئة

في هذه السنـة توفي الأمير نجم الـدين ايل غـازي بن أرتق، صـاحب حلب، وقـد ذكرنا تَمَلُّكَـهَ لها، فملكها بعده ابـن أخيه بدر الـدين سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق. كانت وفاة أيل غازي بمدينة ميافارقين.

سنة سبع عشرة وخمسمئة

في هـذه السنة سَلَّـمَ سليمان بـن عبد الجبـار بن أرتـق مـدينة حلـب وقلعتها إلى عمه بلك بن أرتق، فتسلمها وملكها.

وفيها وُلي وزارة مصر رجل يقـال له المأمون بن البطـائحي، وكان أول

أمره فراشاً، وشوهد في صغره وهو يرشّ الماء بين القصرين بالقاهرة.

سنة ثمان عشرة وخمسمئة

في هذه السنة قُتل بلك بن أرتق على منبج، فتسلَّم حلب ابن أخيه تمرتاش بن ايلْ غازي بن أرتق، ثم مضى منها إلى ماردين، فجاء الفرنج لعنهم الله ونازلوها، وصحبتهم الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة بن مَزْيَد صاحب الحلة وأشرفوا على أخذ البلد لأنها كانت قد خَلَتْ من الرجال والميرة ولم يبق فيها غير مئتين وستين رجلاً، وأَجَّلَتْهُم الفرنج عشرة أيام، فلما كان اليوم التاسع عزم أهل حلب على الهزيمة في الليل بالنساء، فأرسل الله تعالى سيلاً عظيماً في قويق وذلك قبل العصر، فاقتلع خيم العدو وأغرق منهم خلقاً عظيماً وأتلف لهم مالاً جزيلاً، ولما كان بعد العشاء وصل آق سنقر البرسقي فكسر الفرنج في صبيحة تلك الليلة وملك البرسقي حلب واستقر له الملك، وكانت طائفة من الفرنج في هذه السنة قد نازلوا حماه، فلم يقدروا عليها ورجعوا.

فتحت الفرنج ثغر صور بعد حصار شديد وكان متوليها رجل يقال له عبد الملك من جهة المصريين فباعها للمصريين.

سنة تسع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة قبض الآمر بأحكام الله صاحب مصر على وزيره المأمون بن البطائحي وعلى أقاربه واعتقلهم.

نزل آق سنقر البرسقي صاحب حلب على أعزاز، فرحَّلَتْهُ الفرنج عنها مكسوراً، وقتلوا جماعة من أصحابه، وفيها قُتل محمود بن علي بن قراجا صاحب حماه على أفامية في قتال عظيم جرى بينه وبين الفرنج.

سنة إحدى وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة وقعت فتنة عظيمة بين الخليفة المسترشد بالله، وبين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وجرى بينهما اقتتال كبير ونهبٌ وحروب، ثم وقع الصلح بينهما، واتفق مرض السلطان فرحل إلى بغداد.

وفيها ولّى السلطان محمود شَحَنْكِيَّةِ بغداد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر، وفيها وثب جماعة من الباطنية على آق سنقر البرسقي صاحب الموصل وحلب فقتلوه بجامع الموصل في يوم جمعة، فولي مكانه ولده مسعود بن آق سنقر، وتسلم حلب رجل يقال له خطلبا، سلمها إليه رئيس حلب فضائل بن بديع فملكها من يده، ثم تسلمها أتابك زنكي وسنذكر ذلك.

ابتداء الدولة الأتابكية

كان جد بني أتابك زنكي: آق سنقر قسيم الدولة المعروف بالحاجب، وكان من أمراء الدولة السلجوقية ومقدميها، وقد ذكرنا استيلاءه على حلب في زمن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان، ثم صيرورته مع تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ومفارقته له بعد ذلك، وأنه خطب للسلطان بركياروق وانتمى إليه، ثم ذكرنا مقتله واستيلاء تاج الدولة، ثم تَوْلِيَةُ السلطان محمود بن محمد ولده زنكي بن آق سنقر شَحنكية بغداد.

ولما قُتل آق سنقر البرسقي صاحب الموصل، وولي ولده مسعود، سار القاضي بهاء الدين بن الشهرزوري، ونصير الدين جقر، وصلاح الدين محمد الأغسياني إلى بغداد، وحملوا معهم خزانة مال للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ليُقِرَّ مسعود بن آق سنقر البرسقي بالموصل، فلما وصلوا ارتأوا في القِصَّة وفكروا فيها وقالوا: هذا مسعود (٢) صبي، وربما لايقوم بالملك، فاجتمعوا بزنكي بن آق سنقر، وهو يومئذ شحنة بغداد من جهة السلطان محمود، وقرروا معه أنهم يسعون له في تملك الموصل بشرط أن يكون [القضاء]بها وبأعمالها للقاضي بهاءِ الدين بن الشهرزوري، ويكون النظر في المصالح والخاصة لنصير الدين جقر، والحجبة ونظر العساكر لصلاح الدين الأغسياني، فأجابهم إلى ذلك فقرروا مع الخليفة المسترشد بالله أن يكون زنكي أميراً على ا لموصل، وأشاروا إليه بأن يطلب ذلك من السلطان،وكتب السلطان إلى الخليفة في تسليم الموصل لسيف الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد، فأجابه الخليفة بأن دبيساً مايصلح أن يكون جاراً لنا، وأظهر له كراهة ذلك، وأنه يختار زنكي بن آق سنقر، وبذل الخليفة المسترشد بالله مئة ألف دينار للسلطان محمود على أن يولي زنكي الموصل، فأجاب السلطان إلى ذلك، ولدين له يقال لهما ألب أرسلان والخفاجي ووقَّع لهما بالأموال والبلاد، وجعل

زنكي بـن آق سنقر شحنة بغداد أتـابكاً لهما، ثم قيـل لزنكي أتابـك، ثم سـار أتابـك زنكي وولـدا السلطان وبهاء الـدين بـن الشهرزوري وجقـر وصلاح الـدين الأغسياني جميعاً إلى الموصـل في شهر رمضان، وبقـي ولدا السلطان بـالموصل مع زنكي يخطـب لهما ويُظِهر أنه قـائم بتدبير ملكهما، ثم توفيا ولم يملكا.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمئة

في هذه السنـة كان استيلاء أتابـك زنكي على حلب، وخبر ذلـك أنَّا كنَّـا قد ذكـرنا أنـه استولى على حلـب بعد قتـل البرسقي رجـل يقال لـه خطلبا، ولما كانت هـذه السنة واستقرت قدم أتابك زنكـي بن آق سنقر بالموصـل وملكها سـار إلى حلب فسلَّمـت إليه فملكهـا واجتمعت إليـه الموصـل وحلب وعظُمـت مملكتـه، واتسعت خطتـه، وقـد قيل إنَّ تملُّـك أتابك لحلب كان في سنة إحدى وعشرين، والصحيح ماذكرته.

وفي هذه السنـة كانت وفـاة أتابـك طغتكين صاحب دمشـق، فملك بعده ولده تاج الملوك بوري بن طغتكين.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمئة

في هـذه السنة فتحـت الفـرنج بـانياس، وكـانـت في يد الإسماعيليـة، وذلك بعد قتال شديد، وفيها وقعـت حرب بين السلطان محمود بن محمد ابن ملكشـاه وبين سيف الدولـة دبيس بن صدقـة صاحب الحلـة، وذلك بعد فتـن وقعت بين دبيس والخليفة المسترشـد بالله، فأفسـد وحرق ونهب

وعاث، وأخرب البلاد، فقصده السلطان فهرب منه ومامر ببلد ولا قرية إلا أفسدها ونهبها، ومضى إلى البصرة ففعل ذلك، ثم مضى إلى الكوفة ففعل مثل ذلك.

سنة أربع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة قصدت الفرنج لعنهم الله دمشق، وصاحبُها يومئذ تاج الملوك بوري بن طغتكين، فخرج إليهم بعساكره وبأهل البلد وقاتلهم وكسرهم وقتل منهم زُهاء عشرة آلاف نفس ولم يُفلت منهم إلا أربعون رجلاً.

وفيها فتح أتابك زنكي بن آق سنقر مدينة حماه واستولى عليها، وفي هذه السنة كان مقتل الآمر بأحكام صاحب مصر وكان من حديث ذلك أنه وثب عليه عشرة من المماليك ومقدمُهم مملوك أرمني فقتلوه ومَلَكَ الأرمني القاهرة، وفرَّق الأموال والعساكر وأراد أن يتأمَّرَ عليهم فخالفوه ومضى بعضهم إلى أمير الجيوش أحمد بن الأفضل وطلبوا منه أن يقاتل الأرمني، ويملك القاهرة، وهم معه ففعل، وأتى القاهرة، وحاصر القاهرة حصاراً شديداً حتى ملكها، ونهبها ثلاثة أيام، وظفر بالأرمني فقتله، واستقر له الأمر بها وبايع بالخلافة للحافظ. وكان مقتل الأرمني في ذي القعدة فكانت مدة ملكه ثمانياً وعشرين سنة، وتسعة أشهر وأياماً.

سنة خمس وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كانت بيعة الحافظ لدين الله وهو أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، وغلب على أمره أمير الجيوش أحمد بن الأفضل، ثم قبض على الحافظ من بعد مُدَيْدَةٍ من توليته، فلم يزل في اعتقاله إلى سنة ست وعشرين.

وفي هذه السنة ضَلَّ الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة عن الطريق، وذلك لما انهزم من الخليفة والسلطان محمود، وكانا قد نَبَّا طائفة من العرب خلفه، فلم يزل يتنقل في حلل العرب فمنهم من يَرُدُّه ومنهم من يُجِيْرُه ويقوم معه، فلما كان قريباً من أراضي الشام ضَلَّ الطريق فقُبِضَ عليه وأُتِيَ به إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، فقبض عليه تاج الملوك وباعه من أتابك زنكي بن آق سنقر صاحب حلب [٣] والموصل بخمسين ألف دينار فأكرمه أتابك زنكي وأحسن إليه، وخَوَّلَهُ المال.

وفيها كان مقتل تاج الملوك بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق، وذلك أنه قفزت جماعة من الباطنية فقتلوه، فملك من بعده ولده شمس الملوك اسماعيل بن بوري بن طغتكين.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، فقُلِّد الملك بَعدَهُ ولده السلطان داود بن محمود بن محمد وخُطب له بالجبل وأذربيجان، وجعل أتابكة الأحمديلي، ووزيره أبا القاسم الوزير، فَدَبَّرا أمره، وقاما بأحوال عساكره، ثم تجملا وحشدا لحرب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه عم السلطان داود، ولما بلغ السلطان مسعود ذلك تقدم بقطع الجسور التي في طريقهم فقطعت.

سنة ست وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة وثب على أحمد بن الأفضل أمير الجيوش بمصر صِبْيَانٌ من الخاصة فقتلوه، وأخذوا رأسه ودخلوا به إلى القصر، وأخرجوا الحافظ من الإعتقال، وعاد إلى ولايته واسْتَوْزَرَ يانس ولقَّبَه بألقاب أمير الجيوش.

وفي هذه ا لسنة كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان، وبين أخيه السلطان مسعود بن محمد وقراجا الساقي.

ذِكْرُ الخبر عن هذه الوقعة

قيل وصل السلطان مسعود بن محمد إلى بغداد في عشرة آلاف، ووصل قراجا ومعه سلجوق شاه بن محمد وكل واحد منهما أعني السلطان مسعود وأخاه سلجوق شاه يطلب السلطنة لنفسه، وانحدر زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل وحلب ليكون مع السلطان مسعود، فلما بلغ تكريت خَلَّفَ قراجا سلجوق شاه في عدد يسير ليكون في في مقابلة السلطان مسعود، وأسرى في يوم وليلة إلى تكريت فواقع أتابك زنكي فهزمه، وأسر جماعة كثيرة من أصحابه وعاد ثم دخل السفراء بين الأخوين مسعود وسلجوق شاه فاصطلحا واجتمعا وتحالفا ودخل قراجا معهما في اليمين واستحلفا الخليفة المسترشد بالله على التوافق والتعاضد، وكان قراجا يتحكم على مسعود وسلجوق جميعاً. ولما بلغ السلطان سنجر ذلك قصد بغداد بعساكره فخرج مسعود وسلجوق وقراجا إلى لقائه، وخرج المسترشد بالله بنفسه إلى مضارب ضُربت له بظاهر بغداد، وقُطعت خطبة السلطان سنجر، ثم ساروا إلى خانقين ووصل السلطان سنجر إلى همذان ومعه مئة ألف وستون ألفاً، ومع مسعود وسلجوق

ثلاثين ألفاً، فالتقوا بموضع قريب من الدينور فاقتتلوا فقُتل من الفريقين أربعون ألفاً، وقُتل قراجا الساقي، ثم عاد السلطان سنجر إلى بلاده ثم كاتب السلطان زنكي وسيف الدولة دبيس بن صدقة في قصد بغداد وفتحها، فتجمعا وقصدا بغداد في سبعة آلاف فارس، والمسترشد بالله إذ ذاك بخانقين فعاد منها وقد شارف أتابك زنكي بغداد من غر بيّها، فَعَبَر الخليفة إلى الجانب الغربي في ألفي فارس، وضعف عن لقائهما، وانكسرت ميمنته فكشف الطرحة عن رأسه ولبس البُرْدَة، وجذب السيف وحمل في عسكره فانهزم زنكي ودبيس وقتل من أصحابهما مَقْتَلَةً عظيمة، ثم طلب أتابك زنكي من المسترشد تكريت وطلب دبيس سقي الفرات.

سنة سبع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بغداد وخُطب له بها بالسلطنة، ولابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد من بعده، وخلع عليهما الخليفة المسترشد بالله.

وفيها سار المسترشد إلى الموصل لأخذها في اثني عشر ألف فارس، فوصلها في العشرين من شهو رمضان وبها أتابك زنكي بن آق سنقر فحصرها ثمانين يوماً، ثم رحل عنها بغتةً، فقيل لأنه بلغه غَدْرُ السلطان مَسْعُوْدٌ به وأنه قد عزم على مصالحة دبيس بن صدقة، وقيل بل كان ذلك لأن أتابك زنكي بذل له الطاعة، وأن يحمل إليه ما غَرِمَهُ من الأموال.

سنة ثمان وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة مال أكثر الجند والقواد إلى السلطان طغرل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، وتقررت قواعده، وملك همذان وغيرها، وصار أكثر العسكر معه، ولم يبق مع أخيه السلطان مسعود بن محمد إلاّ القليل، وكان السبب في ذلك أن الخليفة المسترشد بالله بعث إلى خوارزم شاه خِلَعاً، فأشار دبيس بن صدقة على ا لسلطان محمد بن طغرل بن محمد بأن يقطع الطريق على الرسل ويأخذ منهم الخلع ويلبسها، ويُظْهِر أن الخليفة بعث إليه بها ففعل ذلك، فمال أكثر العساكر إليه ولم يبق مع السلطان مسعود إلاّ القليل، فانزعج الخليفة من ذلك وكتب إلى السلطان يستحثه في القدوم عليه ليرفع من قدره، فقدم بغداد متنكراً خوفاً من أخيه السلطان طغرل، فخلع الخليفة عليه وطوّقه وسوّره، وَتَوَّجهُ، وبعث إليه تُحفاً بثلاثين ألف دينار، فلما بلغ السلطان طغرل ذلك أقبل إلى بغداد في جموعه فمات في الطريق وذلك في ثالث المحرم سنة تسع وعشرين.

سنة تسع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل شمس الملوك صاحب دمشق، وكان من حديث ذلك أن والدة شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين أتابك طغتكين المُسَمَّاة بياقوت خاتون أمرت بولدها شمس الملوك فقُتل بين يديها وهو يستغيث إليها: الصنيعة الصنيعة، زنهار زنهار، ولما قضى نحبه جعلته في بساط ملفوف ثم أمرت الأمراء بالدخول عليه، فدخلوا فنظروا إليه مقتولاً، فقالت: انظروا إلى سلطانكم وما عمل به من

ظلمه للناس، ثم أحضرتْ له أخاً له صغيراً يلقَّب بشهاب الدين، فَعَقَدتْ له السلطنة، وقامت بتدبير مملكته.

وفي هذه السنة سار السلطان مسعود بن محمد إلى همذان واستقر ملكه بها، ثم عزم على قصد بغداد وتملكها ونفذ مقدمته أمامه، وأظهر التغّير الكلّي، ولما بلغ الخليفة المسترشد ذلك جهز العساكر وبعث مقدمته في ألفين وخمسمئة فارس إلى المرج، وتجهز للقاء السلطان مسعود، فبعث السلطان مسعود سيف الدولة دبيس بن صدقة في خمسة آلاف فارس، فكبسوا مقدمة الخليفة وأخذوا خيلهم وأموالهم فعادوا إلى بغداد عُراة مشاة فكساهم الخليفة وأطلق لهم ثمانين ألف دينار، وقُطعت خطبة السلطان مسعود ببغداد، وخُطب لعمه السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وبعده لابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد.

ولما كان ثامن شعبان رحل الخليفة في عساكره وهم سبعة آلاف، وكاتَبه أصحاب الأطراف بالطاعة، وكان السلطان مسعود بن محمد في همذان في ألف وخمسمئة فارس فما زال يستخدم وتميل إليه العساكر حتى صار في خمسة عشر ألف فارس، وتسلل إليه من أصحاب ا لخليفة ألف فارس، فصار الخليفة في ثمانية آلاف فارس، ثم التقوا في عاشر رمضان فأسر الخليفة المسترشد بالله، وانهزم أصحابه، واستبيح ماكان معه من الأموال، ونادى السلطان في أصحابه: المال لكم والدم لي فمن قَتَل أَقَدْتُهُ، فلم يُقْتل من الصفين سوى خمسة أنفس غلطاً، ونادى السلطان في أصحاب الخليفة: من أقام بعد الوقعة ضَرَبْتُ عنقه فهرب الناس إلى رؤوس الجبال، فتخطفهم التركمان والأكراد وأُفلت منهم جماعة عراة، فتوصلوا إلى بغداد، وقد تشققت أرجُلُهم من المشي والحفا.

ولما بلغ أهل بغداد أَسْرُ الخليفة كسروا المنابر، ومنعوا الخطيب من الخطبة، وحَثُوا على رؤوسهم التراب، وضَجُّوا بالبكاء والنحيب، فسَيَّر

السلطـان مسعود شحنـة إلى بغداد، فجـرى قتال فقُتـل من العـامة مئـة وثـلاثون ألفـاً وخمسـون رجلاً، ونـادى في النـاس: إنَّـا جئنا لنُصْلِـح وإن السلطـان مسعود قـد سار بين أيـدي أمير المؤمنين وعلى كتفـه الغاشيـة، فسكن الناس وهجعوا، وسـار السلطان مسعود إلى باب مراغة طـالباً ابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمـد، والخليفة المسترشد بالله معه، وقد ضرب له دهليز خيمة أقعده فيها.

مقتل المسترشد بالله

ثـم إنـه ورد كتاب مـن السلطـان سنجـر بـن ملكشاه إلى ابـن أخيـه السلطـان مسعود بـن محمد بـأن يَرُدَّ الخليفـة إلى مستقر عِـزِّه، ويبالـغ في تعظيمه ويفعل في ذلك ماجرت به عادة آبائهم في خدمة هذا البيت، وأن يُسَلِّم إلى الخليفـة دبيساً ليرى رأيه فيه، فـأمر السلطان مسعـود فضُربت سرادق للخليفة، ونُصبـت له سُـدَّةٌ عاليـة، وأحضر إليه مـركوب فـركب متـوجهـاً إلى السرادق المضروب لـه والسلطـان بين يـديـه، وعلى كتفـه الغاشيـة، واللجام بيده، وجميـع الأمراء مشـاة إلى أن دخل السرادق وبين الموضعين نصف فرسـخ، ثم سلم إليه دبيس وهـو يتضرع ويبكي، فعفا عنه الخليفة، ثم وصلت رُسُل السلطـان سنجر تَسْتَحِثُّ السلطان مسعود على إعادتـه إلى داره، ووصل مـع الرسل عسكـر كثيف ووصـل صُحْبَتُهم سبعة عشر رجـلاً من الباطنيـة، وكان ظـاهر الأمر أن السلطـان سنجر لم يعلم بهم، وفي الباطن كان ذلك بتـدبير السلطان سنجر ومسعود، فخرج السلطـان مسعـود في عسكـره ليلتقي رسـل السلطـان سنجـر فهجمـت البـاطنية على الخليفـة المسترشـد بالله فقتلـوه وضربـوه بالسكـاكين إلى أن قتلوه، وقتلـوا معه جماعة مـن أصحابـه وذلك يوم الخميـس لثلاث عشرة ليلة بقيـتْ من ذي القعده، وقُبض على البـاطنية فقُتلوا وأظهـر السلطان

مسعود القلق العظيم وجلس للعَزاء، ووقع البكاء والنحيب وذلك على باب مراغة، فغُسِّلَ وكُفِّنَ، وحُمِل إلى بغداد، وكان فيها من البكاء والنحيب والضجيج مايتجاوز الوصف. وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، وكان عمره خمس وأربعين سنةوشهوراً.

سيرته: كان له همة عالية وشجاعة وافرة وإقدام زائد، وكان له شعر حسن من جملته قوله في قصيدة:

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم
ومن يملك الدنيا بغير مزاحم
ستبلغ أقصى الروم جندي وتنتضى
بأقصى بلاد الصِّين بيْضُ صوارمي

- ٩٩٣٤ -

خلافة الراشد بالله

أبو حفص المنصور بن المسترشد بن المستظهر بن المهتدي بن الذخيرة ابن القائم بن القادر، وأُمُّه أُم ولد، بويع له الخلافة ببغداد في العشر الأخير من ذي القعدة من هذه السنة، وكوتب السلطان مسعود بن محمد بالبيعة له فأجاب، وأمر شحنته ببغداد بأخذ البيعة ففعل ذلك.

وفيها قَتَل السلطان مسعود سيف الدولة دبيس بن صدقه، فقيل كان السبب في ذلك أنه وَجَد له السلطان كتاباً إلى أتابك زنكي صاحب الموصل يقول فيه: لاتجيء إلى السلطان واحفظ نفسك منه.

وكان بين قتل المسترشد وبين قتله ثمانياً وعشرين يوماً.

سنة ثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان خَلْعُ الراشد بالله، وكان من حديثه أنه قَدِمَ أتابك زنكي بن آق سنقر ويرنقش الباز دار إلى بغداد واتفقا مع الراشد بالله على محاربة السلطان مسعود، واستخدم الراشد بالله أجناداً كثيرة وتهيأ هو ومن معه للقاء السلطان، ثم كاتب السلطان محمود أتابك زنكي سراً واستمالَه، وكذلك فعل مع يرنقش، فأشير على الراشد بالتوقف، وأقبل السلطان بجيوشه فدخل بغداد وذلك في ذي القعدة ونهب دواب الجند وأظهر العدل وشحن المحال، ومنع من النهب واستمال الرعية وجمع القضاة والشهود، فَقَدَحُوا في الراشد بأنه صدرت منه سيرة قبيحة وسفك الدماء المعصومة، وفعْل مالا يجوز، وشهدوا بذلك وحكم قاضي بغداد بخلعه فخُلع من الخلافة لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة

بحكم الحاكم، وبويع المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر وهو عم الراشد.

وأما الراشد و أتابك زنكي فإنهما هربا إلى الموصل قبل دخول السلطان بغداد، وأقام الراشد بالموصل، فكتب السلطان إلى أتابك زنكي في القبض على الراشد وإرساله إلى بغداد، فامتنع أتابك زنكي من ذلك لكونه ضيفه وجَهَّزه إلى مراغة، فمضى الراشد إلى مراغة فوصل إليها وملكها وأقام بها أياماً، ثم خرج منها يطلب خراسان، فلما قَرُبَ من بلاد الباطنية جَرَّد السيف فقتل منهم جماعة، ثم عاد يطلب همذان.

ولما بلغت السلطان أخبار الراشد سار خلفه إلى همذان فاجتمع الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزبه صاحب خوزستان على قتال السلطان مسعود وحاربوه فكانت الكَرَّةُ على السلطان فقُتل من أصحابه خلق عظيم وأُسر مثلهم، ثم طُعن منكورس اتفاقاً بعد أن كان له الظفر، فانهزم أصحابه، وسار الراشد إلى أصبهان فدخل عليه جماعة من الباطنية فقتلوه وهو مريض، وقيل بل سُمَّ بها ودفن بمكان يقال له شهرستان على فرسخ من أصبهان، وقيل بل دفن في جامع أصبهان بالمدينة العتيقة التي يقال لها جي، وكانت وفاته في سنة اثنتين وثلاثين، وكانت مدة خلافته إلى أن خُلع سنة واحدة إلاّ أياماً، وكان عمره إحدى وعشرين سنة.

صفته: كان أبيض جسيماً تشوبه حُمرة، حَسَنَ الوجه.

سيرته: كان مُفَوَّهَاً فصيحاً عنده شهامة ورِجْلَةٌ وكَرَمْ، ولم يُخْلَع بعده أحد من الخلفاء إلى هذه الغاية، وذكر بعض المؤرخين شيئاً عجيباً، وهو أنه كل سادس من خلفاء الإسلام قام بأمر الناس فإنه لابُدّ وأن يُخْلَع أو يُقتل وذلك أنّه أول قائم بأمر الناس محمد رسول الله ﷺ، ثم أبو بكر،ثم

عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم كان السادس الحسن بن علي فخُلع من الخلافة، ثم ولي معاوية، ثم يزيد بن معاوية، ثم مروان بن الحكم، ثم عبد الملك بن مروان ثم كان عبد الله بن الزبير السادس فخلع وقتل، ثم ولي الوليد، ثم سليمان ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد، ثم هشام، ثم كان الوليد بن يزيد فخلع وقتل، ولم ينتظم لبني أمية أمر بعده.

وقام السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم كان الأمين السادس فخلع وقتل، ثم ولي المأمون، ثم المعتصم، ثم ولي الواثق ثم المتوكل، ثم المنتصر، ثم كان المستعين السادس فخلع وقتل، ثم ولي المعتز، ثم المهدي، ثم المعتضد، ثم المكتفي، ثم كان المقتدر السادس فخلع مرتين ثم قُتل،

ثم ولي القاهر، ثم الراضي، ثم المتقي، ثم المستكفي، ثم المطيع ثم كان السادس الطائع فخلع من الخلافة، ثم ولي القادر، ثم القائم، ثم المقتدي، ثم المستظهر، ثم المسترشد، ثم كان الراشد السادس فخُلع وقُتل.

ثم ولي المقتفي، ثم المستنجد، ثم المستضيء، ثم الناصر، ثم الظاهر ثم مولانا أمير المؤمنين المستنصر بالله وهو السادس، فنسأل الله تعالى أن يخلد ملكه ويَخْرِقَ به العادة التي ذكرتُ، فإنه لم يكن مثله في كرمه وعدله واحسانه وقيامه بجهاد الكفرة، وذَبِّهِ عن الدين الحنيفي.

خلافة المقتفي لأمر الله

هو أ بو عبد الله محمد بن المستظهر بن المقتدي بن الذخَيْرَة بن القائم ابـن القادر، وأمـه أم ولـد تُدعـى ياغـي وتُلَقَّـبُ ستُّ السـادة، بـويع لـه بالخلافـة يوم خُلع ابـن أخيه الراشد بـالله، ولُقِّب المقتفي وسبـب تلقيبه ذلك أن المقتفي رأى رسـول الله ﷺ في النوم قبل خلافته بستـة أيام وهو يقول لـه: سيصل هـذا الأمر إليك فـاقْتَفِ بي، فلُقـب لذلـك، وخطب لأمير المؤمنين المقتفـي، وبعـده للسلطـان محمود بـن ملكشـاه بـن ألـب أرسلان، ونادى السلطـان في الناس ببغداد بالعدل ونهى عـن النهب، ثم أخذ جميـع ماكان في دار الخلافة مـن خيل وبغال، وآلات وفضـة وغيرها، ولم يترك للخليفة في الاصطبـل الخاص سوى أربعـة أفراس وثـلاثة بغـال برسم الماء، وكانت البيعة للمقتفي على ان لايكون عنده ولا له آلة فرس.

سنة إحدى وثلاثين وخمسمئة

في هـذه السنـة تـزوج أمير المؤمنين المقتفـي لأمـر الله بنـت السلطـان محمد، أخت السلطان مسعود، ونُثرت الجواهر وتماثيل العنبر والكافور.

وفيها قدم السلطان داود بن محمود بن محمـد بن ملكشاه لمحاربة عمه السلطان مسعود، فخرج إليه السلطان مسعـود من بغداد، وضربا مصافاً بينهما، فقُتل مـن أصحاب السلطان مسعود خلـق عظيم، وكانـت الغَلَبَة للسلطان داود ثم عاد كل فريق إلى عسكره.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كسر أتابك زنكي بن أق سنقر [الفرنج] على رفنية، وأخذ منهم بارين، وكان ذلك فتحاً جليلاً.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة توفي شهاب الدين بن تاج الملوك بوري صاحب دمشق فغلب على الأمر الأمير بهرام شاه، ثم قدم أخوه جمال الدين محمد من بعلبك وتسلم دمشق وجعجع بأخيه بهرام شاه، وجمال هذا هو والد مجير الدين ومعين ا لدين(٤).

سنة أربع وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة توفي جمال الدين محمد صاحب دمشق فملكها بعده ولده مجير الدين [وجعل] إلى أخيه معين الدين التدبير.

سنة ست وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان وخوارزم شاه وهو علاء الدين أتسز، ودخل خوارزم شاه مَرْوْ وَوَلِيَهَا.

وفيها كانت الوقعة العظيمة بين السلطان سنجر وكافر ترك، وكان سببها أن السلطان سنجر لما واقع خوارزم شاه قتل أخا خوارزم شاه،

فبعث خوارزم إلى كافر ترك مستنجداً بهم، وكان سير لهم خدمه فأتوا قاصدين السلطان سنجر والتقوا بما وراء النهر فانهزم السلطان سنجر وبلغت هزيمته إلى ترمذ، وأفلت في نفر قليل، ودخل بلخ في ستة أنفس، وقتل من اصحابه مئة ألف أو يزيدون فيقال أنه ممن قتله كافر ترك أحد عشر ألف وأربعة آلاف أمير.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، قتله جماعة اغتالوه ولم يُعرفوا.

سنة تسع وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان فتح الرها ،وكان من حديثها أنه نازلها أتابك بن آق سنقر، وهي بيد الفرنج على حين غفلة منهم، ونصب عليها المجانيق ونقب سورها، وطرح فيها الحطب والنار فتهدم، ودخلها عنوة، فحاربهم فظفر المسلمون بهم وغنموهم، وكان فيها من أسارى المسلمين أكثر من خمسمئة فاستنقذوهم.

سنة إحدى وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل أتابك زنكي الشهيد رحمه الله، وكان من خبر ذلك أنه نازل قلعة جعبر وكان صاحبها يومئذ علي بن مالك، ولما أشرف على أخذها اتفق أنه توعَّد بعض غلمانه فخافوا منه، وكان شديد الهيبة مخوفاً فوثبوا عليه وهو نائم فقتلوه، فحمل إلى الرقة، ودفن في مشهد هناك.

سيرته: كان رحمه الله عادلاً مجاهداً في سبيل الله، حسن السيرة، شديد الاهتمام بمصالح الرعية واثر آثاراً حسنة، ووقف وقوفاً كثيرة بالموصل من المدارس والربط وغيرها، وخلف بنين أربعة هم: الملك العادل نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير أميران.

استيلاء الملك العادل نور الدين على حلب

ولما قتل أتابك زنكي الشهيد بن آق سنقر، سار ولده الملك العادل، ومعه صلاح الدين الأغسياني إلى حلب وكانا عند أتابك لما قتل، فأخذا خاتمه ومضيا إلى حلب فسلماه إلى النائب بها فعرف الخاتم، وسلم حلب إلى الملك العادل، فملكها واستولى عليها.

وأما سيف الدين غازي بن أتابك زنكي فإنه لما قُتل والده، وكان في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، كتبوا إليه من الموصل يطلبونه لها، فركب من وقته، وسار إليها ودخلها وملكها، وكان بالموصل ألب أرسلان والخفاجي ابنا السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي وقد ذكرناهما فقيل لهما: إن سيف الدين غازي قد عزم على القبض عليكما، فاجتمعا في مماليكهما واعتدا للقتال، وجرى بينهم وبين غازي وأصحابه حرب كثير، ثم اتفق رأي الجماعة على خديعة السلجوقيين وأحضروا قاضي القضاة فمضى إليهما وقال لهما: البلاد لكما، والمصلحة أن تصعدوا إلى القلعة وتوليا فيها من تريدان فلما صعدا إلى القلعة ضُبطت عليهما وقُيِّدا أياماً، وبُعثا إلى قلعة بقرب سنجار فخنقا بِوَتَرِ قَوْسٍ، وقيل بل فُعل ذلك بالخفاجي فقط (٥).

واستتب الملك بالموصل وأعمالها لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي،

وبحلب وأعمالها لأخيه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي.

وأما نصرة الدين أمير أميران فحبسه أخوه سيف الدين في قلعة الموصل.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة دخل ثلاثة ملوك من الفرنج إلى بيت المقدس، فصلوا فيه صلاة الموت، ثم انحدروا إلى عكا، فاجتمعوا فيما يقال في سبعمئة ألف وعزموا على قصد بلاد المسلمين، فخافهم أهل الشام خوفاً شديداً، فلما كان سادس ربيع الأول لم يشعر أهل دمشق إلا وعلى بابها ستة آلاف فارس، وستون ألف راجل فخرج إليهم المسلمون وقاتلوهم فقتل من المسلمين خلق ومن الفرنج كذلك.

فلما كان خامس يوم نزولهم وصل الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله إلى حماة نجدة للمسلمين في نحو عشرة آلاف فارس، ووصل أخوه سيف الدين غازي صاحب الموصل في قريب من ذلك، ثم أنزل الله نَصْرَهُ على المسلمين وانهزم الفرنج عن دمشق خائبين، وقُتل من الفرنج مالا يُحصى.

وكان من جملة من استشهد في هذه النوبة شاهان شاه بن نجم الدين أيوب، أخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله.

وفي هذه السنة تسلَّم الملك العادل نور الدين رحمه الله حصن أفامية من الفرنج بعد حصار شديد، وقَتَل صاحب أنطاكية، واستولى على عسكره، وفتح قلاعاً كثيرة من بلاد الفرنج.

سنة أربع وأربعين وخمسمئة

في هـذه السنة كـانت وفـاة سيف الـدين غـازي بن زنكـي صاحـب الموصل، وكـان قد قصـد حصار ماردين وهي بيـد الأمير حسام الـدين تمرتاش بن ايل غـازي بن أُرتق، وكان سبب ذلك أن أتـابك زنكي كان صديقـاً لحسام الديـن هذا، فاتفق أن حسـام الدين عمـل لأتابك يـوماً ضيافـة بقلعة ماردين واجتمعـا فيها فقال لـه أتابك: لاترجـع تصعد إلى قلعتك مثلي فإني أنصحك. فقال له حسام الدين: وأنا أنصحك لاترجع تسلّم نفسك إلى مثلي، ثم افترقا، فلما قُتل أتابـك اشتفى به حسام الدين، فبلغ ابنـه سيف الـدين ذلك فقصـده وأغار عليـه، ثم ا صطلحـا وتزوج سيف الدين غازي بنت حسام الدين، ولم يدخل بها، ثم مرض في عودته فمات في الطريق قريباً من الجزيرة، فقيل أنه سُمَّ، وقيل مات حَتْفَ أنفه.

ولما تـوفي سيف الـدين مَلَـكَ الموصل بعـد ذلـك أخوه قطـب الديـن مودود بن زنكي.

وفي هذه السنة كـانت وفاة الحافظ لـدين الله صاحب مصر، فكـانت مدة ملكه ثمان عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرين يوماً.

بيعة ا لظافر بالله

هو أبو المنصور اسماعيل بن الحافظ، بويع له بالخلافة في القاهرة يوم توفي والده الحافظ وقام بوزارته سليم بن مصال ويلقب بالأفضل، فخرج عليه الملك العادل أبو الحسن على بن سباسلار الملقب بالمظفر فقتله، وولي الوزارة إلى أن قتله ابن امرأته نصر بن عباس بن تميم المغربي في سادس محرم سنة ثمان وأربعين، وولي الوزارة بعده عباس بن أبي الفتوح وتلقب بالأفضل.

وفي هذه السنة استوزر الخليفة المقتفي لأمر الله الوزير يحيى بن محمد ابن هبيرة، ولقَّبَهُ عون الدين.

سنة سبع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وذلك بباب همذان.

سيرته: كان ملكاً شجاعاً بعيد الهمة، أَبِيَّ النفس، متيقظاً بصيراً بالحروب، ولما مات عقد العسكر السلطنة لابنَ أخيه السلطان ملكشاه ابن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وقام بأمره خاص بك التركماني.

ولما استقر لهما الأمر قال خاص بك لملكشاه: إني أريد أن أقبض على أخيك محمد شاه وأسلمه إليك، فَطَرِيْقُهُ أن أقبض عليك وأخبره أني قد قبضت عليك لأسلمه إليك، فقال له ملكشاه: إفعل ماتريد، فقبض خاص بك على ملكشاه وكتب إلى محمد شاه يستدعيه إلى السلطنة فجاء

إلى همذان، وتلقاه خاص بك وحمل إليه جُمَلاً كثيرة من مال وخيل فقبل ذلك، وجاءه الأمراء وغيرهم يخاطبونه في حوائجهم فقال لهم: مالكم معي كلام وإنما كلامكم مع خاص بك فمهما أَشَارَ به فهو الوالد والصاحب، والكل تحت أمره. فوصل هذا الكلام إلى خاص بك فاسترسل إليه فقبض عليه محمد شاه في الوقت وقتله، واستولى على ذخائره، و«من حفر لأخيه المؤمن قَلِيْباً ألقاه الله فيه قريباً».

سنة ثمان وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت الوقعة العظيمة بين السلطان سنجر بن ملكشاه وبين الغُزّ، فكُسر سنجر كسرة عظيمة، واستبيح عسكره قتلاً وأَسْرَاً، وهجموا نيسابور فقتلوا معظم من فيها من الجند والعلماء والعوام، ثم توجهوا إلى بلخ فملكوها، وكانت عُدَّتُهُم فيما ذُكر مئة ألف خركاه.

ثم أسروا سنجْر واحتاطوا به، وخطبوا له لما ملكوا بلاده، وقالوا: أنت السلطان ونحن أجنادك ولكنَّا لانأمنك فبقي في أَسْرِهِ مَحُوطاً عليه مُقيماً في أيديهم إلى أن مات.

سنة تسع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل الظافر بالله صاحب مصر، وحديث ذلك أنه وثب به عباس بن تميم وابنه نصر فقتلاه وأخفيا مكانه، وذلك في سلخ شعبان وعمره إحدى وعشرون سنة وأيام.

ولما قتله نصر وعباس أخفيا قَتْلَه وأنكراه، وأجلسا ولده أبا القاسم عيسى بن الظافر، ولقَّباه الفائز بالله، ولما بلغ أهل القصر قَتْلُ الظافر كتبوا كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان بالصعيد وأصحبوه شعور النسوان، فلبس طلائع السواد وحشد حشداً عظيماً، وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر فساعدوه، وتوجه إلى مصر قاصداً إليها.

ولما سمع عباس وابنه نصر بذلك هربا بأموالهما، وكانت عظيمة فلما وصلا إلى مَنْهَل يُعرف بمره وأم العب خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباسا ، وأسروا نصراً.

بيعة الفائز بالله

هو أبو القاسم عيسى بن الظافر بن الحافظ، بويع له بالخلافة بالقاهرة يوم قتل أبوه الظافر، ولما وصل طلائع بن رزيك إلى القاهرة أجلسه أهلها للوزارة، ولُقِّب الملك الصالح، واستقام أمره واسْتَبَدَ بتدبير الدولة ثم بعث إلى الفرنج يطلب منهم نصر بن عباس، وبذل لهم في ذلك أموالاً جزيلة، فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وأتى به إلى القاهرة فسلمه الملك الصالح إلى النساء فَأَقَمْنَ يَضْرِبْنَه بالقباقيب الآمدية أياماً متوالية وقَطَّعن لحمه وأُطْعَمَنهُ إياه مدة ثم شووه حتى مات ثم صلبوه بباب زويلة ثم حَرَّقُوه، وأقام الملك الصالح مدة مدبراً مملكة الفائز.

وكتب الخليفة المقتفي لأمر الله إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يأمره بالمسير إلى مصر، وأَخْذَهَا، وكتب له عهداً عليها وولاه الشام ومصر والسواحل.

وفي هـذه السنة كـان استيلاء الملـك العـادل نور الـدين على دمشـق وتملكه لها، فَعَظُمَ أمره، وقويت شوكته وتأطدت دولته.

سنة خمسين وخمسمئة

في هـذه السنـة وصـل السلطـان سليمان شاه بـن محمـد بـن ملكشـاه السلجوقي إلى بغداد ضيفاً للخليفة المقتفـي ومستجيراً به، فأكرمه ووصله وبَجَّلَهُ وبعث إليه مايبعث إلى مثله، وإنما استجار به لتغلب إخوته وعمه على البلاد وخوفه منهم.

سنة إحدى وخمسين وخمسمئة

في هذه السنـة خطب الخليفة للسلطـان سليمان شاه بن محمـد ببغداد بعد خطبتـه لعمه السلطان سنجـر بن ملكشاه بـن ألب أرسلان، وتَـوَّجَهُ وطَوَّقَهُ وَسَوَّرَهُ، وأعطاه عشرين ألف دينـار، وأَحلَفَهُ على الطاعة والمناصحة وأن لايَقْصِدَ بغداد بمكروه، وأن العراق جميعـه يكون بيد الخليفة، وأن له مايفتحـه من بلاد خـراسان، فَتَوَجَّهُ سليمان شـاه قاصداً البـلاد وانضاف إليه ابـن أخيه ملكشاه بـن السلطان محمـود بن محمد، واحتشـدوا فسمع بهم السلطـان محمد بـن محمود بـن محمد بـن ملكشاه بـن ألب أرسـلان فسار إليهـم فانهزمـوا بين يديه، واستبـاح السلطان محمـد شاه عسكـرهم وسلبهم، وعادوا إلى بغداد عراة، ومضى سليمان شـاه هارباً إلى بغداد عن طريق الموصل فقبـض عليه زين الدين علي كوجـك واعتقله عنده وكتب إلى السلطـان محمد شـاه يحثه على قصـد بغـداد، فقصدهـا واضطربـت

العساكر بها وبعث الخليفة إلى زين الدين على كوجك يستدعيه لنجدته فتخلف عنه.

وفي هذه السنة تسلم الملك العادل نور الدين بعلبك وأبا قبيس وملكهما.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة وصل زين الدين علي كوجك صاحب إربل والموصل نجدةً للسلطان محمد شاه بن محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي فنازلا بغداد وحاصراها حصارا شديدا، ونصب الخليفة عليها المجانيق والعرادات، وفرّق الجواشن، فيقال أنه فرّقَ سبعة آلاف جوشن ونصب مئتين وسبعين عَرَّادَة، ونصب السلطان محمد شاه خارج البلد أربعمئة سلم ليصعدوا على الأسوار فلم تمكّنهم أهل البلد.

وبينما هَمْ على الحصار إذ وردت الأخبار بدخول السلطان ملكشاه بن السلطان محمود همذان ونهبها، وقتل أصحاب محمد شاه، فضعف أمر محمد شاه، وأقام على الحصار مدة فلم يتحصل على غرض، فرحل طالباً بلاده ورجع زين الدين علي كوجك إلى بلاده.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وبين الفرنج على صفد، فنصره الله تعالى عليهم وبعث برؤوس القتلى وتحفاً إلى بغداد.

وفيها فتح عسكر مصر غَزَّةَ واستعادوها من الفرنج، وفيها كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حماه هدمت ثلاث عشرة مدينة: حماه،

وحلب، والمعرة، وشيزر، وكفر طاب، وأفامية، وحمص، وتل عرن، وحصن الأكراد، وعرقة، واللاذقية، وطرابلس، وانطاكية إلا أن تأثيرها بحماه كان أشد، فانها أقلبتها، ومعظم أهلها، ولم تُبْقِ منهم إلاّ القليل.

وفيها كانت وفاة السلطان سنجر بن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكانت مدة جلوسه على سرير الملك إحدى وأربعين سنة، وكان قبل ذلك في عز وسلطنة، ومَلَكَ قريباً من عشرين سنة، فذلك قريب من ستين سنة، وخُطِبَ له على أكثر منابر الاسلام، وصَفَتْ له خراسان وملكها وحارب أعداءه حروباً كثيرة إلاّ أنه في آخر أمره استأسره الغُزُّ، وضيقوا عليه وأجروا عليه راتباً لايصلح لسائسه، وكان يركب معهم بتوكيل وحَفَظَة، ويُسَمُّونه بالسلطان ويقولون: نحن رعِيَّتُكَ ويظهرون تعظيمه.

وكانت وفاته لست بقين من ربيع الأول، وكان عمره اثنتين وسبعين سنة وشهوراً وعشرة أيام، ودفن في قبة بناها لنفسه، وسماها دار الآخرة.

سيرته: كان ملكاً عظيماً، جليل القدر، مهيباً كريماً رفيقاً بالرعية حليماً عنهم، وكانت البلاد آمنة في أيامه. ولما توفي السلطان سنجر قُطعت خطبته ولم يُجلَسَ له في العزاء.

وفي هذه السنة تسلَّمَ الملك العادل نور الدين بانياس من الفرنج، وفيها تسلَّم أيضاً شيزر، وكانت بيد بني منقذ، وصَفَتْ له البلاد الشامية بأسرها، ثم ملك بعد ذلك الموصل واستتب أمره، ولم يبق له بهذه البلاد كلها منازع.

وفيها نزلت الفرنج على شيزر فحاصروها وقتلوا منها خلقاً عظيماً، ثم عادوا إلى بلادهم.

سنة أربع وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي بباب همذان، وذلك في ذي الحجة، وكان ملكاً بعيد الهمة شجاعاً.

سنة خمس وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة أفرج الأمير زين الدين علي كوجك عن السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان معتقلاً عنده كما تقدم ذكره، وتوجه إلى همذان وملكها وخُطب له بالسلطنة، ثم توفي في ربيع الآخر من هذه السنة وهو آخر من بلغني خبره من السلاطين السلجوقية ببلاد العجم، ولاشك أنه ملك بتلك الناحية منهم جماعة بعده، ولم يتصل بي خبرهم إلاّ أني أعلم أن آخر من مَلَكَ منهم هناك السلطان طغرل الأصغر بن السلطان أرسلان شاه بن السلطان طغرل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داود ميكائيل بن سلجوق.

وقُتل السلطان طغرل هذا في سنة ست وتسعين وخمسمئة فكانت مدة ملك السلاطين السلجوقية من حين ظهر السلطان طغرل بك بن ميكائيل إلى أن قتل طغرل الأصغر مئة سنة وأربعاً وستين سنة.

وأما السلاطين المستولون على بلاد الروم فقد رأيت جماعة من المؤرخين أنكروا أن يكونوا من السلجوقية، وقالوا إن نسبهم إلى سلجوق غير صحيح، ورأيت جماعة منهم أثبتوا لهم في السلجوقية، منهم العماد الكاتب، وسنذكر إن شاء الله تعالى شيئاً من أمورهم في مواضعه.

وفي هذه السنة كانت وفاة المقتفي لأمر الله، وذلك في مستهل ربيع

الأول فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، وكان عمره ستاً وستين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً، وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة، وهو الذي أقام حِشْمَةَ الدولة العباسية، وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم من المتغلبين، من أيام المقتفي صارت بغداد والعراق بيد الخلفاء، ولم يبق بها منازع، وقبل ذلك من أيام المتقي كان الحكم للمتغلبين وليس للخلفاء معهم إلا الإسم.

سيرته: كان رضي الله عنه كريماً سَمْحَاً، محباً لقراءة الحديث النبوي وسماعه معتنياً بالعلم، كثير الإكرام لأهل الفضل، محباً لأهل الخير.

خلافة المستنجد بالله

هو أبو المُظَفَّر يوسف بن المستظهر بن المقتدي، وأمه أم ولد تسمى طاووس، بويع له الخلافة لليلتين مضتا من ربيع الأول بعد وفاة والده المقتفي بيوم واحد، وكتم موته، وكان أول من بايعه عمه أبو طالب بن المستظهر، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي، ثم الوزير ابن هبيرة، ثم قاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء، واستتب له الأمر.

وحكى الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة قال: حكى لي أمير المؤمنين المستنجد بالله قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم منذ خمس عشرة سنة فقال لي: يبقى أبوك في الخلافة خمس عشرة سنة، فكان كما قال، ورأيته ﷺ قبل موت أبي بأربعة أشهر فدخل بي في باب كبير، ثم ارتقى إلى الجبل، فصلى بي ركعتين وألبسني قميصاً، وقال لي: أللهم اهدني فيمن هديت، وذكر دعاء القنوت.

وفي هذه السنة كانت وفاة الفائز بالله صاحب مصر وعمره عشر سنين وشهوراً، وكانت مدة ملكه ست سنين وشهوراً.

بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، بُويع له يوم توفي ابن عمه الفائز، وأُجلس على سرير الملك وخُطب له بالديار المصرية، وزوَّجَهُ الملك الصالح طلائع بن رزيك وزيره ابنته، واستولى عليه الملك الصالح استيلاءً كلياً، وَوَلَّى الصعيد الأعلى شاور البدوي.

سنة ست وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل الملك الصالح بن رزيك، وكان من حديث ذلك أنه قطع أرزاق الحاشية، فتحالفوا على قتله، فقصد القصر قاصداً الاجتماع بالعاضد فوثب عليه سبعة مماليك قبل وصوله إلى العاضد فضربوه بالسيوف، وحُمل إلى بيته حياً فمات تلك الليلة.

سيرته: كان جواداً فاضلاً غزير الأدب شاعراً مُجيداً، وأكثر أشعاره في مدح أهل البيت، ومن جملة شعره قصيدته التي يعارض فيها قول دعبل ابن علي الخزاعي:

مدارس آياتٍ خَلَتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وَحْيٍ مُقْفِرِ العَرَصَاتِ

وأول قصيدة الصالح:

أعَاذِلُ دَعْ لَوْمي على صَبَوَاتي
فما فاتَ يمحوه الذي هو آت
وما جزعي من سيئات تقدمت
ذهاباً إذا أتبَعْتُها حَسَنَاتِ
ألا إنني أقلعتُ عن كل شُبْهَةٍ
وجانَبْتُ غرقى أبحر الشبهات
شُغِلْتُ عن الدنيا بحبِّي لمعشرٍ
بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وآخرها:

أعارِض قولا للخزاعيِّ دعبلٍ
وإن كنتُ قد أقللتُ من مدحاتي
مدارس آيات خَلَتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وحيٍ مُقْفِرِ العرصات

ولما قُتل الملك الصالح ولى العاضد وزارته ولده الملك العادل رزيك ابن طلائع، وخلع عليه خِلَعَ الوزارة.

ولما ولي الملك العادل رزيك بن الملك الصالح الوزارة بسط العدل في الرعية وتمكّن من الدولة.

استيلاء شاور على مصر

ثم أُشير على الملك العادل رزيك بعزل شاور عن ولاية الصعيد، فكتب إليه يستدعيه، فأوجس في نفسه خيفة، وكتب إلى الملك العادل كتاباً أظهر فيه الطاعة واستعطفه، وذكّره سابق خدمته لأبيه، فعزم الملك العادل على إبقائه فألح عليه أهله في عزله وقالوا: إن أبقيتَه طمع فيك. فولى الملك العادل رزيك الصعيد لنصير الدين ابن شيخ الدولة، وكتب معه كتاباً إلى شاور باستدعائه إلى القاهرة وتسليم قُوص إلى نصير الدين، فلما وصل نصير الدين إلى إخميم كتب إلى شاور كتاباً وجعل كتاب الملك العادل رُزيك في طيه، فكتب إليه شاور: أنت صاحبي فارجع من حيث جئتَ فهو خير لك فعاد نصير الدين إلى القاهرة، وجاهر شاور بالعصيان، وجمع العرب واستحلفهم وتوجه إلى القاهرة، فانهزم العادل رزيك ثم قُبض عليه فأُتي به إلى شاور مقيداً، ودخل شاور القاهرة، وحضر بين يدي العاضد فخلع عليه وحنكه واستوزره ولقّبه بأمير الجيوش المظفر واستحلف الناس له، وجلس شاور للناس فدخلوا عليه ثلاثاً وانشدوه شعراً، ثم حَبَسَ العادل رزيك وضَيّقَ عليه.

سنة ثمان وخمسين وخمسمئة

ذكر ابتداء الدولة الأيوبية: ثبَّتَ الله أركانها وأَطَّدَ بنيانها ونَصَرَ أعوانها وخلد سلطانها ومازالت راياتها منصورة ولمعاندیها مقهورة ماكرَّ الجديدان وتعاقب النيران، آمين، وكان من حديثهم فيما بلغني أن والدهم شادي بن مروان رحمه الله كان أميراً عظيم القدر، وكان مقامه بتكريت وبها توفي، وكان له ولدان هما: أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، فاتفق أن نجم الدين أيوب ولي قلعة تكريت مدة، ثم عُزل عنها وطُلب منه المقام بتكريت من غير ولاية فامتنع، وتجهز هو وأخوه وأصحابهما وأهل بيتهما إلى الموصل فخدموا بها امراءها.

ولما وصلت المملكة إلى العادل نورالدين محمود بن زنكي قصده نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين وأهل بيتهما، فقربهم، وأكرمهم غاية الإكرام وقدمهم على غيرهم من الأمراء، وصاروا من أكابر أصحابه وأعظم أرباب دولته.

ولما ملك نور الدين البلاد الشامية، واستولى عليها، كانوا في صحبته وملازمين له في سفره وحضره لايفارقونه في وقت من الأوقات.

وكان العادل نور الدين رحمه الله إذاحَزَبهُ أَمْرٌ فَزِعَ في المشورة إلى نجم الدين أيوب رحمه الله وتيمن برأيه.

وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب يقوم يومئذ على رأس نور الدين رحمه الله في الخدمة مع جملة خواصه وأولاده، وكان نور الدين يعظِّمه ويكرمه، وينزله منزلة الولد، وينزل أباه وعمه منزلة الإخوة والأهل لما كان يعرفه منهم من جميل الطريقة ومحمود السيرة وطهارة الأصل وشرف المحتد، واقتبس صلاح الدين من نور الدين من مبادىء الخيرات وجميل الصفات ما اتصف بها، وزاد عليها وجاوزها.

ولما كانت هذه السنة قَدِمَ شاور وزير العاضد صاحب مصر إلى دمشق، وذلك لستٍّ مضين من ربيع الأول واجتمع بالملك العادل نور الدين رحمه الله، ووصف له الديار المصرية، وضُعْفَ أهلها، وضمن له أنه إن بعث معه عسكراً أخذها له.

وكان السبب في قصد شاور إلى الشام وإطماعه نور الدين بديار بمصر أن شاور كان لما استقَلَّ بالملك بمصر نَقَصَ أرزاق الجند وعَسَفَهُم فتعاقدوا على قتله ومن جملتهم رجل يقال له الضرغام، فبلغ شاور ذلك فخرج ليلاً طالباً الشام، فخرج الضرغام وجماعة خلفه ليقبضوا عليه فلم يدركوه، وعاد الضرغام إلى مصر فخلع عليه العاضد واستوزره ولقَّبه الملك المنصور، واستحلف له الأمراء، فَقَتَل الضرغام من الأمراء الذين كانوا مع شاور وكاتبوه مايزيد على سبعين أميراً سوى اتباعهم.

مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر

ثم إن الملك العادل نور الدين رحمه الله جهز جيشاً كثيفاً لفتح مصر وقَدَّم عليهم الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي رحمه الله، فتوجه إلى مصر وفي خدمته شاور، ولما وصلوا إلى مصر علم الضرغام أنه قد أُحيط به فأتى إلى قصر الخلافة ونادى:يامولانا يامولانا، فلم يُجَبْ، ووردت إليه رقعة مكتوب فيها خذ لنفسك وانج بها. فيَئِسَ من الحياة وخرج هارباً فأدركه غلمان شاور فقتلوه وقتلوا معه أخويه ملهماً والحسام، ولم يَتَأتَّ لأسد الدين الاستيلاء على مصر في هذه السنة، وأعاد العاضد شاور إلى وزارته، فانحرف عن أسد الدين وَبَايَنَهُ، واستنصر بالفرنج عليه، فلما رأى ذلك أسد الدين كرَّ راجعاً إلى الشام.

سنة تسع وخمسين وخمسمئة

في هـذه السنة كسر الملـك العـادل نور الـديـن رحمه الله الفرنـج على حارم، وتَسَلَّمها وأخذ القـومص والإبرنس أسيرين، وكان ذلـك من فتوح الإسلام الجليلة.

سنة اثنتين وستين وخمسمئة

في هذه السنة كان مسير أسد الديـن الثاني إلى مصر، وكان من حديث ذلك أن الملـك العادل نور الـدين رحمه الله جهز أسـد الدين شيركـوه بن شادي في عسكـر كثيف مـن العساكر النـوريّة إلى مصر، وذلـك في ربيع الأول فسـار إلى مصر، ونزل بـالجيـزة وأقـام محاصراً لها نيفاً وخمسين يـومـاً ومعه ابن أخيه صـلاح الدين يوسف بن أيـوب رحمه الله، فاستنجد شاور بـالفرنـج وأَذِنَ لهم في دخـول مصر لنجدتـه، فقـدموا طـالبين مصر، فلما عـرف أسد الـديـن بمجيئهـم رحل مـن بين أيـديهم إلى مـوضع يعـرف بـالبابين، فعبـأ أصحابـه وجرى بينـه وبين المصريين حرب نصر الله فيهـا أسـد الـدين وقُتـل مـن الفـرنج أُلـوف وأُسر منهـم سبعـون فارسـاً مـن بارونيتهم، ثـم سار أسد الديـن وابن أخيه صلاح الـدين رحمهما الله تعالى إلى الاسكندرية فملكها، وولى فيهـا أسد الدين ابن أخيه صـلاح الدين، وخرج أسد الدين إلى الصعيد فأقام به يجبي الخراج.

وأقام الفرنج بالقاهـرة حتى استراشوا وجددوا آلات الحرب، ثم قصدوا الاسكندرية وبها صلاح الـدين يوسف بن أيوب فحـاصروها أربعة أشهر، وكـان أهل الاسكنـدريـة مؤثـريـن للغُـزّ كارهين للـدولـة المصرية، لميـل الاسكندرانيين إلى السُّنَّـةِ وكراهيتهم للبدعـة، فقاموا بنصرة صلاح الـدين أحسن قيام.

وسارأسد الدين من الصعيد بجموعه طالباً للفرنج، فلما قرب منهم رحلوا، ثم وقعتْ هدنة بين أسد الدين وشاور على أن ينصرف أسد الدين إلى الشام، ويحمل إليه شاور عوض ماأنفقه فبذل له خمسين ألف دينار، فأخذها ورحل بسجموعه إلى الشام.

سنة ثلاث وستين وخمسمئة

في هذه السنة أنعم الملك العادل نور الدين على أسد الدين شيركوه ابن شادي بحمص وأعمالها، فتسلمها وصار فيها.

سنة أربع وستين وخمسمئة

في هذه السنة كان مسير أسد الدين الثالث إلى مصر، وخبر ذلك أن الفرنج قصدت الديار المصرية، وذلك لأنهم دخلوها مرتين، كما سبق ذكره، واطَّلَعوا على عوراتها، وعرفوا جهاتها، وطمعوا في أخذها، فجمعوا جموعاً عظيمة، وأظهروا أنهم قاصدين حمص، وكان الملك العادل مشغولاً بجهة الفرات والشمال، فتوجهوا من عسقلان في المحرم فوصلوا إلى بلبيس فحاصروها وملكوها، واستولوا على أهلها قتلاً وأسراً.

ثم نزلوا على القاهرة فحاصروها، فأحرق شاور مصر خوفاً من الفرنج، فلما ضايقوا القاهرة بعث شاور إلى ملك الفرنج مُري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها مؤجل وبعضها معجل فأجابه مُري إلى الصلح، وحلف له عليه، فحمل إليه شاور مئة ألف دينار، وماطَلَهُ بالباقي، وكتب إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستصرخ

به، وسَوَّد كتبه، وجعل في طيِّها ذوائب النساء، وواصل كتبه إلى الملك العادل نور الدين، وكان مقيماً بحلب، فسار أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة واحدة فجمعا العساكر وسارا إلى دمشق وعرضا العساكر على الفور، ثم سار أسد الدين إلى مصر في سبعين ألف فارس وراجل(٦) فلما بلغ الفرنج قدومه رحلوا عن مصر راجعين إلى الساحل.

استيلاء أسد الدين على مصر

ثم دخل أسد الدين القاهرة لثلاث عشرة مضين من ربيع الآخر، وجلس في الإيوان وخلع عليه خلع السلطنة، ثم ولاه العاضد وزارته وكتب له عهداً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله ووليِّه أبي عبد الله بن يوسف، الامام العاضد لدين الله، أمير المؤمنين، إلى السيد الأَجلّ الملك المنصور سلطان الجيوش، ولي الأئمة مُجير الأمَّة أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأَمْتَعَ بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك فإنا نحمد إليك الله الذي لا اله إلا هو ونسأله أن يصلي على عبده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين ويسلم تسليماً .

ثم اتبع ذلك خطبتين فيهما مواعظ ووصايا، وأنه قد قلده الوزارة وفوض إليه تدبير الدول، بألفاظ رائقة ومعان فائقة كرهنا ذكرها مفصلة خيفةً من التطويل.

وكتب العاضد بخطه على أعلى المنشور ماصورتُهُ:

هذا عهـد لم يعهد بمثله، فتقلـد أمانة رآك أمير المؤمنين أهـلاً لحملها، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحـب ذيل الفخـار بأن اعتـزت بك بتـوة النبوَّة واتَّخِذْهُ للفـوز سبيلاً، (ولاتنقضـوا الأيمان بعد تـوكيـدها وقـد جعلتم الله عليهـا كفيلا (٧)).

مقتل شاور

وكان مقتلـه قبل أن يستوزر العـاضد أسد الـدين، وحديـث ذلك أن أسد الـدين لما دخل القـاهرة قام شاور بضيـافة عسكره وأكثـر من التردد إلى خدمـة أسد الـدين، فطلب منـه أسد الديـن مالاً ينفقـه على الأجناد فماطله شاور به، فبعث إليه الفقيه ضيـاء الدين عيسى بن محمد الهكاري يقـول لـه: إن العسكـر طلبوا نفقـاتهم وقـد مطلتهم بها وتغيرتْ قلـوبهم عليك، فإذا أتيتني فكُنْ على حذر منهم. فلـم يؤثر ذلك عند شاور شيئاً وأتى أسـد الديـن مسترسلاً فـاعترضه صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب وجماعة من الأمراء النـورية فقبضوا عليه، فجاءهم رسـول العاضد يطلب رأس شاور فقتل وحمل رأسـه إلى العاضد وذلك في اليوم الـذي دخل فيه أسد الـدين القاهرة، فقلـد العاضد حينئذ أسـد الدين الوزارة كما ذكـرناه وولاه ماوراء بابه.

وفاة الملك المنصور أسد الدين رحمه الله

وفي هذه السنـة توفي الملك المنصور أسـدالدين أبوالحارث شيركـوه بن شادي قـدس الله روحه، وذلـك يوم الأحـد لثمان بقين من جمادى الآخـرة فكانت مدة استيلائه على الديار المصرية خمسة وستين يوماً.

استيلاء الملك الناصر صلاح الدين على مصر

ولما توفي الملك المنصور أسد الدين قلّد العاضد الوزارة بموافقة من الأمراء النورية للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ابن شادي، ولقبه الملك الناصر، وخلع عليه، وكتب له منشوراً بخط القاضي الفاضل وإنشائه، فقام الملك الناصر بالوزارة وتدبير الممالك أحسن قيام، واستمال قلوب الناس بالخلع والهبات وجهز الكتب والخلع إلى الشام، وساس الناس أحسن سياسة.

نوبة السودان وقتلهم

وكان من حديثهم أن خصياً يقال له مؤتمن الخلافة، كان زمام القصر بمصر، فاجتمع بمن في القصر وحالفهم، وكاتبوا الفرنج ليساعدوهم على إخراج الملك الناصر، فظفر الملك بالكتاب ووقف عليه فأنهض إلى مؤتمن الخلافة جماعة فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوه به، فغضب السودان لذلك واجتمعوا فيما يزيد على خمسين ألفاً، فقاتلهم الملك الناصر بعساكره، فكسرهم واستباح دماءهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وهرب من سلم منهم.

وكانت لهم محلة كبيرة على باب زويلة فأمر الملك الناصر بتعفيتها فحرثها بعض الأمراء وجعلها بستاناً، وضعف أمر العاضد من حينئذٍ.

سنة خمس وستين وخمسمئة

في هذه السنة نزلت الفرنج على دمياط في مستهل صفر فحاصروها وأحدا وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبين.

قدوم نجم الدين رحمه الله إلى مصر

في هذه السنة قدم الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن شادي قدس الله روحه إلى مصر، فخرج العاضد إلى لقائه بنفسه ومعه الملك الناصر صلاح الدين ومَنْ دُوْنَهُما، وكان يوماً مشهوداً، وكان ذلك لستٍّ بقين من رجب.

استيلاء الملك العادل نور الدين على سنجار والموصل

وفي هذه السنة توجه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى سنجار فحاصرها حصاراً شديداً ثم تسلمها بالأمان، ثم توجه إلى الموصل فحاصرها وقطع الميرة عن أهلها فوقع الصلح بينهم على تسليمها لنور الدين فدخل نور الدين الموصل ورتب أمورها وبنى بها الجامع النوري، ووقف عليه الوقوف الجليلة.

وفيها كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب وذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من شوال، فيقال أنه هلك بها تحت الروم خمسة عشر ألف إنسان، ذكر أنها عمت معظم البلاد حتى جاءت في سبته من بلاد المغرب.

سنة ست وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستنجد بالله وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وأياماً، وكان عمره ثمانياً واربعين سنة.

سيرته:

كان رضي الله عنه محباً للعلم منكراً للظلم كثير الصدقات مهيباً

مخوفاً، ذا سطوة وعزيمة، وبأس شديد، ولـه شعر جيد من جملته قوله في الشمعة:

وصفـــــراءُ مثلي في القيـــاس ودَمْعُهـــا
سِجـــامٌ على الخدَّيـــن مثـــل دمـــوعـــي
تـــذوب كما في الحُبِّ ذُبْـــتُ صَبـــابـــةً
وتحوي حشـــاهـــا مـــا حَـــوَتْـــهُ ضلـــوعـــي

خلافة المستضيء بنور الله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي ابن الذخيرة بـن المنذر بن القائم بـن القادر، وأمه أم ولد أرمنيـة تدعى غَضَّة، بويـع له بالخلافة يوم تـوفي والده المستنجد بالله، ومـدحه الحيص بيص بقوله:

أقـــول وقـــد تـــولى الأمـــر خَيْرٌ
وَلِيٌّ لم يـــزل بَـــرّاً تَقِيَّـــا
وقـــد كُشِـــفَ الظـــلام بمستضيء
غـــدا بـــالخلـــق كلهـــم حفيـــا
وفـــاض الجود والمعـــروف حتـــى
حسبنـــاه عُبَـــابـــاً أو أَتِيَّـــا
بَلَغْنـــا مـــا كنـــا نُـــرجِّـــي
هنيئـــاً يـــا بنـــي الـــدنيـــا هَنِيَّـــا
ســـألنـــا الله يـــرزقُنـــا إمـــامـــاً
نُسَرُّ بـــه فـــأعطـــانـــا نَبِيَّـــا

ولما استوسـق الأمر لأمير المؤمنين المستضيء، بعث رسلـه إلى الأقطار مبشرين بخلافته، ومهنئين بإيالته.

إقامة الدعوة العباسية بمصر

في هذه السنة خطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر لأمير المؤمنين المستضيء بنور الله رضي الله عنه في أول جمعة من المحرم والعاضد حي، ثم كانت وفاة العاضد لدين الله في يوم عاشوراء بعد إقامة الخطبة بأيام قلائل، وهو آخر خلفاء مصر.

فلما كانت الجمعة الثانية خطب بالقاهرة للمستضيء ورجعت الدعوة العباسية بمصر بعد أن كانت قطعت بها أكثر من مئتي سنة (٨) ، وتسلم الملك الناصر قصر الخلافة بالديار المصرية، واستولى على ماكان به من الأموال والذخائر، وكانت عظيمة الوصف، جليلة القدر، وقبض على أولاد العاضد وأهل بيته واعتقلهم في مكان واحد بالقصر، واحتاط عليهم وأجرى عليهم مايمونهم، وعفا آثارهم وقمع مواليهم وسائر أسبابهم.

قلتُ: وكانت هذه الفعلة من أشرف أفعال الملك الناصر رحمه الله، وأقربها إلى الله تعالى، فلنعم مافعل فإن هؤلاء القوم كانوا باطنية زنادقة (٩) دعوا إلى مذهب التناسخ واعتقاد حلول الجزء الإلهي في أشباحهم.

وقد ذكرنا ان الحاكم قال لداعيه: كم في جريدتك؟ قال: ستة عشر ألفاً يعتقدون أنك إله. وقد مدح بعضُ الشعراء بعضَهم، وأظن الممدوح الحاكم (١٠) ، حكم الله عليه بالنقمة بقصيدة أولها:

ما شئتَ لا ماشاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

فلعَنَ الله المادح والممدوح وليس هذا في القبح إلا كقول فرعون: (أنا ربكم الأعلى) (١١)

وقال بعض شعرائهم يذكر ظهور مهديهم فيما يزعمون، الذي هو في الحقيقة مُضِلُّهُم وقائدهم إلى النار برقادة [١٢] من عمل القيروان:

حَلَّ رَقَّادَةَ المسيحُ حَلَّ آدمٌ ونوح
حَلَّ بها الله في عُلاَهُ وما سوى الله فهو ريح

وهذا أعظم كفراً من النصارى بكثير، لأن النصارى يزعمون أن الجزء الإلهي حل بناسوت ابن مريم فقط، وهؤلاء يعتقدون حلوله في جسد آدم ونوح وسائر الأنبياء وجميع الأئمة فلعن الله قائل هذه المقالة لعنة لاتفارقه إلى يوم الدين.

هذا اعتقادهم، فأما نسبهم فَأَئِمَّةُ النسب يجمعون على أنهم ليسوا من ولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، ولا من قريش أصلاً، وقد ذكرنا فيما مضى أن القادر بالله كتب محضراً يتضمن القَدْحَ في أنسابهم ومذاهبهم، وأنه شهد في ذلك المحضر خلق من الأكابر منهم الشريفان الرضي والمرتضى وأبو حامد الاسفرائيني، وأبو جعفر القدوري وغيرهم.

وكان عمارة الشاعر اليمني متوالياً لهم، فلما زالت دولتهم قال يرثيهم بقصيدة أولها:

رَمَيْتَ يادهر كف المجد بالشلل
وَجِيْدَه بعد حُسْنِ الحلى بالعَطَلِ
سعيتَ في منهج الرأي العَثُور فإنْ
قَدِرتَ من عثرات الدهر الجَلْي فَاسْتَقِلِ
جَدَعْتَ مارنك الأقنى فَأَنْفُكَ لا
يَنْفَكُّ ما بين أمر الشَّيْنِ والخجل
هَدَمْتَ قاعدة المعروف عَنْ عَجَلٍ
سُقَيْتَ مُهْلاً أما تمشي على مَهَلِ
لهفي ولهف بني الآمال قاطبةً
على فجيعتها في أكرم الدُّوَل

قــدمــت مصر فــأولاني خــلائفهــا
مــن المكــارم مــا أربــى على أَمَلي
قــومٌ عــرفــتُ بهم كَسْبُ الأُلــوف ومــنْ
كَمَالِهَا أَنَّها جــاءت ولم أَسَــلِ
يــا عــاذلي في هــوى أبنــاء فــاطمــةٍ
لــك الملامــة إن قصَّرْتُ في عَــذَلِ
بــالله زُرْ ســاحــة القصريــن وَٱبْــكِ معــي
عليهما لا على صِفِّيْنَ والجمــل
وَقُــلْ لأهليهما والله مــا الْتَحَمَــتْ
فيكــم جــراحــي ومــا قَــرْحــي بمنــدمــل
مــاذا تــرى كــانــت الافــرنــج فــاعلــةً
في نســل آل أمير المؤمنين علي
وقــد حصلتــم عليهــا واســم جَــدَّكُــمُ
محمــدٌ وأبــوكُــمْ خَيْرُ مُنْتَعِــلِ
مــررتُ بــالقصر والأركــان خــاليــةٌ
مــن الــوفــود وكــانــت قِبْلَــةَ القُبَــلِ
فَمِلْــتُ عنهــا بــوجهــي غير مُنْتَقَــد
مــن الأعــادي وَوَجْــهُ الــودِّ لم يَمُــلِ
أسبلــتُ مــن أسفــي دمعــي غــداة خَلَــتْ
رحــابكــم وَغَــدَتْ مهجــورة السُّبُــلِ
والله لا فــاز يــوم الحشر مبغضكــم
ولا نجــا مــن عــذاب النــار غَيْرُ ولي
ولا سقــى الماء مــن حَــرٍّ ومــن ظمــأٍ
مــن كــفٍّ خير البرايــا خــاتــم الــرسل
أَئِمَّتِــي وهُــداتي والــذخيرة لي
إذا ارتهنــتُ بمــا قــدَّمْــتُ مــن عملي
بــالله لم أُوْفِهِــمْ في المدح حَقَّهُــمُ
لأن فَضْلَهُــم كــالــوابــل الهطِــلِ

وإن تضاعفت الأقوال واستبقت
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
بانَ النجاة فَهُمْ دُنْيَا وآخرةٌ
وحُبُّهمْ فهو أصل الدين والعمل
أئِمَّةٌ خلقوا نوراً فَنُوْرُهُمُ
من نور خالص نور الله لم يُفلِ
نور الهدى ومصابيح الدجى ومَحـ
ـلُ الغيث إنْ وَنَتِ الأنواء في المَحَلِ
والله لو زلت عن حبي لهم أبداً
ما أخرَّ الله لي في مُدَّةِ الأَجَلِ

سنة ثمان وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن شادي رحمه الله، وذلك بمصر في سابع عشر من ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه الملك المنصور قدس الله روحهما، وأدام النعمة على خلفهما، ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فَدُفِنَا بها قريباً من الحجرة النبوية.

سنة تسع وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك العادل نور الدين رحمه الله ورضي عنه، وذلك بمدينة دمشق في شهر شوال بعد أن عهد بالسلطنة إلى ولده الملك الصالح اسماعيل بن محمود زنكي.

سيرته:

كان رحمه الله ملكاً عابداً زاهداً ورعاً مجاهداً في سبيل الله، كثير الصدقات والبر والاحسان، بنى الجوامع والبيمارستانات في أكثر بلاد الشام والموصل، وبنى الرباطات للصوفية والفنادق في المنازل، وأثَّرَ في الاسلام آثاراً لم يَسْبِقه أحد من الملوك إليها، وكان سخياً كريماً صالحاً معدوداً من الأبدال، وانتزع من الكفار نَيِّفاً وخمسين مدينة رحمه الله، ورضي عنه.

ولما توفي أجلس في الملك بَعْدَهُ ولدُه الملك الصالح اسماعيل بن محمود، ثم مضى بجموعه إلى حلب ومعه الأمير كمشتكين وسابق الدين عثمان واسماعيل الخازن، واستخلف بدمشق الأمير شمس الدين محمد ابن المقدم.

سنة سبعين وخمسمئة

في هذه السنة كان استيلاء الملك الناصر على دمشق، وحديث ذلك أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سار من الديار المصرية بجموعه إلى دمشق، فوصل إليها وتسلمها بغير قتال، وكان ذلك بوضع من شمس الدين ابن المقدم وبطانته، ثم خرج منها الملك الناصرمتوجهاً إلى حمص فَعَصَتْ عليه قلعتها، فتوجه إلى حماه، وملكها في مستهل جمادى الآخرة، ثم سار إلى حلب حاصرها جميع هذا الشهر، واشتد على الملك الصالح وأصحابه الحصار فاستغاثوا بالباطنية وواعدوهم بالأموال، فجاء نفر منهم فعرفهم الأمير ناصح الدين خمارتكين صاحب أبي قبيس فقتلوه وقُتلوا عن آخرهم.

ثم عاد السلطان الملك الناصر إلى قلعة حمص فحاصرها بقية رجب، وتسلمها بالأمان في شعبان بعد قتال شديد، ثم تَوَجَّه إلى بعلبك فتسلمها في شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

كسرة المواصلة على القرون:

ثم اجتمع الحلبيون والمواصلة، وتوجهوا إلى حماه فحاصروها حصاراً شديداً، وتقدم الملك الناصر إلى حماه فنزلها والتقى الفريقان بقرني حماه فكانت الكَرَّة للسلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله، وانهزم المواصلة أقبح هزيمة فحقن السلطان دماءهم ونَهْبَ أموالهم، ثم تقدم إلى قرا حصار من عمل حلب، ثم وقَعَ الصلح بين السلطان والمَوَاصِلَة والحلبيين على أن يكون له مابيده من الشام إلى آخر بلدحماه والمعرة وكفر طاب، مضافة إليه، وحلفوا له على ذلك وعاد فنزل على حماه ووصلته رسل أمير المؤمنين المستضيء رحمه الله بالتهنئة والتحف الجليلة والتشريفات، ثم تجهز السلطان إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد وأقطع حماه خاله شرف الدين محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ثم توجه إلى دمشق.

سنة إحدى وسبعين وخسمئة

في هذه السنة كانت كسرة المواصلة على تل السلطان، وحديث ذلك ان المواصلة نكثوا عهدهم وحنثوا في يمينهم التي حلفوها للسلطان الملك الناصروافوا من الموصل في جموع كثيرة فخرج إليهم السلطان الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان يوم الخميس العاشر من شوال، فكسر المواصلة فولوا مدبرين لايلوون على شيء واستولى عليهم السلطان أسراً ونهباً، وحقن دماءهم، واستولى على خيمهم وأمتعتهم، ثم أحضر الأمراء الذين أسرهم، فخلع عليهم وأطلقهم، ثم صار إلى بزاعه فتسلمها، ثم إلى منبج ففتحها واستولى عليها، ثم سار إلى حصار عزاز.

- ٩٩٦٩ -

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

في هذه السنة حاصر السلطان الملك الناصر صلاح الدين حلب مدة، ثم وقع الصلح بينه وبين الحلبيين، وأبقى على الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين، و ردّ عليه حصن عزاز، وعاد السلطان إلى مصياف بلد الباطنية، فنصب عليه المجانيق وأباح قتلهم وتخريب بلادهم فتضرعوا إلى شهاب الدين صاحب حماه خال السلطان فسأل فيهم فرحل عنهم إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر، فأمر ببناء السور الأعظم المحيط بالقاهرة ومصر، وبإنشاء القلعة بجبل المقطّم، فشرع فيه، ثم توجه إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي فكان يتردد إليه الخميس والسبت، ثم عاد إلى مصر وبنى تربة الشافعي رضي الله عنه، ثم خرج إلى الفاقوس فخيَّم بها إلى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين (١٣).

سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة الرملة وكان من حديثها أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله خرج من القاهرة لثلاث مضين من جمادى الأولى لجهاد العدو، وخيَّم ببلبيس، ثم سار إلى عسقلان فسبى وغنم وأسر من الفرنج جماعة، وضرب أعناقهم، ثم مضى إلى الرملة فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت أثقال عساكر المسلمين في العبور عليه، وبينما هم كذلك وإذا الفرنج قد أشرفت على المسلمين بأطلابها، وحملوا على المسلمين فانهزموا وتفرقوا وثبت السلطان الملك الناصر وابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وأبليا بلاء حسناً واستشهد من المسلمين جماعة منهم شهاب الدين أحمد ولد الملك المظفر رحمه الله، ثم جاء الليل وقد احتوت الفرنج على أثقال المسلمين، فلم

يبق لهم قدرة على ماء ولا زاد ودليل، وتعسفوا في تلك الرمال حتى وصلوا إلى مصر، وقد هلك خلق من الناس والدواب، وضَلَّ خَلْقٌ فأخذهم الفرنج أسرى، وجملة الأمر أنها كانت نوبة صعبة على المسلمين.

في هذه السنة نزلت الفرنج على حماه، وهي يومئذ بيد الأمير شهاب الدين محمود بن تكش خال السلطان، وكان مريضاً مجهوداً، وكان الأمير سيف الدين المشطوب قريباً من حماه فدخلها واجتمعت إليه رجال، وزحفت الفرنج إلى حماه فقاتلهم المسلمون قتالاً شديدا مدة أربعة أيام ثم رحلوا عنها، فنزلوا على حارم ونصبوا عليها المجانيق والسلالم وحاصروها حصاراً شديداً مدة أربعة أشهر، ثم رحلوا عنها إلى بلادهم.

ولما عاد السلطان من الرملة إلى مصر بمن معه أقام بها إلى السادس والعشرين من شعبان ثم خرج منها بعد أن استخلف على مصر أخاه الملك العادل، فأقام مخيماً على البركة بقية شعبان وجميع شهر رمضان حتى تكاملت عنده العساكر وَعَيَّدَ بالبركة عيد الفطر.

وكان قد بلغه نزول الفرنج على حماه، فأسرع في السير رجاء أن يُدركهم فيُوقِع بهم، وكان وصوله إلى دمشق لِسِتٍّ بقين من شوال فأقام بها إذ تحقق رحيل الفرنج عن حماه.

وفي هذه السنة عصى الأمير شمس الدين محمد بن المقدم ببعلبك، وامتنع من الحضور عند السلطان، فكاتبه السلطان ورَفَقَ به فلم يُجب، ولم يَزَل على امتناعه إلى أن دخلتْ سنة أربع وسبعين وخمسمئة.

وفي هذه السنة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى حمص ليكون في مقابلة الفرنج لأنه بلغه أنهم اجتمعوا تحت حصن الأكراد وعزموا على الغارة، ولما أَمِنَ مِنْ غارتهم سار إلى بعلبك ونزل بظاهرها

على رأس العين التي بها، فأقام عليها أشهراً يُراوِدُ شمس الدين على الرجوع إلى طاعته، وهو يأبى عليه، ولايزداد إلا عصياناً ولجاجاً، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن دخل شهر رمضان، فأجاب شمس الدين بن المقدم لتسليم بعلبك إلى السلطان على عَوَضٍ طلَبَهُ، فتسلمها السلطان، وأَنْعَمَ بها على أخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب.

ثم سار السلطان إلى دمشق في شهر شوال، ثم رَغَّبَ السلطان أخاه الملك المعظم في إقطاع أَقْطَعَه إياه بالديار المصرية، فمضى إلى مصر وتسلم السلطان بعلبك وذلك في ذي القعدة.

وفي هذه السنة أنعم السلطان الملك الناصر على ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب بحماه، والمعرة، وأفامية، ومنبج، وقلعة نجم، فتسلمها، وبعث نوابه إليها، وذلك بعد أن توفي شهاب الدين خال السلطان.

سنة خمس وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة مرج العيون، ومن حديثها أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب كان نازلاً بتل بانياس، يبعث سراياه إلى الفرنج، ولما كان ثاني شهر المحرم ركب السلطان في جمع يسير ووقف في بعض الطرق، فرأى راعي أغنام وأبقار قد جفلتْ، فسأله السلطان عن الفرنج فأخبره بقربهم، فعاد السلطان إلى مخيمه، وأمر ا لعسكر بالركوب فركبوا، وسار بهم السلطان إلى أن أشرف على الفرنج وهم ألف قنطارية، وعشرة آلاف مقاتل مابين فارس وراجل وفيهم بارزان وابنه بادين وأود مقدم الداويَّة، وجماعة فحملوا حملة عظيمة على المسلمين فثبتوا لهم، ثم حمل المسلمون عليهم فولوا الأدبار

منهـزمين، وركب المسلمـون أكتافهـم فقتل أكثـرهم، ونجـا منهم الأقـل وأُسر منهم مئتان ونيّف وسبعون أسيراً، منهم بـادين بن بارزان، وأود ابن القومصيـة وأَخَوَا صاحـب جبيل، فحملـوا إلى قلعة دمشق فـاعتقلوا بها، فأما ابن بارزان فاستَفَكَّ نفسه بجملة عظيمة وبألف أسير من المسلمين، واستفك ابن القومصية نفسه أيضا بجملة، ومات أود في السجن.

وفي هذه السنـة كانـت وفاة المستضيء بنـور الله، وذلك لليلتين مضتـا من ذي القعدة، وكانت خلافته تسع سنين وأشهراً.

سيرته: كان رضي الله عنه عادلاً جـواداً، مؤثراً للخير بعيداً، عن الشرّ، كثير الصدقات والمعروف، متكثراً من العلماء محبـاً لهم، وخُطب له بالديار المصرية واليمـن، وكانت الـدعوة العباسيـة منقطعة بهما من زمـن المطيع، وقد ذكرنا ذلك.

ولما ولي المستضيء بـالخلافة أظهـر من العـدل والكرم ببغـداد مالم يُـرَ مثلُه في السنين المتطاولـة، ونادى برفع المكوس والمظـالم، وردَّ أملاكاً كثيرة كانـت غُصِبت من مُـلاَّكها إليهم، وفَـرَّقَ أموالاً جـزيلة على بني هـاشم والفقهاء والصوفية وغيرهم.

خلافة الناصر لدين الله أمير المؤمنين

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر، وأمه أم ولد يقال لها[زمرد خاتون] بويع له بالخلافة ببغداد يوم توفي والده المستضيء وكان عمره يوم بويع له ثلاثا وعشرين سنة وشهوراً.

ولما بويع مدحه أمين الدولة أبوالفتح[سبط] ابن التعاويذي بقصيدة أولها:

طـــاف يسعـــى بها على الجُلاَّسِ
كقضيـــب الأراكـــة الميَّـــاس
ورأى الغـــانيـــات شيبـــي فأَعْرَضْـــ
ـــن وقُلْـــنَ الشبـــاب خير النـــاس
كيـــف لا يفضُـــلُ الســـواد وقـــد أضحـــ
ـــى شعـــاراً على بنـــي العبـــاس
أمنـــاء الله الكـــرام وأهـــل الجـــ
ـــود والحلـــم والتقـــى والبـــاس
ولقـــد زُيِّنَـــتِ الخلافـــة منهـــم
بـــإمـــام الهدى أبي العبـــاس
مَلِـــكٌ جَـــلَّ قُـــدسُـــهُ عـــن مثـــالٍ
وتعـــالـــتْ آلاؤُهُ عـــن قيـــاس
يـــا لها بيعـــةً أَجَـــدَّتْ مـــن الاســـ
ـــلام بـــالي رســـومـــه الأدراس
وَلِيَ اللهُ أمـــرَهَـــا فَلَـــهُ المنَّـــ
ـــةُ فيهـــا عليـــه لا للنـــاس (١٤)

سنة ست وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة بسط الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين العدل، وأَمَرَ بإراقة الخمور، وكَسْرِ الملاهي وإزالة المكوس والضرائب، فعمرت البلاد، وكثُرت الأرزاق، وقصد الناس بغداد من أقطار الأرض، وتَيَمَّنَ الناس بخلافته وتبركوا بإيالته.

وفيها تَوَجَّه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى بلاد الأرمن فنزل على حصن المناقير ففتحه وهدمه، وكان صاحب الأرمن يومئذ ابن لاون، ثم وقع الصلح بين السلطان وابن لاون على خمسمئة أسير من المسلمين أطلقهم ابن لاون، ثم عاد السلطان إلى حمص فنزلها، وأتته رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بالتقليد والتشريف له بالسلطنة والزعامة، وركب السلطان في الخلعة، وكان يوماً مشهوداً، ثم سار السلطان إلى الديار المصرية.

سنة سبع وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب، فوصل إلى حلب ابن عمه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل، واستولى على خزائنها، ثم علم أن الأمر بها لايتم له مع وجود السلطان الملك الناصر، فطلب من أخيه عماد الدين زنكي ابن مودود بن زنكي صاحب سنجار أن يعطيه سنجار ويعوضه عنها حلب ففعل، وأقام عماد الدين زنكي بحلب، ومضى عز الدين إلى سنجار فتسلمها.

وفي هـذه السنـة بعـث السلطـان أخاه ظهير الـديـن سيـف الإسـلام طغتكين بن أيوب إلى ا ليمن، فملكها واستولى على بلادها.

سنة تسع وسبعين وخمسمئة

في هذه السنـة توجه السلطان الملـك الناصر من مصر إلى دمشـق، ثم خرج إلى بيسـان وطبرية غازيـاً، وجرى بينه وبين الفـرنج قتال، ثـم سار السلطان إلى البيرة وقطع منها الفرات، وسار إلى الـرَّها ففتحها، ثم مضى إلى الـرقة ففتحهـا ثـم إلى نصيبين ففتحها، ثـم سـار إلى الموصل فنـازلها وصاحبهـا عز الدين مسعـود بن مودود بن زنكـي ، فاستشفع عز الـدين بـالخليفة النـاصر لـدين الله فشفـع فيـه فرحـل عنـه السلطان ونـزل على سنجار فحاصرها، ثم تسلمها وأسقط عنهم المكوس.

ثـم عادالسلطـان إلى حران فـأقام بها، ثـم توجـه إلى حرزم وكتـب إلى الخليفـة يطلب منـه تقليداً شريفـاً بآمـد، فوصلـه التقليد في ذي الحجـة، فسار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة.

سنة ثمانين وخمسمئة

في هذه السنـة فتح السلطان آمـد، وذلك بالأمـان في العشر الأُوَل من المحرم وسلمها إلى نور الدين محمد بـن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، لأنه كـان وعده بها، وكتـب له بها وبأعمالها تقليـداً، فتسلمهابما فيهـا من الذخائر.

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب ابن أخي السلطان، فاشتد حزن السلطان عليه وكان نائبه بدمشق، ففوض السلطان نيابته بها إلى شمس الدين محمد بن المقدم.

استيلاء الملك الناصر على حلب

ولما فتح السلطان آمد ووهبها لنور الدين محمد سار إلى حلب فحاصرها أشد حصار، ثم وقع الصلح بين صاحبها عماد الدين زنكي والسلطان على أن يُعَوَّضَهُ السلطان عن حلب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وتسلم السلطان رحمه الله حلب في ثاني عشر صفر من هذه السنة، فامتدحه القاضي محيي الدين بن القاضي زكي الدين قاضي القضاة بدمشق بقصيدة منها:

وَفَتْحُكُم حلباً بالسيف في صفرٍ
مُبَشِّرٌ بفتوح القدس في رجب

فتفاءل السلطان بذلك، واتفق وقوع الأمر على ما أخبر، فإن القدس فتح في سنة ثلاث وثمانين في شهر رجب كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولما فتح حلب واستولى على معاقلها جميعها، ولم يبق منها معقلٌ غير حارم مع أحد المماليك النورية، فسار إليها السلطان وتسملها، ثم أنعم السلطان بحلب على أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب.

ثم جمع السلطان وسار إلى الكرك فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ثم وردت الأخبار إلى السلطان باجتماع الفرنج فترك الكرك وسار إليهم بعد أن كان قد أشرف على أخذه فخالفوه الطريق إلى الكرك، وأتوا إليه بجموعهم ففات على الناس أمر الكرك فسار إلى نابلس ثم إلى الفوار، ثم دخل دمشق.

سنة إحدى وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة سار السلطان الملِك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قاصداً الموصل، ولما قارب حلب تلقاه صاحبها أخوه الملك العادل سيف الدين رحمهما الله، ثم توجه إلى حَرَّان وكان صاحبها الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين على كوجك قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران تكون برسم النفقات، ولما وصل السلطان وأقام أياماً لم ير لذلك أثراً، فغضب على مظفر الدين واعتقله ثم عفا عنه بعد أن تسلم منه قلعتي الرَّهَا وحَرَّان، ثم أعادهما إليه في آخر السنة.

ثم صار السلطان إلى الموصل فحاصرها وضايقها، ثم وردت الأخبار على السلطان بوفاة شاه أرمن صاحب أخلاط، ووفاة نور الدين محمد بن أرسلان، فتَقَسَّمَ فكر السلطان فيما يفعله، واختلفتْ آراء أصحابه اختلافاً كثيرا، فمنهم من أشار عليه بالمقام على حصار الموصل ومنهم من أشار عليه بقصد تلك البلاد.

وبيناهم على ذلك إذ وصلت إلى السلطان رُسُل أمراء أخلاط وأكابر دولتها بتعجيل السير إليهم، فرحل قاصداً أخلاط وقَدَّمَ في مقدمته ابن عمه ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ومظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، فمضى الأميران ناصر الدين ومظفر الدين إلى أخلاط فوجدا بكتمر أحد مماليك شاه أرمن قد دخل إلى أخلاط وملكها وعصى بها.

ووصل شمس الدين البهلوان محمد بن ايلدكز في عساكر أذربيجان وغيرهم قاصداً أخلاط فنزل قريباً منها، وكان الوزير مجد الدين بن الموفق بن رشيق بأخلاط فجعل يكاتب البهلوان مرة والملك الناصر مرة

أخرى، ولماوصل السلطان إلى ميافارقين نازلها وكتب إلى مظفر الدين وناصر الدين يأمرهما بالعود إليه فعادا إليه، واجتمعوا على منازلة ميافارقين،ثم تسلمها بالأمان وسلمها إلى مملوكه سنقر الخلاطي وذلك في أول جمادى الأولى، ثم رحل عنها السلطان فنزل على القرمان، وأتته رسل البهلوان بما فيه من الصلاح، وأن يرجع السلطان عن أخلاط، فأجاب السلطان على أن يرحل البهلوان عن أخلاط إلى بلاده.

ثم رحل السلطان إلى الموصل فحاصرها وضايقها، فخرج إليه جماعة من النساء الأتابكيات فخضعن له وسألنه الصلح فأنزلهن في خيمة وأكرمهن وقَبِلَ شفاعتهن، واستقر الأمر على أن يكون في المتوسط عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، فتوسط بين السلطان والمَوَاصِلَةُ على أن تكون بلاد شهْرَزُوْر وحصونها وضياعها والبوازيج والرستاق للسلطان، وضربت السكة في الموصل باسمه وخُطب له بها وأقَرَّ الموصل على صاحبها، ثم رحل إلى حران فأقام بها مريضاً إلى آخر السنة.

وفي هذه السنة كانت وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، فأنعم السلطان بحمص وبلادها بعده على ولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد، وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة يقيناً.

سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر رحمه الله بحرَّان، وقد صح مزاجه فرحل منها ومعه أخوه السلطان الملك العادل رحمه الله، والملك الظاهر، والملك العزيز ولدا السلطان، فتوجهوا إلى دمشق.

- ٩٩٧٩ -

استيلاء الملك الظاهر على حلب

وكنا قد ذكرنا أن السلطان الملك الناصر لما فتح حلب أنعم بها على أخيه الملك العادل، ولما كانت هذه السنة وصل السلطان إلى دمشق ومعه الملك العادل، نزل الملك العادل عن حلب وبذلها لأحد أولاد أخيه السلطان الملك الناصر، فشكره السلطان على ذلك وسلمها وبلادها إلى ولده السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايلغازي بن يوسف بن أيوب رحمه الله.

ثم خرج السلطان إلى نواحي البلقاء فخيم بالزرقاء، وذلك في جمادى الآخر، ثم سيَّر أخاه الملك العادل رحمه الله إلى مصر لتدبير أموالها والقيام بأحوالها، ثم عاد السلطان إلى دمشق فأقام بها متهيئاً لجهاد الفرنج، مستعداً لقتالهم إلى أن خرجت السنة.

سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة كتب السلطان الملك الناصر إلى الأقطار يستدعي الأجناد إلى الجهاد، وخرج من دمشق في مستهل المحرم وخيَّم على قصر سلامة من بُصرى مرتقباً وصول الحاج خوفاً عليهم من الفرنج، فوصلوا بُصرى في أول صفر فأمر السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين رحمه الله بالنزول على رأس الماء لتجتمع العساكر عنده، فتوجه إليه ونزل به.

ومضى السلطان إلى الكرك والشوبك فأحرق كرومها وضياعها، وأقام هناك شهرين، واجتمعت الأمراء برأس الماء عند الملك الأفضل نور الدين، فجهز السرايا والغارة على طبرية، وقَدَّم على العساكر الشرقية مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ثم على عسكر

حلب الأمير بدر الدين دُلـدرم، وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي،فسروا مدلجين حتى صَبَّحُوا صفورية.

وعلمـت الفـرنـج خبرهـم فخـرجـوا إليهـم والتقـوا فنصر الله تعـالى المسلمين وقتلوا منهم مقتلـة عظيمة منهم: [مقدم] الاسبتـار، وأُسر منهم خلق، ثـم سار السلطـان من الكـرك مُجِدًّا حتى خيَّـم بعشترا، واجتمعت إليه بها العسـاكر جميعها فعـرض العسكر وبـذل فيهم، ثم سـار بهم وَقَدْ ملأ الفضـاء حتى أتـوا الأردن، فنزل على ثغر الأقحـوانة، وقـد اصطفت الفرنج بصفـورية فرتَّب السلطان جُمْلَـةً من العساكر في قبـالتهم، ومضى إلى طبرية فتسلمهـا عنوة، ولما علمـت الفرنـج تَسَلُّمهُ لها تهيـأوا لقصده، فعلم السلطان ماقد أجمعوا عليه، فسـار بجموعه إليهم، ورتَّبَ أطلابه في مقابلتهم ثم صابحهم وبايتهم وضيَّق عليهم فآووا إلى جبل حَطِّين.

وقعة حطين

فأحاط المسلمون بهم من كل جانب وصاروا في قبضتهم، وهربـب القومـص لعنه ا لله لما أيقـن بالهلكـة، واسْتَمرَّتِ الحرب فكـانت الـدائرة على الفـرنج، فـأخذوا أخـذاً باليـد، وحصل في الأسر الملـك كي وأخـوه جَفْـري، وصاحـب جبيل، وهنفـري والإبرنـس أرناط صـاحب الكـرك ، فقتـل السلطان ارنـاط صـاحب الكـرك بيده، ثـم كُبِّـل جميع الاسـارى وحملوا الى الحصون الاسلامية ، والحبوس السلطانية ، واخذ السلطان من الفرنـج يومئذٍ صليـب الصلبوت ، وهي الخشبـة التي تزعـم النصارى ان المسيح عليه السلام صُلب عليها .

وكانـت هذه الموقعة يوم السبـت نصف شهر ربيع الآخـر ، ولم يُفْلِت من الفرنج فيها إلا آحادٌ ، وكانت من أعظم فتوح الاسلام وأشرفها .

ثم بعث السلطان من تسلم حصن طبرية وكان بيد امرأة فأُومنت على مالها ورجالها وتُسُلِّم الحصن منها .

فتح عكا : ثم رحل السلطان رحمه الله الى عكا فوصلها يوم الخميس لعشر بقين من ربيع الآخر فتسلمها بالأمان وملكها .

ولما نصر الله تعالى السلطان على الفرنج كتب الى اخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر وهو بمصر بالبشرى فخرج من مصر بجنوده قاصداً السطان، فاجتاز بمجدل يابا ويافا ففتحها عنوة، وغنم من الأموال مايعظم قدره، ثم فتح الله سبحانه الناصرة وصفورية على يد مظفرالدين بن زين الدين عنوة، وقيسارية على يد الأمير بدر الدين دُلدرم والأمير غرس الدين قلج عنوة، ونابلس على يد الأمير حسام الدين لاجين بالأمان بعد قتال كثير، ثم فتح حصن الفولة بالأمان، ثم نازل السلطان تبنين ففتحها، وفتح صيدا ثم بيروت ثم جبيل.

فتح عسقلان

ثم سار السلطان الى عسقلان فحاصرها حصارا شديدا ونصب عليها المجانيق ثم فتحها بالأمان.

ذكر الفتح القدسي

ثم سار السلطان رحمه الله إلى البيت المقدس فنزل غَرْبِيَّه، وذلك يوم الأحد لخمس عشرة ليلة مضت من رجب، وكان في القدس يومئذ ستون ألف مقاتل فقاتلهم المسلمون أشد قتال، ثم انتقل السلطان إلى الجانب الشمالي من القدس وخَيَّم هناك ونصب المجانيق، وطلب الفرنج الأمان فأُومنوا بعد امتناع كان من السلطان، وقرر على كل رجل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة دنانير، وعلى كل صغير دينارين، وشرط عليهم أن من عجز عما وجب عليه بعد أربعين يوماً ضُرب عليه الرِّق، فأجابت الفرنج إلى ماقُرِّر عليهم.

وتسلم السلطان البيت المقدس، وذلك لثلاث ليال بقين من رجب، وكانت مدة مقامه بيد الفرنج إحدى وتسعين سنة.

ولما كان يوم الجمعة لأربع مضين من شعبان أُقيمت الجمعة بالمسجد الأقصى، وخطب بالناس القاضي محيي الدين بن زكي الدين، ثم شرع السلطان في إصلاح المسجد الأقصى والصخرة حتى أعادهما على ماكانا عليه قبل استيلاء الفرنج عليهما، وأزال ماكان فيهما من آثارهم.

ثم تنافست ملوك بني أيوب فيما يؤثر عنهم من المآثر الحسنة، ففعل السلطان الملك العادل كل فعل جميل وصنع جليل، وأتى الملك المظفر تقي الدين عمر بما عَمَّ به العُرْف، وعَمر فبنى ونهى وأمر .

وفعل الملك الأفضل كل فِعْلٍ مُفَضَّل، وفعل أخوه الملك العزيز من المآثر الحسنة ما استنطق به أَلْسِنَةَ الشُّكْر وَحَازَ بِهِ جميل الأَجْر، رحمهم الله أجمعين، وقَدَّس أرواحهم.